كلمة العدد

لماذا مجلة "الحياة الثقافية"؟

رب قائل يقول : وهذه مجلة اخرى تصدرها الدوائر الوزارية فهي مجلة رسمية او كالرسمية ، وليس في مجال الرسميات يقع بالطبع هذا النوع مما يكتب الناس وينشرون . وان من القوالب المنطقية احيانا ما يعمي عن الحقائق البديهية . ففي خضم هذا العالم الذي التأمت اجزاؤه وتقاربت وهزته عجلة السرعة ، في هذا الاطار التاريخي الذي يحيطنا به العصر ويتضمن تناقضات واحداثا متوالية وتحولات جذرية قاطعة وتطورات سريعة مدهشة فيها للعلم والفكر نصيب اساسي ، وفي نطاق سعينا في سبيل النمو وتطلعاتنا الى مستقبل افضل ونظرة اوضح واقدر على التجدد والنفاذ ، ليس من الغريب في شيء ان تجد وزارة الشؤون الثقافية ، ومعها الكثير من المثقفين ورجال الفكر التونسيين ، ان اصدار مجلة ثقافية واجب من واجبات وزارة الشؤون الثقافية على قدر ما حتمت الحياة العصرية استعمال وسائل الاتصال الجماهيري - MASS MEDIA - لاغتصاب المنزلة والفضاء الذي ينبغي ان تشغله الثقافة في حياة البشر والا فهي مهددة بان تطغى عليها ظواهر اخرى من الحياة العصرية الصاخبة ...

ان المجلة ، أيًا كانت ، رسالة وبلاغ او ذلك ما ينبغي لها ان تكون ، وعن ذلك يتولد كل ما ينبغي للقارىء ان يقتضيها اياه من اداء امانة هي امانة الفكر في اشمل معانيه ومن ربط صلة هي الصلة بين المحتمِل للامانة والمستعد لتقبلها المرتقب بلوغها اليه .

ونامل لمجلتنا الجديدة ان تكون بلاغا وملتقىً للاقلام والافكار التى تحاول من خلال الدراسات والبحوث العلمية او الفصول الادبية او غير ذلك من ضروب الانتاج الادبي والعلمي والفني ، تحسس الذات الجماعية الجديدة التي تسعى هذه الامة الى نحتها بمجهودها الشخصي لكي تبرز وجهها الحضاري المستجد ...

ونطمح لان تكون مجالا ملائما لحوار مثمر بين مفكرينا، ووجها ناصعا من وجوه مساهمتهم في تجلى النظرة وتجديد الرؤية وتعميق الادراك والبحث المستمر عن السبيل ...

ونريد لها ان تكون اداة للتعريف تعطي صورة عن الحياة الثقافية التى شهدت تطورا بينا منذ الإستقلال واصبحت البلاد تزخر بها في نطاق سياسة الانبعاث الثقافى التي ارادتها الامة وسهرت الحكومة على تطبيقها وانجاحها و وسيلة لقاء تساهم فى تلبية حاجة القراء المتزايد عددهم ، فى مجتمعنا الحاضر ، الى غذاء ثقافي منوع مجدد ، بتوفير هذا الغذاء واعتماده طاقة فعالة في بناء المستقبل والمصير ،،،

ومهما يكن تقييمنا لانتاجنا الثقافي المعاصر ومهما تكن مواقفنا مما تتمخض عنه حياتنا الثقافية بصفة يومية فاننا نظل بحاجة لان نعرف هذا الانتاج ، ويظل انتاجنا بحاجة لان يعرف ويجاوز حدوده الضيقة ويحول الى طاقة فاعلة ، وليس خفيا ان حظ انتاجنا الثقافي من المعرفة والرواج بالمشرق العربى يسير ضئيل ، وان مجلة « الحياة الثقافية » لتامل ان تكون اداة ناجعة للتعريف بالانتاج الفكري التونسي خاصة والمغربى عامة،بسائر البلاد العربية ، وان تعمل على تمكينه من اداء دوره المأمول وادراك منزلته الملائمة فى الثقافة العربية المعاصرة .

تلك هي الخطوط الرئيسية لاهداف مجلتنا الجديدة ولا تهمنا بعد ذلك الاشكال والاعراض ، فمجلتنا متفتحة لكل ما هو قيم جيد من الانتاج بقطع النظر عن الانماط الفنية والاتجاهات الادبية والفكرية ، بل إننا نجد فى تنوع هذه الانماط والاتجاهات تلاقحا وثراء يحققان مناخا ملائما لحوار مثمر بناء .

ليس لمجلة « الحياة الثقافية » مذهب فكري بعينه او ايديولوجية مقررة ، عنها تصدر ، وتدعو اليها ، او تلزم بها او تحصر فيها نظرتك للاشياء فهي لا تريد ان تملي او تلقن او ترغم ، وانه لا اكراه في دين ولا تفكير،انما تريد ان تكون عونا على الاهتداء الى سبل التفكير الحازم المعالج للقضايا بالسلاح الذي هو وحده سلاح الفكر : الحرية ، اي مغامرة الفكر وجهاده ومجاهدته فى سبيل اكتشاف وجه الحقيقة الكامنة فى كل معضلة .

وهي متفتحة لما يقدمه الباحثون والمحققون من دراسات فى مجال التراث والماضي بقدر تفتحها للانتاج الجديد ، وستعنى بما يرد عليها من دراسات فى نطاق العلوم الصحيحة عنايتها بالعلوم الانسانية والفنون وسائر ضروب الانتاج العلمي والادبي والفني .

وبعد فـ « الحياة الثقافية » ستكون قادرة على ادراك اهدافها المأمولة بقدر ما تجد من المؤازرة والدعم من الكتاب ورجال الفكر والادب والفن الذين يساهمون فى تحريرها وتغذيتها ، والحق انهم هم المعنيون قبل سواهم برسم ملامحها الاساسية التي ستكتسبها شيئا فشيئا فتؤلف منها شخصيتها ، وهم المعنون بتطوير هذه الملامح وفقا لما تقتضيه سنة النشوء والارتقاء . و « الحياة الثقافية » ترحب بكافة الاقلام التونسية والمغربية والعربية،ويشرفها ان تجد من هذه الاقلام ما يساعدها على الاسهام فى خدمة الثقافة والفكر بمعالجة القضايا الجوهرية التى يتحدى بها العصر عموم الامم وبالخاصة الامم الساعية الى النمو والتي على حلها الحل الثقافي الاصيل،يتوقف تحقيق المصير الافضل لتلك الامم وللحضارة البشرية معًا .

" الحياة الثقافية "

الدكتور
هشام بوقمرة

اللغة العربية أمام تحديات المستقبل (1)

دعاني الى تناول هذا الموضوع ، ما لاحظته من استمرار النقاش وتضارب الاراء في قضية اللغة القومية وعلاقاتها ، من جهة اولى ، بالنمو الحضاري بشكل عام ، ومن جهة ثانية ، باللغات الاجنبية المساعدة ، بشكل خاص . فلا يكاد يمر يوم دون ان تطلع علينا ، في تونس ، جريدة سيارة او مجلة ، بوجهة نظر او بموقف او برسالة مفتوحة حول اللغة العربية ، وحول الازدواجية وحول دور اللغة الام ، او اللغة القومية ، في بناء الواقع والمستقبل ، اي ان الموضوع الذي كان يمكن له ان يكون مجرد نتيجة طبيعية ، اي امتدادا حتميا لحركة التحرر السياسي ، اصبح شيئا فشيئا يطرح على انه قضية ، بل مشكلة معضلة ومصيرية ، فالتبست فيه الاهواء وتنازعته المشارب وخالطته المغالطات والمقولات الموضوعة ، عن عمد تارة ، وعن نية صادقة ، ولكن جاهلة ، تارة اخرى .

ولست ادّعي هنا اني اختطفت من ذاكرة التاريخ العصا السحرية التي ساقلب بها المقولات والمسلمات واقول بها فصل الخطاب في موضوع لن يفصل فيه القول ، لانه نام نمو الحياة . وانما ساحاول أن احمل مساهمة متواضعة ، ولكنها مؤمنة ، في محاولة طرح القضية من خلال مسائلة موضوعية تحاول قدر الامكان ان تتجنب ثرثرة المنابر او تقريرات الاستاذية المتعالية .

لقد جعلت عنوان الموضوع : « اللغة العربية امام تحديات المستقبل » وكان يمكن ان يكون بشكل اخر ، اذ المراد في نهاية المطاف ، هو التعرف الى الدور الذي تستطيع اللغة العربية ان تنهض به او له ، في عملية بناء الحاضر وابتكار ملامح المستقبل وتحديد الاطار العام لمساهمتنا الابداعية ، اي الايجابية ، في الحضارة الانسانية . ولكن صيغة العنوان المعروضة عليكم تعمدت الاستثارة ، فهي صيغة استفزازية ، هدفها استنفار الهمة وربما ايضا تحريك الحمية وبالتالي النقاش ، لان المستقبل يمثل المجهول المداهم الذي يتهجم على راحتنا اليومية وميلنا الطبيعي الى التكاسل والى ارسال الفكر في مجاري السهولة والآنية والممكن المتاتى لا الآتي .

ولكن ماذا اقول : ان المستقبل يمثل المجهول ! اراني قد دخلت كانما من حيث لا ادري ، في التعريفات التقريرية ، واخاف ان اكون مخطئا ، ولكننا لا بد ان نغامر بتقديم بعض المفاهيم ، اي بعض المفاتيح التي تمنع النقاش على الاقل من أن يتبعثر في متاهات المسلمات الخاصة بكل فرد . ان اصعب الاشياء تعريفا هي تلك التي توجد في متناول الجميع ولذلك يكاد الناس لا يفكرون فيها ، لانها هي التي تحملهم وليسوا هم الذين يحملونها . مثلا : ما الحياة ؟ ما الموت ؟ وقياسا على هذا ، ما المستقبل ؟ اي ما الزمن ؟ وما هي اللغة ؟

الزمن ليس له وجود مطلق الا في مستوى التجريد النظري . تماما ، كما ان النقطة ليس لها وجود الا في الامتداد ، لا يوجد الزمن الا في الصيرورة ، وبالنسبة الى شيء اخر ، كدوران الارض حول نفسها او حول الشمس . حاضر اليوم

(1) محاضرة القيت في دار الثقافة (ابن رشيق) بتونس يوم الجمعة 22 نوفمبر 1974 وفي سوسة يوم 5 ديسمبر وفي القيروان يوم 6 ديسمبر وفي نابل يوم 13 ديسمبر

هو مستقبل الامس ، كما كان ماضي الامس مستقبل ما قبله . اللحظة هذه على مستوى الحدث النحوي والتجريدي هي مستقبل التي قبلها تماما . بهذا المعنى يصبح الماضي والحاضر والمستقبل كالشيء الواحد . ولكننا عندما ننتقل الى المستوى الحضاري ، نجد ان الماضي ياخذ مفهوما « تراكيما » ، بالنسبة لمجموعة من الاحداث ذات الوحدة في الملامح ، والتي تحدد مرحلة حضارية معينة في طريق البناء الافقي للمجتمع في حاضره ، والرأسي في مستقبله .

النظر الى الزمن بهذا الاعتبار يقودنا بالنسبة لموضوعنا الى النتيجة التالية : هنالك وحدة مطلقة في صيرورة اللغة العربية بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ولا يمكن ان نتساءل عن المستقبل بشكل تجريدي اي ونحن في موقع انفصالي بالنسبة للامتداد التاريخي ، كان نقول مثلا : الوضع الحاضر مؤقت ، لنتجاوزه ولننظر الى المستقبل ! لا ، لان هذا الحاضر هو « الشكل الآني » للمستقبل ، فالمعالجة يجب ان تنصب اذن على الواقع المعاش .

هذا هو المفهوم الاول .

المفهوم الثاني يتعلق باللغة نفسها .

ان التعرف المتداول بين الناس ، وحتى في كثير من الكتب العلمية ، يقوم على ان اللغة اداة ، ووسيلة للتبليغ . ولكن هذا التعريف التبسيطي خطير جدا على مفهوم اللغة القومية ، وذلك لانه بصورة الية يؤدي الى استواء كل وسائل التعبير : ما دامت اللغة اداة ، فالمهم ان يمتلك الانسان اداة ما ، ومن المستحسن اذن ان يمتلك اداة جاهزة ناضجة اي ان يفزع الى السهولة وينبذ الجهد والخلق . وهكذا يصبح هذا التعريف مدخلا لالغاء لغة ما على حساب الاخرى ، كان يقول احد مثلا : ما دامت الاداة هي المهمة فلناخذ الفرنسية او الانجليزية او غيرهما .

ولكن اللغة ليست اداة فقط ، لذلك قال الشاعر العربي : كل لسان في الحقيقة انسان . الوظيفة الاداتية في اللغة تشبه فقط الهيكل العظمي الذي يقوم عليه جسم الانسان . فاذا ما تجاوزنا الوسيلة ، وجدنا ان اللغة هي الذاكرة الجماعية للامة في ماضيها ، وهي بالنسبة للحاضر المظهر الصوتي والحصيلة التعبيرية لمستوى التقدم . تصبح اللغة بهذا المعنى اداة للنمو واداة للحضارة واداة للانتماء . وهكذا فان اللغة العربية ليست وسيلة التبليغ التي يستعملها العرب بالمعنى العرفي – لان العرق الصافي لا وجود له – وانما هي المناخ الفكري والاطار الحضاري والصوتي الذي نمت وتنمو فيه مجموعة من البشر . متقلبة في تركيبها ، مرة تمتد ، ومرة تنحسر ، وانشات بواسطته مساهمة متميزة في الحضارة الانسانية .

هذا يقودني الى التنبيه التالي : لنكن كتونسيين ، مثلا ، متواضعين في حديثنا عن اللغة العربية ، لاننا فقط جزء من مائة مليون نسمة ، ومصيرنا مرتبط بها ، بوجه ما ، ولكن مصيرها ليس مرتبطا بنا بشكل حاسم . فنحن نساهم فقط . وهذه المساهمة ، حتى تكون ايجابية ، يجب ان لا تكون انعزالية ، وانما في اطار تكامل جهود كل الشعوب المعنية .

وقد انتقل من هذا التنبيه الى نظرة اشمل ، تكون تركيبا لمستويات ثلاث ، فهناك اللغة العربية على المستوى التونسي ، وعلى المستوى العربي ، وعلى المستوى العالمي : وهذه المستويات متداخلة متفاعلة .

ان البعد العالمي قد اخذته اللغة العربية انطلاقا من عاملين ، احدهما قديم والآخر حديث ، فاما الاول فهو الاسلام الذي يجعل من اللغة العربية ما ادعوه « لغة مجاورة » لدى كل المسلمين الذين لا يتكلمون العربية ، ولكنهم جميعا يعرفون شيئا منها لشؤون دينهم . مسؤوليتنا على هذا المستوى في راى الكثيرين من المتفصمين ، مسؤولية محدودة لانها تتعلق بوضع غيبي ، القعدة يرددون : انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون .

اما العامل الثاني ، الحديث ، فهو عامل القوة الاقتصادية والنفوذ السياسي المتزايد للامة العربية داخل مجموعة العالم الثالث ، وازاء الدول المتصنعة ، والذي افضى في النهاية الى ان تصبح اللغة العربية لغة رسمية في اليونسكو وفي الامم المتحدة . انني لا اتحسّن لهذا الموضوع كما يفعل بعض الذين يحيطونه بقدسية ساذجة وعاطفية او يمرحون من حوله في حلقات الثرثرة السياسية . اني اعتبره بالعكس خطيرا جدا ، وتحديا صارما منذرا ، لانه يلقي على كاهلنا مسؤولية ثقيلة جدا . لنكن واعين منذ البدء ان اللغة العربية لم تدخل الامم المتحدة لانها اصبحت لغة حضارية على المستوى الدولي ، اي لغة تقنية ، وانما لان ظروف القوة الاقتصادية قد ساعدت على ذلك ، وهي ظروف طارئة ، علينا اذن ان نتحمل المسؤولية التاريخية وذلك بان نجعل من هذه الظروف الطارئة ظروفا دائمة ، اولا ، وان نجعل من اللغة العربية لغة دولية بالفعل ثانيا .

اما المستوى العربي ، فان القضية اللغوية يكاد يختلف طرحها من بلد الى اخر وفقا لعوامل تاريخية وسياسية واقتصادية طبقية . فالمسالة

اللغوية في سورية التي عربت تعليمها بشكل كامل منذ 1919 ليست هي نفس المسألة اللغوية في لبنان المجاور او الجزائر البعيدة . ثم ان طرح القضية نفسها في البلد الواحد ينمو في صور مختلفة ، ووفقا لعوامل طارئة ، كأن تقوم حركات تدعو الى التعريب لسبب ما ، ثم تختفي وتأتي حركة مضادة ، وهكذا ! لكنه يمكن القول بصورة عامة ان بلدان المشرق العربي تجاوز الكثير منها المسألة اللغوية في شكلها الساخن والطبقي الحاد ، واصبحت الآفات والعاهات تعالج اما على اساس انها امراض مزمنة يحاول استئصالها او على اساس انها ازمات نمو طبيعي . وليس هذا هو الوضع في بلدان المغرب العربي ، حيث لا تزال القضية اللغوية تطرح على شكل وجود او عدم جود للغة القومية ، او اذا لازمنا التحري ، على شكل وجود كامل او وجود مبتور . وربما يعود الامر اساسا الى دور العامل الاستعماري الذي لا يزال حضوره قائما باشكال مختلفة ، كما انه لا يزال قريب العهد منا ، فبينما تحررت بلدان المشرق العربي منذ زمن بعيد وتغير فيها محتوى الحركة السياسية من حركة تحرر الى حركة نمو تارة او الى حركة فرض للذات امام الاعتداء الصهيوني الدائم تارة اخرى ، نجد ان منطقة المغرب العربي حديثة عهد بالاستقلال وبالتالي فهي لا تزال تجر ذيول المسألة الاستعمارية ، ولا تزال الحركة السياسية فيها مطبوعة بمقتضيات التحرر من التبعية الثقافية والحضارية بعد ان تخلصت من التبعية السياسية المباشرة .

وهذا يقودني مباشرة الى المستوى الثالث الذي هو المستوى التونسي .

قد افاجئكم عند ما اقول باني لا اؤمن بقضية التعريب فنحن قد عربنا منذ اثنى عشر قرنا . طرح الموضوع بهذا الشكل الذي يحيله الى قضية الية عملية ، فيه مغالطة سنحاول تجنبها ، الموضوع الحقيقي هو موضوع اللغة القومية ، ما هي مفاهيمها وما هو دورها في التنمية الحضارية وفي ثورة الوعي الشامل ومركزها في الوضع اللغوي : اي ازاء اللغة الاجنبية ، وفي تكوين الشخصية القومية .

اعرف ان بعض الناس عند ما يتحدثون عن اللغة العربية ، فهم يعمدون الى مغالطة فاحشة ، لان كل واحد يبيت للاخر نية مختلفة ، حتى لترتبط اللغة احيانا بنوع معين من الانتماء السياسي او الحضاري او الفكري او المصلحي . فاذا حاولنا ان نطرح من جانبنا القضية اللغوية بشكل ندعي ان فيه شيئا من الموضوعية فاننا نجد مبدئيا ان الوضع اللغوي يتسم بالتشتت . لقد قال عالم الماني مختص في الالسنية ، في ملتقى نظم بمركز الابحاث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية ، انه يمكن القول وفقا للمفاهيم اللغوية الحديثة ، ان لكل شخص لغته الخاصة ، ثم هنالك لغة المجموعة الواحدة ، والحي الواحد ، والمدينة الواحدة والاقليم الواحد وهكذا . هذا اذا انطلقنا من المظهر العاطفي الانفعالي . ولكننا طبعا سوف لا نتوقف عند هذا التشتت لانه يخلق من المشاكل اكثر مما يحل . اننا سنحاول نوعا من النظرة التركيبية انطلاقا من هذا التشتت ، فنقترح مثالا او انموذجا راسيا يتكون من مستويات ثلاث :

أ ـ المستوى الاعلى
ب ـ المستوى الوسطي
ج ـ المستوى التحتي

فاما المستوى الاعلى ، فهو الوضع اللغوي الذي يطلق عليه البعض لغة الحضارة او اللغة المثالية ، ونسميه عادة باللغة الفصحى . وهو المستوى المثالي الذي يخضع فيه الانتاج اللغوي في صورته المنطوقة والمكتوبة الى مجموعة من القواعد ـ لا القيود ـ التي تحدد الاستعمال وتسمح للفكرة بان تنمو داخل هيكل متكامل له حركيته الخاصة وطواعيته الذاتية . ثم يختلف الناس من بعد ذلك في الاساليب .

واما المستوى الوسطي فهو صورة للغة منطوقة لا مكتوبة ، يحتفظ فيه المتكلم بالثروة اللفظية ، اي بالوحدات التعبيرية ، واحيانا ببعض المجموعات المركبة ، الموجودة في المستوى الاعلى . ولكنه يتحرر من بعض القواعد ، خاصة النحوية والصرفية منها ، كما يتخلص من ضرورات النسق اللغوي الفسيح ولذلك فانه يستفيد من الامكانيات التعبيرية كافة الفصحى المنطقية ، ويخضع في القت نفسه الى ما يتطلبه الارتجال من البحث عن السهولة والسرعة وما يرافق ذلك من الامكانيات الحركية والعضوية التي تساعد على تبليغ المعاني ، في مستوى الخطاب المباشر دون ان يكون من الممكن استعمالها في مستوى الكتابة طبعا .

واما المستوى التحتي ، فهو مستوى ما يسمى باللغة العامية او الدارجة او الشعبية ، وهو مستوى يكون فيه التعبير انفعاليا وعاطفيا فجائيا ، يخضع اكثر من السابق لمتطلبات الارتجال . ولكنه يكون غريزيا وراثيا . ولذلك يحمله الناس نبضات من حياتهم اليومية ، واختلاجاتهم الوجدانية المنفعلة في عفوية مطلقة . في هذا المستوى ، المرتبط بالمحيط المباشر ، لا يتعلم الناس اية قاعدة ، لان سلوكهم اللغوي لا يخضع لاي تعليم ، وانما يتلقنون امكانيات لغوية لا يربطها اي وعي ، وانما انفعالات تشبه الاستجابة الشرطية .

هذه المستويات الثلاث تشبه الى حد بعيد التفرقة التي وضعها الدكتور حنفي عيسى استاذ

علم النفس بكلية الآداب بجامعة الجزائر ، بين الكلام واللغة واللسان Parole — Langage — Langue فقال : اننا كافراد نتعامل فيما بيننا بالكلام وكشعب نتفاهم بواسطة اللغة وكأمة او دولة ننظم شؤون حياتنا باللسان . فالكلام بهذا الاعتبار سلوك فردي ، وهو عرضة للتطور كجميع الظواهر الاجتماعية اما اللسان فاننا نشير به الى ذلك الوضع المستقر لاداة التخاطب وهو النموذج الامثل للغة .

واذا كان منطلق هذا التصنيف يدعو الى النقاش ، وخاصة في حصره سنة التطور في مستوى اللغة ، فان ما يميزه هو تفسير اللسان الذي يجد لمعانا قويا في ضوء قوله تعالى : انا أنزلناه بلسان عربي مبين .

ولذلك يجب ان لا يتبادر الى الذهن ان هذه المستويات الثلاث التحتي والوسطي والاعلى ، تفصل بينها حدود عازلة ، وانما بينها حدود « غربالية » تجعل التساقط مستمرا والاثراء متواصلا .

الا ان حركة الاثراء هذه تقع غالبا في اطار حركة تنازلية ، من اعلى الى اسفل ، وقليل ان يقع العكس . فالتقدم على المستوى اللغوي الاعلى هو الذي ينتج عنه التوسع في الاستعمال على المستوى اللغوي الوسطي ، ومن هذا المستوى تتساقط الفاظ وتعابير تغني المستوى التحتي لدى الرجل العادي .

يكفي لتلمس هذا الوضع ان ننظر الى اللغة التونسية اليوم عند رجل الشارع ونقارنها بما كانت عليه قبل عشرين سنة . سنجد ان البون الكمي والكيفي شاسع . فهناك عدد كبير من الالفاظ لم يكن موجودا من قبل ، مثل السيارة والطيارة والدراجة والسباق ، والملعب والمركض والانتخاب والتصويت والاقتراع والمخطط والتخطيط ،وغيرها ، في كل مجالات الحياة . هذه الالفاظ كلها وضعت في مستوى الاستنباط في اللغة الفصحى ثم انتقلت الى العامية بواسطة وسائل متعددة كالاذاعة والتلفزة والخطب السياسية او حركات التوعية . ولو توسعنا في المقارنة فنظرنا الى اللغة العربية الفصحى نفسها اليوم ، كما نستعملها ، والى ما كانت عليه في اواخر القرن الماضي فقط ، لوجدنا انها على مستوى الكم اللفظي قد نمت بشكل لا يخطر على الذهن ، اما بطريقة النقل او التعريب او الاستنباط المباشر بالاشتقاق ، كما نمت ايضا على مستوى الاستعمال التركيبي والاسلوبي تحت تاثير الترجمة وتحرر عناصر الجملة وسقوط التماسك التقليدي .

ويجب ان نلاحظ ايضا ان وجود هذه المستويات الثلاث ليس جديدا ولا خاصا باللغة العربية .

فهو ليس جديدا لانه ظاهرة اجتماعية طبيعية وشاملة ، ولذلك وجدت في كل عصور التاريخ العربي . ان البعض قد يتصور ان الخليفة العباسي كان يخاطب الشاعر بشارا ، مثلا ، قائلا : ماذا عندك يا بشار ؟ ولكن هذا التصور يجانب الواقع عند ما يطلق كحقيقة تاريخية ثابتة ، فقد كان الخليفة يقول غالبا : ايش عندك يا بشار ؟ ويكفي ان يطالع الانسان كتاب الاغاني او كتب الجاحظ ليدرك مدى تغلغل هذه اللغة الشعبية .

وهو ليس خاصا باللغة العربية لانه موجود في كل لغات العالم ، في الفرنسية كما في الانجليزية وكما في الالمانية وغيرها . وليس هنا مجال تعداد او تامل اللهجات والاستعمالات الموجودة في بلدان كفرنسا والمانيا ، وانما نكتفي هنا بالتساؤل عن الفرق ، من جهة اولى ، بين الفرنسي في باريس الذي يقول : Je ne sais pas — مقابل - N'ché pas - والالماني في مونيخ الذي يقول : — Ikan ni mé — مقابل — Ich Kann Nicht mehr — والتونسي العادي ، من جهة ثانية الذي يقول : انا ما نعرفش مقابل انا لا اعرف . الفرق اساسا يتمثل في الوعي اللغوي . فالفرنسي يعرف عن وعي سابق انه يتكلم بشكل ، ولكنه اذا كتب ما تكلم به فانه سيكتبه بشكل اخر . اما التونسي العادي فانه لا يعرف ذلك . **وجود المستويات اللغوية اذن هو عند الاول عملية شعورية ، وعند الثاني انعزال وجهل . ولذلك فان عملية التطوير اللغوي هي عملية انتقال من العفوية الغريزية الى الوعي التعبيري . وهذا الانتقال لا يتاتى الا عن طريق امرين ، الثقافة والاستعمال . بدون ثقافة عربية لا يمكن ان يوجد اي وعي لغوي عربي . وبدون استعمال للغة العربية لا يمكن ان تحصل اية تنمية للرصيد اللغوي ، وستبقى حصيلة المستوى التحتي محصورة في اطار الرصيد اللاواعي الذي لا ينمو .**

ان الاستعمال هو القانون الرئيسي لتطور اللغات . واذا كانت تخصص له اليوم الدراسات اللغوية والاجتماعية الواسعة ، فان علماء العربية كانوا منذ البدء يرددون بان مدار اللغة على الاستعمال بل انهم جعلوا من الاستعمال قانون الانتقاء في اللغة المثالية فكانوا يقولون : مدار الفصاحة على الاستعمال . ولذلك فغاية ما نستطيعه نحن في الباب هو ان نحاول تقديم تفسير مستحدث للاستعمال يكون اكثر التصاقا بمتطلبات الحضارة المعاصرة ، وما دمنا في عصر الاقتصاد والتنمية ، فقد يمكن القول بان الاستعمال يخضع تماما لقانون العرض والطلب . **اللفظة اللغوية هي بضاعة ككل البضائع .** وبما انه يكفي اليوم ان نضع بضاعة في السوق ونحيطها بالدعاية اللازمة لتاخذ مكانها ويقبل الناس عليها فان الاستنباط اللغوي يخضع لنفس هذا القانون . اللفظة لها وجود مجرد في مستوى

النظرية او التعامل مع القواعد النحوية والاشتقاقية ولكنها تصبح لغة عندما تتناقلها الالسن وتتداولها الاقلام ويستعملها الناس . صحيح انه يجب ان تتوفر فيها بعض الشروط . فكما انه يجب ان تتوفر في البضاعة الجودة وحسن العرض وقابلية السعر للمنافسة كذلك يجب ان تتوفر في اللفظة شروط « الفصاحة » بمعناها الواسع ، اي الخفة والقرب من المعنى المقصود والدقة في الاشارة الى المدلول وغيرها . ولكن هنالك ايضا بعض الالفاظ الثقيلة والسخيفة في منشئها الاشتقاقي ، يصقلها الاستعمال وتخف ، لا لصفات جديدة اكتسبتها في ذاتها جعلتها اكثر خفة ، وانما لكثرة دورانها على الالسن ، اي لتكيف الالة العضوية مع الكلمة ، لاسباب طويلة ليس هذا مجال ذكرها . لناخذ مثلا الكلمة المعربة (كسكروت) التي يقولها الناس جميعا بعفوية وبساطة . انها في مصدرها الفرنسي ذاته كلمة مركبة سمجة من اصل لا يدل في جذره الفعلي - Casser la Croûte - على معنى الاسم الذي نقلت اليه الا بمجاز وابتسار . وكلنا نستعمل اليوم كلمات الطيارة والسيارة والجريدة والمجلة والدستور والانتخاب والتصويت والاقتراع . كلها كلمات لم تكن موجودة في اول هذا القرن بمعانيها المتداولة وانما وقع استنباطها واقتراحها ، بل واقتراح غيرها للدلالة على نفس المعاني ، ثم حصلت التصفية ، عن طريق الاستعمال في المقالات والكتب والصحافة والاذاعة . وغيرها من وسائل التثقيف .

الا ان توسيع استعمال اللغة القومية يتطلب الحماية . اي ان تكون المنافسة بين اللغة القومية واللغة الاجنبية منافسة « مشروعة » على الاقل لتحقيق ما يمكن ان نسميه بالمعادلة المتكافئة فاذا كنا على مستوى الموارد الاقتصادية مثلا نؤمن جميعا بانه لا بد من تحقيق الحماية لهذه الموارد حتى لا يقع استغلالها ،وانه لا بد من حماية الصناعة المحلية لتصبح قادرة على المنافسة ، فلا بد ايضا ان نؤمن بان اللغة القومية تتطلب الحماية من اللغة الاجنبية ، ويكون ذلك باعطاء كل من اللغتين دورها الطبيعي !

ان الموضوع ليس ابدا موضوع ازدواجية او تعدد لغات ، ونادر من بين العقلاء من يقول اليوم بالانعزال اللغوي ، اي امكانية اقتصار شعب على لغة واحدة ، في نموه وحضارته . كل لغة جديدة نافذة مفتوحة على العالم ، ونحن بحاجة الى ان نفتح اكثر ما يمكن من النوافذ ولكن يجب ان تكون اللغة الاجنبية مجرد نافذة ، لا ان تصبح هي البيت كله ، بينما تنحسر اللغة القومية الى مجرد « طاقة » مفتوحة على الماضي .

ان اللغة الاجنبية هي اداة مساعدة للثقافة ، وليست اداة الثقافة . وهكذا تتجلى خطورة الوضع الذي نحن فيه . فقد جعلنا من اللغة الاجنبية لغة العلم ، ولغة التعليم ولغة قسم واسع من العلاقات الاجتماعية ، مرددين من وقت لآخر شعارات وتمنيات وتوصيات عن اشياء كالتعريب والاصالة ، نلغيها بسرعة بتعلات اخرى عن عدم وجود الاطار او المادة الاصطلاحية اللغوية العربية ، كانما الاطار سيتكون من تلقاء نفسه : « اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » او ان المادة العلمية ستنزل علينا « كمائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا واخرنا » !

ان استعمال اللغة الاجنبية كاداة رئيسية للثقافة يهدد بمجموعة من الاخطار الاجتماعية والحضارية ويعيق نمو الشخصية القومية :

– فاللغة الاجنبية ، اولا ، هي ، مهما كانت الدعوات والنيات ، **تكريس لا مفر منه للوجود الثقافي الاجنبي** ، وهي بالتالي استمرار للاستعمار الغربي في شكله الاقسى والاعنف لانه الاعمق ! الاستعمار السياسي هو وجود مادي محدود ومحصور في مظاهر انتزاع السيادة وفي الثكنات ، وكلها امور برهنت على انها لا تصمد امام عزيمة التحرر . اما الوجود الثقافي الاجنبي فهو استعمار للعقول وتغلغل في الضمائر على مستوى الفكر والوعي ، وهذه اشياء معنوية لا تقتلعها الاضرابات ولا المظاهرات ، لانها في نهاية المطاف تجعل من المتلبس بها حليفا لا شعوريا وليس معارضا واعيا او ساعيا نحو الاكتمال الثقافي بوعي . وليست هذه اقاويل خوف نطلقها في غمرة الفزع ، لاننا المنبون ولكنها صيحات واعية اصبحت تتردد في كتب الغربيين اليقظين انفسهم في معالجة الموضوع الذي يسمونه بانفسهم « الاستعمار اللغوي » .

– واللغة الاجنبية ثانيا **هي لغة طبقية** . قال لينين : « ان الشعب الذي يعتمد في حياته الفكرية والثقافية على لغة اجنبية لن يتمكن ابدا من التحرر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، لان اللغة الاجنبية ستبقى وقفا على طائفة ذات امتيازات ثقافية ومن ثم تؤول الى امتيازات اقتصادية واجتماعية » .

– ولذلك فان اللغة الاجنبية هي ثالثا ، **عامل مناف للوحدة القومية** ، وذلك لانها سترتبط شيئا فشيئا بالامكانيات المادية للعائلة ، وبنوع من المهن والنشاطات كالطب والصيدلة والهندسة وكل انواع العلوم . فينشأ عن ذلك انفصام في وحدة المجتمع وفي الامكانيات المفتوحة امام الافراد والتي سوف لا تخضع لتكافؤ الفرص والحظوظ وانما للمستوى الطبقي . **في شعب نام مرتبط بحضارة معينة ، لا يمكن ان تصبح اللغة الاجنبية لغة الفقراء** وبما ان « كل لسان في الحقيقة انسان » فان اللسان

الاجنبي سيكون انسانا اجنبيا منفصما عن واقعه ومنتميا الى واقع اخر .

ـ واللغة الاجنبية هي رابعا لغة رجعية ومظهر انتكاس في حركة النمو السلمية للمجتمعات . وذلك لان وجودها الحالي مرتبط اساسا بوجود سابق مفروض هو الوجود الاستعماري السياسي . فوجودها ليس وجودا اختياريا . نحن لم نختر اللغة الفرنسية ، ولو تعلق الامر بالاختيار الموضوعي الايجابي لملنا الى الانجليزية مثلا ، فهي لغة العلم والتقنية . ولكن الفرنسية فرضت علينا بالوجود الفرنسي السابق ، فهي امتداد له اصبح اختيارا لنا ! ولذلك فهي تحمل آثار الماضي واصطداماته وافكاره واحتقاره للوعي القومي وللغة القومية .

ـ واللغة الاجنبية هي خامسا واخيرا ، عائق للنمو المتكامل للشخصية القومية . اننا عند ما نريد ان نحدد شخصيتنا القومية في الحاضر والمستقبل لا نستطيع ان نفعل ذلك بمعزل عن الاطار الجغرافي والحضاري والذي ننمو داخله . وهذا الاطار هو اطار عربي بفعل الماضي والدين والحضارة والانتماء ومصالح المستقبل ، ولكنه ايضا كاطار متوسطي منفتح على البحر الابيض المتوسط ولذلك فاننا لا نستطيع ان ننمو نموا سليما وناجعا الا بالاعتماد على اللغة العربية ، مع الانفتاح عن طريق اللغات الاجنبية .

اذن الموضوع لا يتعلق بتعداد سلبيات اللغة الاجنبية من جهتي ، وانا الذي سلخت من عمري عشر سنوات في جامعة السوربون ، وانما بانزالها في منزلتها الصحيحة التي يصبح دورها فيها ايجابيا اي في منزلة اللغة المساعدة ، حتى يمكن تحقيق المعادلة المتكافئة ، يصبح من اللغو استعمال اللغة الاجنبية كاداة اولى للثقافة العلمية ، ويصبح من الخطر تعليمها في المستويات الابتدائية بنفس كثافة اللغة الام ، كانما الهدف ليس تحقيق الازدواجية اللغوية ، المرغوبة والمطلوبة ، وانما تحقيق الازدواجية في الشخصية ، وهي مرض في علم النفس معروف .

كاني وقد بلغت هذا الحد اسمع همس الهامسين : ولكن اللغة العربية غير قادرة على ان تكون اداة الثقافة كلها . انها ليست لغة العلم والتقنية والاقتصاد ! هؤلاء قوم معذورون ، ولكن اخرين يدعون ايضا انها ليست لغة التاريخ والفلسفة والاجتماع والقانون . هؤلاء قوم ، اذا سلمنا لهم بحسن النية ، فانهم قوم متخاذلون .

لنحاول طرح المسالة ، لا للرد عن أولئك او هؤلاء وانما بشكل موضوعي قدر الطاقة ، مع التجرد حتما من المصلحية والاهواء . ان اللغة ككائن نام ينشئها المتكلمون بها ويصوغونها وفقا لحاجاتهم **ويصطلحون فيها على ما يتناسب والمستوى الذى وصلوا اليه من العلوم والفن والصناعة . فلا يجوز ان نقول ان هذه اللغة او تلك صالحة او غير صالحة ، لان اللغة لا تحمل في ذاتها صلاحا ولا فسادا . فكم من لغة اندثرت واصبحت اثرية متحفية ثم احيتها عزيمة ابنائها ، كاللغة العبرية ، وكم من لغة معقدة رمزية جعل منها اهلها لغة الحضارة والعلم كاللغة الصينية .**

ان اللغة توفر فقط مجموعة من الوسائل التعبيرية ، ذات الحركية الخاصة ، المتوقفة في جمودها او طواعيتها ، على مقدار المعالجة التي يسلطها عليها الناطقون بها . عند ما يكون مستوى التعبير في لغة ما متخلفا ، فلان مستوى التفكير عند الذين يتعاملون بها لا يزال متخلفا . وبما ان تحرك هذا المستوى الاخير مرتبط بحركية المستوى الاول ، فان كسر حلقة الدور والتسلسل الناشئة عن هذا الوضع ، لا يكون الا نتيجة الخلق الذي يمارسه الافراد داخل لغتهم اى انه لا يكون عن طريق الهروب والارتماء في احضان السهولة والفزع الى الوسائل الاجنبية الجاهزة .

عند ما يقول القائلون ان اللغة العربية عاجزة لانها لم تواكب الحضارة الحديثة ولانها غير قادرة على السير في تيار المعاصرة العلمية ، ولذلك فمن الاجدى الالتجاء الى غيرها من الوسائل الجاهزة المتقدمة فانهم يرتكبون ، عن عمد او عن جهل ، بعض المغالطات .

منها ان اللغة العربية اذا كانت لم تواكب النهضة العلمية ، فلانه قد ضرب عليها الحصار الاستعمارى الاستبدادى ، ولذلك يكفيها شرفا انها واكبت كل حركات التحرر العربي ، وكانت سلاحنا ، بل احيانا السلاح .

ومنها ان اللغة في ذاتها لا تواكب ولا تقدر ولا تمشي ، وما رأينا بعد لغة في سباق دراجات او تشارك في الالعاب الاولمبية ! انهم يتخلصون من مسؤوليتهم في التخلف بالقائها على شيء اخر . اللغة العربية ليست المتهَمة وانما المتهِمة ، ونحن جميعا في قفص الاتهام !

وليس صحيحا ، على اية حال ، ان اللغة العربية قد لبثت ساكنة لا تتطور منذ قرون وانها لا تتوفر فيها اليوم المصطلحات العلمية . قبل الاتهام لا بد من التعرف والتاكد . ان الذي يقارن بين عربية الامس وعربية اليوم ، يرى مدى التطور العميق . صحيح ان بعض المشاكل لا تزال تنتظر الحل ، ولكنها ستفض كما فض غيرها منذ مطلع هذا القرن . ثم ان المجامع العلمية العربية تعمل منذ نصف قرن لتحقيق الرصيد الاصطلاحي ووضعه بين

ايدي المستعملين ، وقد حققت انجازات تدعو الى التنويه والاعجاب ، ولكن المشكل اننا لا نستعمل ذلك الرصيد . والقواميس العلمية العربية في الطب والصيدلة والزراعة وفنون الحرب موجودة متوفرة ، ولكننا لا نعرفها ، بل انها لا توجد في مكتباتنا الكبرى ! نحن اذن مطالبون بالتفتح على اللغة العربية ، على الاقل بنفس المستوى الذى نتفتح به على اللغة الاجنبية !

لا يعني هذا ان القضية سهلة بسيطة ممهدة . وان بدا لكم انني افرط ، فالمعذرة عن ذلك ، لانه ليس الا من فرط الايمان ! انني اعرف ان العقبات عديدة والمشاكل متنوعة ، فالعمل الجبار الذي قامت به المجامع العلمية يحتاج الى التنسيق والى التكامل والى التوحيد حتى لا تتشتت الجهود وتختلف المصطلحات من بلد لاخر . والدول العربية تتنازعها في علاقاتها اهواء ومشارب تنعكس على كل مستويات التعاون . ولكن الجهد اللغوي هو امر ممكن اذا توفر له شرطان : الايمان وتجاوز المركبات العابرة . يجب ان نتعود على النظر الى مشاكلنا ببساطة وعفوية وان نتخطى مركبات التعاظم عند البعض ، وعقد النقص عند البعض الاخر . عند ما تصبح معرفتنا لبعضنا البعض اي معرفة العربى لبلاده العربية تساوي او تقارب معرفته للبلاد الاوروبية ، فان جزءا كبيرا من العقبات سيزول من تلقاء نفسه ، نحن جميعا نعرف تقريبا كريستيان ديور وبيار كاردان ، بل ومدام صولاي ، ولكنهم قليلون منا اولئك الذين يستطيعون ان يعددوا المجامع العربية الموجودة . واكثرنا يعرف انظمة الجامعات الاوروبية ومناهجها وعددا من اساتذتها ، بل وأوقات امتحاناتها والاطروحات التي تناقش فيها ، ولكن من الذي يحسن فقط تعداد الجامعات المصرية ؟ او اللبنانية ؟

اذن :

اذا كان المستقبل يعني الانفتاح دون الذوبان .
واذا كان يعني الامتداد الايجابي لذاكرة الامة
واذا كان يعني الانتماء الطبيعي للمحيط المؤثر فينا
واذا كان يعني تحقيق المساهمة المتميزة في الحضارة الانسانية

واذا كان يعني الخلق لا التقليد الاعمى
واذا كان يعني النمو الصحيح للمجتمع في ظل السلامة وبعيدا عن الانفصام والتمزق

واذا كان يعني النظرة المتفائلة الى مصير المنطقة العربية والايمان بدورها الايجابي الذي ستقوم به داخل العالم الثالث وداخل الحضارة الانسانية .

اذا كان المستقبل يعني كل هذه الاشياء فانه لا يمكن ان يبنى بصورة سليمة الا بالاعتماد على اللغة القومية مع تحقيق الانفتاح على لغات اخرى مساعدة ، تكون احداها معمقة ، وتكون الاخرى تكميلية ، واني لمتاكد ان طرح موضوع اللغة الاجنبية بهذا الشكل سيوفر الكثير من الجهد ويفتح آفاق الحماس المتفائل ، كما سيوفر الكثير من رؤوس الاموال ومن الاعتمادات التي يمكن ان تصرف عندئذ في تنمية دور اللغة القومية .

لكن هذا العمل ليس عمل افراد ، وليس عمل جماعات . بل ان الجهود التي بذلت ربما اصابها غالبا العقم والتشتت لانها كانت جهودا فردية او ضيقة . ان القضية تتعلق بمصير ، وبالتالي باختيار سياسي .

ولذلك فاني اريد في هذه الخاتمة ان اطرح امام تأملكم ونقاشكم هذه الفكرة التي استخلصتها من نظرة تركيبية في تاريخ اللغة العربية . لقد لاحظت وجود علاقة مباشرة وجدلية بينها وبين السلطة او السلطان في مفهومه العام .

فعند ما جاء الاسلام اعطى اللغة العربية المحتوى الفكري الذي كانت تفتقر اليه وحملها بالسيف الى اقاصي الارض ، ولكنها مع ذلك لم تصبح لغة الدولة الا عند ما فرضها الخليفة الاموي واتخذ قرارا بتعريب الدواوين بصورة جذرية وحاسمة . وكان ذلك القرار هو الذي حمل الشعوب التي دخلت في الاسلام على تعلم اللغة العربية . ومن ثم اصبحت لغة الحضارة وظلت ترتفع في هذه الدرجة حتى اصبحت في العصور الوسطى لغة العالم المتمدن الاولى . ولكن في نفس الوقت كانت السلطة العربية تنحدر ، في حركة عكسية اذن ، حتى سقطت بغداد سنة 656 هـ في الوقت الذي كانت فيه اللغة العربية في اوج مجدها وظلت كذلك بعد سقوط بغداد وقتا طويلا ، لانها من جهة كانت تمتلك النفوذ الثقافي والسلطان الحضاري ، ولانها من جهة ثانية كانت مرتبطة عضويا وروحيا بالاسلام الذي يمثل اللحمة الروحية لكل بلاد الاسلام بالرغم من تفرقها الى دويلات وامارات .

الا ان اكتشاف امركا الذي صادف في التاريخ نهاية الوجود العربي في اسبانيا ، وانتقال حركة التجارة نتيجة لذلك نحو الاطلسي الذي افقد البحر المتوسط ، اى مناخ الوجود العربى ، جزءا كبيرا من اهميته وسقوط الحكم في يد الاتراك الذين لم يكونوا يميلون الى العلم كثيرا ، جعل اللغة العربية تفقد كل سلطان على الاطلاق ، فانزوت وخمدت . الا ان النهضة الحديثة حملت معها الحضارة الصناعية الجديدة وحملت معها ايضا نظرية القوميات التي تعطي للغة المقام الاول ، فكان من ذلك ان ارتبطت الحركة الاصلاحية في

البلاد العربية بدور اللغة الحاسم ، واصبحت بعد ذلك جزءا من حركات التحرر الوطني ، اى عادت من جديد الى الالتحام بالسلطان ، يزداد نفوذها بمقدار تزايد المقاومة ، وتتقدم لفظيا وتعبيريا بمقدار تزايد الاستقلال السياسي في البلاد العربية ، ولذلك فانها حتى الان مرتبطة في تحقيق نموها بالقرار السلطوي في انتظار ان تحقق لنفسها السلطان الحضاري .

بماذا ساختم هذا الحديث ؟ سانقل لكم اصوات رجال تفرق بينهم العصور والمشارب ، الاول عربي ، والثاني امريكي والثالث فرنسي . للذين يحبون الله انقل قول ابن جني :

« من احب الله احب رسوله ، ومن احب الرسول احب العرب ومن احب العرب احب العربية ، ومن احب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته اليها » .

للذين يحبون الامريكان ، انقل قول المستشرق الامريكي وليم رول : ان اللغة العربية لم تتقهقر فيما مضى امام اى لغة من اللغات التي احتكت بها ، وينتظر ان تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي ، وللغة العربية لين ومرونة يمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات هذا العصر » .

وللذين يحبون الفرنسيين : انقل قول المستشرق ماسينيون :

« على ابناء العربية ان يصمدوا ، فالعالم في حاجة اليهم ، وواجبنا ان نحثهم على احترام عربيتهم ، هذا النظام اللغوي الصافي ، الصالح لنقل اكتشافات الفكر عبر القرون ، فلا يحيلوها مسخا مقلدا للغاتنا الارية . لقد كانت العربية وما تزال لغة الحرية العليا ، لغة وضوح الذهن ووحي القلب ، لغة المناجاة ، ولغة المعجزة » .

اما الذين يحبون غير هؤلاء ، فقد نقلت لهم سابقا قول لينين في اللغة القومية .



العلاقة بين الثقافة والمجتمع في تونس

الطاهر اللبيب الجديدي

الغاية من هذه الملاحظات التاليفية تحديد بعض الابعاد المفهومية للثقافة في تونس . وهي وان كانت لا تقيم انجازات معينة فهي تثير اساسا مشكلة العلاقة بين الثقافة المبرمجة والواقع المجتمعي المعاش . واذا كانت لهذه العلاقة مستويات لا يغفل التحليل عن تنوعها فان المستوى المفهومي يبدو هاما الى حد ان اشد الصعوبيات التي يواجهها العمل الثقافي متاصلة فيه . لهذا وجب تحديد الرؤية الثقافية والتساؤل عن وظيفة المفاهيم التي تعتمدها . من وجهة اخرى قد لايكون من قبيل المباغتة ان يفضي تحديد الرؤية الثقافية من طرف« المثقفين » انفسهم الى نوع من « النقد الذاتي » لا يتبلور الا بمشاركة و المشاركة نقاش ...

مفهـوم الثقافة نسبي يـلاقي صعوبـة التحديـد العلمـي (1) في ميدان البحوث . التعـاريف كثيـرة وكل تعريف مسبق يوجـه البحث وجهـة خاصة . على ان محاولـة الانطلاق هنا من المعطيات التونسية عوض تكييفها حسب تعريف ما ، لا تعني ضرورة رفض كل التعـاريـف جملـة وانمـا هـي اعتبـار لظـاهـرة « ابيستيمولوجية » محتملـة : رغـم كل يقين معتـاد قد يشمل التعريف في البلدان المستـوردة للمفاهيـم عناصر لا صلـة لها بالمـادة المـدروسة ، كمـا قـد يهمـل عناصر أخـرى لا يتم الفهـم بدونهـا .

ان تطـور البحوث الثقافية في المستوى العربي أو المغـربي أو التونسي لا يتم الا بتحليل داخلي لهـذه المجتمعـات . مما يؤدي الى الـربط بين المعطيات والمفهمـة (2) علـى هـذا الاسـاس لا يـكون اثبـات الخصوصية الثقافيـة ممكنا الا باثبـات خصوصيـة الصيـرورة التاريخية لبلـد مـا . اكيـد ان الثقافـة العربيـة الاسلاميـة لها ككـل ثقـافـة مـركباتهـا الحضاريـة كاللغـة والـدين ، ولكن تأليـف هـذه المـركبات وطـريقـة وعيهـا وعيشهـا ، عمليـا ، تختلف باختـلاف المجتمعـات .

واذا كانت « الثقافة العالمية » كمفهـوم بـدون ايـة فاعلية منهجيـة (كـل مجتمع يعـرف هـذه الثقافـة حسب ثقافتـه الخـاصة) فـان الابحـاث الخـاصة بالثقافة العربية الاسلامية بقيت اجمـالا في مستوى الاستعادة والاستذكار التأكيدي بل لعلـه لا يكون من التجني الذهـاب الى أن بعض « المبادىء الايديولوجية » يساهـم في تجميـد البحوث العربية في مرحلـة قبل علميـة . فـرفض كـل اختـلافيـة اجتماعيـة ـ التزامـا بمبدأ التجـانس التاريخي ـ جعل التآليف الكثيرة لا تتجـاوز الاخـذ مـن محصول او حصاد اثبت البعض قائمتـه . من هنا جـاء الاتفاق الدائـم على نتائج لا تتغيـر ، ومعلوم ان الباحث لا يبحث عن نتيجـة يعلمهـا سلفـا .

على ان النظرة للثقافـة في النطاق المغـربي أقرب الى الظرفيـة . فالعلاقة بين الـوحدة والتنـوع تبدو اقـل استقـرار لارتباطهـا بالمشاريع السياسية . لكن حداثـة هذا الارتباط تمثل حظـا فى طرافـة البحث المغـربى وجـدتـه . ذلك ان الاسقـاط المستقبلى ، فى نطاق يتسع من السياسي الى المنهجى ، لم يعـد مجرد تحديث للماضي . لقـد أصبح واضحـا ان الطريقـة التقليـديـة في التدليل على امكـانيـة الـوحـدة المغـربيـة اعتمـادا على أمثلـة تاريخيـة كـدولـة الموحـدين لم تعد مقبولـة علميـا لتغيـر المعطيات . كما إن مفهومـا أساسيا كمفهـوم الـذاتية أصبـح مـرنا الى حـد انـه يعمـل للوحـدة احيـانا وضدهـا احيانـا أخـرى .

بالنسبـة الى تـونس تكـاد الابحـاث الثقافيـة تنعـدم في المستوى المفهـومي . فاختـزال الابعـاد النظريـة والمركـزة على موضوع التطـور جعل المادة الثقافيـة تنحصر أو تكـاد في التعليـم (3) . أمـا البرامج الثقافية فانها لا تسمـح دائمـا باستنتـاج تطبيق حكومي ، ولكنها تساعـد على تحديد الرؤيـة الثقافيـة . وكما يؤكـد « النقـد الـذاتي » للشؤون الثقافيـة فان المسافـة بين المبرمج والمعـاش مسافة فاصلـة ، لقـد جـاء في « الحصـاد العشري » (4) أن « الضعـف في مستـوى التخطيـط وعـدم ضبـط التقديرات حالت دون امكانيـة مقارنـة حقيقيـة بين المشاريـع المسطرة ومـا تـم تنفيـذه » هذا مما يجعل محاولـة الـربط بين النظـام الاجتماعي والاتجاهات الثقافيـة أصدق دلالـة ان هي استطاعت تفكيك بعض الابعـاد المفهـومية عـوض الاكتفاء بالتقييـم الكمي او الكيفي للمشاريـع والاعمـال .

الفصل الكلاسيكي بين المثقف وغير المثقف :

ليس من قبيـل التكـرار المجـاني ولا مـن قبيـل المبالغـة أن يعتبـر الفصل القديـم بين المثقف (في معناه النخبي) وغيـر المثقف ، من عراقيـل العمـل الثقافي في تـونس . ان التصـور المثـالي للتبليـغ الثقافي (5) يجعلـه موصودا في وجـه أكبـر جـزء من شعب لا أحـد ينكـر تباينـه ثقافيـا . بـل لقـد يصل هذا التصور الى حـد انـه ينفي الثقافـة نفسهـا في المستوى العملي . هذا على الاقل مـا قـد يعنيـه تساؤل « الحصـاد العشري » : « هـل السبب في ان الثقافـة لم تكـن مـوضوع تقديـرات في الحصـاد العشري الماضي (1962 ـ 1972) هـو انها تخضعنا الى غايـات مثاليـة ... والى حاجيـات غير نفعيـة ، وانها جوهـريا نزيهـة الغـرض ؟ » (6) .

يمكن وصف الوظيفـة الاجتماعية ـ الايديولوجية لهـذا الفصل الكلاسيكي بانها تنمي نوعـا من الكبت الاسترجاعي (7) : اذا كان مـن المجـازفـة الحـديث عن « ثقافـة معاكسة » في تـونس ، ولو في خصوص المحاولـة الطلائعيـة ، فان مما لا مجازفـة فيه الفهم الـوسطي للثقافـة على انها شيء جـد محبوب ولكنه غيـر مفهـوم الهويـة . وهو مـا قـد يفسر جـزئيـا بتقـديس تاريخي معـروف للمعرفـة .

(1) Opératoire
(2) Conceptualisation
(3) ثمـة محاولـة « في تحديد معنـى الثقافـة » لحسن الصادق الاسود ، الفكـر ، جويلية 1972
(4) Ministère des Affaires Culturelles et de l'Information : « Retrospectives Décennales 1962 - 1972 », Tunis, Fév. 1972, P. 226
(5) Message culturelle
(6) نفس المصـدر والصفحـة (4)
(7) مـا يمكـن ان نسميـه بالفـرنسية : Frustration Récupérative

الكبت الفردي أو الجماعي الناتج عن هذا التصور للثقافة يتقوى موازاة لعدم اشباع الحاجيات الجديدة : فقيم التبليغ الثقافي تقدمها وسائل الاعلام الجماهيري على انها علامات انعتاق ضروري بل وعاجل ، وكثيرا ما تستوعب هكذا ، الا انها لا تناسب اجمالا المعطيات المادية الاساسية ، هذه القيم لا تلبي دائما - وخاصة في الاوساط الريفية - حاجيات حقيقية .

غير أن هذه القيم تخلق أو تنمي جملة من التتوقات (8) : تتوقات يعسر تحديدها من طرف الباحث لان المطالبات التي كان يمكن أن تصوغها لا يعبر عنها الا بصورة متقطعة (كما يحدث في بريد القراء مثلا) ، على ان هذه « المطالبات » بالحق في الاستهلاك الثقافي اندماجية أساسا : معنى ذلك انها ليست وسيلة من وسائل التموقع الواعي داخل النظام الاجتماعي السياسي أو بالنسبة اليه وانما هي من صيرورات الاندماج فيه اكثر فاكثر ، ينطبق هذا عامة على الاصناف المحافظة على صورة لثقافة مثالية عندها وموصودة امامها في ان واحد .

توازيا ، يساهم نوع من التبليغ الثقافي في تحييد (9) اصناف أخرى تفهم مضمونه هذه المرة دون أن تفهم وظيفته ، هذا التحييد يعتمد ، في جملة ما يعتمد ، تقديم المادة الكلاسيكية (أو المكلسكة على الاصح) : تمثيليات ، مسلسلات ، حصص ادبية وغيرها تنهل من ماض تختلف قيمته ووظيفته حسب المواقف والتصورات ولكنه يمثل في بعض الحالات ملجأ يركن اليه من لا يتمكن ماديا أو مفهوميا من حاضره ومستقبله . على ان تبليغ حاضر ثقافي غير تونسي ، كما هو دور بعض البرامج التلفزية باللغة الفرنسية ، له تقريبا نفس الاثر التحييدي . **هكذا قد يكون الانسان بين ماض له لا يحضر وحاضر هو حاضر غيره .**

ان الفصل المفهومي بين المثقف وغير المثقف ليس فصلا تجريديا . فمرجعه الواقع التاريخي وله تأثيره في هذا الواقع حتى الان . لذلك لا يكفي تفسير المسافة الفاصلة بين البرنامج الثقافي وحياة الناس باسباب تقنية ، فقدان الاطار مثلا ، وانما يجب اعتبار الرؤيا الانفصالية التي تحدد هذه المسافة ، وهي مسافة يعيها كل أحد وتم تناولها في كل مستويات المسؤولية وفي كل الميادين على انها من ظواهر مرحلة ما بعد الاستعمار وواجب تجاوزها . لكن كيف ؟ عناصر الاجابة عن هذا السؤال الخطير تبدو موجودة في مشروع ثقافي واسع النطاق واعتمادا على جمع أساسي بين مفهومي الذاتية القومية والتطور المجتمعي .

الذاتية والتطور : هل هما مفهومان عمليان ؟

في هذا الجمع بين الذاتية والتطور ادراك لضرورة اقحام القطاع الثقافي في السياسة العامة للتغير المجتمعي . لكن هذا الاقحام لا يكون ربطا عضويا الا بوجود تخطيط (بين - قطاعي) منسق ، وهو ايضا لا يستوعب اجتماعيا الا اذا كانت هناك مشاركة عمودية فعلية (10) . هناك ، اجمالا ، الى حد الان ، « مشاركة » افقية (مسؤولون عن قطاعات مختلفة يتحدثون عن الثقافة) والاعمال الثقافية تشكو مع ذلك قلة التنسيق الذي لا يتكامل الا مع رؤيا شمولية للمجتمع التونسي . من هذه الوجهة يبدو من الضروري التحفظ في الحديث عن « سياسة ثقافية » : هناك نشاط « تثقيفي » يعتمد ملاءمة (غير ممكنة في اعتقادنا) بين برنامج موحد واصناف سكانية مختلفة .

لا نعرف حتى الان طبيعة العمل الثقافي المترقب ، ولكن حيرة رسمية تبعث على التفكير في تغيير متوقع ، كما ان الرجوع الى مفهومي الذاتية والتطور في آن واحد يشير الى حل ممكن : تقصير التباعد بين الثقافي والمجتمعي ، وهو ما جعل ممكنا اعتبار العمل الثقافي « مشروع تنمية كاملا مكملا » ، واعتبار ان « التطور الثقافي يبدو واجبا ادراكه - في آن واحد - كعامل من عوامل الذاتية القومية - او الذاتية الثقافية ان اردنا - وأداة تغير او تحول لمجتمع ما ولحضارته (11) في هذا المشروع الذي يفترض « النقد الذاتي ومراجعة اختياراتنا » (12) تتضمن الرؤيا الثقافية اذا امكانية تجاوز الفصل وربما التناقضات بين الاصالة والفاعلية (13) على ان هذه التناقضات تعكس ، تناقضات الواقع الذي يعيشه المثقف عموما . بعبارة اخرى لا يكون التجاوز في المستوى الفوق - بنيوي فقط ، وهي ملاحظة ذات اهمية خاصة وان تغير العقلية التقليدية في تونس (خلافا او عكسا للجزائر مثلا) يبدو اكثر سرعة من تغير البنية المجتمعية الاقتصادية .

من هنا جاءت ضرورة التساؤل حول حدود مفهومي الذاتية والتطور اللذين لم يسمح بعد لهما مضمون التنوع المجتمعي بان يكونا عمليين في المستوى التحليلي .

---

(8) Aspirations

(9) Neutralisation

(10) من الاهداف التي اشار اليها السيد وزير الشؤون الثقافية « تطبيق مبدا الديمقراطية في عملنا الثقافي علما بان الثقافة ملك مشاع بين جميع المواطنين » ، « جريدة » لابراس » 7 - 7 - 1974

(11) من تصريح للسيد وزير الشؤون الثقافية في
Les nouvelles littéraires, 20-5-1975. p.9

(12) نفس المصدر (10)

(13) يمكن تحديد ذروة النقاش حول مفهوم الاصالة (مع اكبر مشاركة) حوالي السبعينات وخاصة سنة 1971 موازاة لموضوع التعريب ، انظر مثلا الفكر ، افريل 1971

مفهوم الذاتية : من المعرفة الى الوعي

واذا نظر الى الحوار حول الذاتية في العالم العربي اجمالا ومن عل ، لوحظ تقارب حول مبدأ « الخصوصية » . اما تباعد الاراء ففي تفسير مضمون هذه الخصوصية واشكالها ووظائفها : البعض يرى فيها حفاظا ضروريا على الكيان القومي والبعض يرى في الالحاح عليها تحصنا ضد ايديولوجيات معينة وآخرون يعتبرون مشكل الذاتية - كما هو موضوع - مشكلا وهميا يغطي مشاكل اخرى اكثر واقعية .

قد يعني هذا ان مفهوم الذاتية لم يتجاوز بعد البحث عن الاجماع (كتعبير عن الوحدة القومية) تحاشيا لمصادمة الواقع او لصدمات يتلقاها في كل مستوى من مستويات هذا الواقع . الكتيب الذي نشرته « الكتابة الاجتماعية في الجزائر » لسنة 1972 تحت عنوان « بحوث في الذاتية » وضمن مجموعة تسمى « اخبار سريع » ! .. يبرر باسباب تاريخية : « بعد ان تحرر المجتمع من الاستعمار لزم ان يتحرر ايضا من الذاتيات التي فرضت عليه . بعد ان اصبح امة لزم ان يضبط هذا المجتمع بطاقة تعريفه بين الشعوب » (14) . لكن الاجماع حول هذا المبدأ كشف عن تناقضات حالما وقعت محاولة استغلاله عمقا في مستويات فرعية . لقد اثبتت « الثورة الزراعية » انه يكفي ان تحدث تغيرات اجتماعية اقتصادية هامة لكي تظهر بسهولة حدود الذاتية القومية كمفهوم تجريدي وهشاشته ايضا .

بالنسبة لتونس هناك مرور تدريجي للذاتية التعبيرية (تميزا بينها وبين الذاتية المعاشة) من المعرفة الى الوعي . نعني بهذا مرورا من ذاتية مجردة هي مادة معرفة الى ذاتية تقارن بالواقع ، طبعا لا تدعى هذه الملاحظات الالمام بابعاد هذه الصيرورة . فما ستعتبره مثلا من مظاهر الذاتية - الوعي كمرحلة متاخرة تم ان عبر عن شيء منه او عما يشبه شيئا منه في الثلاثينات من طرف كتاب كالبشروش والحليوي . نكتفي هنا باستنتاجات اولية ملخصة استنادا الى مرجعين متتابعين : « مجلة الزيتونة » ابتداء من 1936 ومجلة « الفكر » في « المجلة الزيتونية » تقدم الذاتية على انها مادة لمعرفة تقليدية ، وهو ما يعني شيئين على الاقل : جعل الذاتية « موضوعا » خاصا بذوي المعرفة واعطاءها مضمونا قارا مهما اختلفت الاوضاع .

ففي هذه المجلة تعتمد الذاتية التعبيرية - وهي مرتبطة بمفهوم الوحدة كصيغة للضمير القومي في الفترة الاستعمارية - على نوع من المجانسة (15) هي في آن واحد افقية وعمودية : افقية لان مرجعها عوامل الامة الاسلامية المشتركة ولانها تحدد مركز الثقل في الشرق عموما وفي مصر خصوصا . وهي مجانسة عمودية باعتبار انها تبرز القيم التي تفترض اجماعا تاما من طرف الاصناف المجتمعية في تونس .

من هنا جاء الالحاح على ما هو مشترك بين الامم العربية الاسلامية امام « خطر » النزعة الوطنية التي بدأت تتبلور . هذه النزعة بقيت تسمى حتى سنة 1955 « النعرة الوطنية » (16) وتعتبر مرضا سياسيا بدأ ينخر الامة في مفهومها الواسع . باختصار ، وعلى وجه العموم ، لا تكاد توجد سمات ذاتية خصوصية تونسية في « المجلة الزيتونية » حتى سنة 1955 (مع الاحترازات التي وقعت الاشارة اليها قبل حين) . كل ما هنالك حديث عن المقومات والمشخصات في اطار شخصانية اسلامية . شخصانية الربع الثاني من هذا القرن التي تمثل رد فعل ضد اعجاب بالغرب بدا فيه تطرف ومبالغة ...

ملاحظتان على الاقل تتصلان هنا بالربط بين الثقافي والمجتمعي : اولا اثبات الذاتية عن طريق المتجانس كان سمة معرفة غير قادرة على تجاوز التناقضات الحقيقية بطريقة اخرى . السؤال : ذاتية ام ذاتيات ؟ لا يجد في هذه المعرفة غير جواب كابت وظيفته الادماج : ليست هناك الا ذاتية واحدة لا « يعلمها » ولا يحدد مركباتها الا ذوي المعرفة ، معرفة اصيلة او « اصالة علمية » باسمها هوجمت افكار الطاهر الحداد وغيره (17) . ثانيا ادعاء الاصالة من طرف نوع من المعرفة كان له وظيفة معينة : خدمة ارستقراطية عارفة . ارستقراطية كانت منافعها استراتيجيا تفرض عليها تلاؤما حسب المناسبة ، كهذه الملاءمة التي تتبنى فيها رأي الملك : « هذه الامة تقوم على ثلاثة اركان الملك والشرع وجامع الزيتونة يحفظها الصغار عن الكبار وستتناقلها عن بعضها الاجيال ... وأما الركن الرابع فمعلوم للجميع وهو الجيش » (18) .

اما « الفكر » فتتجه - خاصة حوالي السبعينات - الى بلورة مفهوم طريف للثقافة القومية ، طريف الى حد ان بعض مظاهره كالذي يسميه البشير بن سلامة « الادب الجاهلي

---

(14) Sécrétariat Social d'Alger : Recherches d'Identité - Essai sur la quête de soi en Algéric - collection «Information rapide», Déc. 1972 p. 3

(15) Homogénéisation

(16) المجلة الزيتونية ، العدد 8 سنة 1955 ، ص 50

(17) « الاصالة العلمية » عبارة استعملها المفتي الحنفي لمساندة هجومات عمر المدني ضد الحداد ، انظر « سيف الحق على من لا يرى الحق » 1341 هـ. ص 64

(18) نفس المصدر (16) ص 428

التونسي»(19) لم تكن ممكنة التصور في المعرفة السابقة ذات القوالب التكرارية .

لم تعد الذاتية معطاة وانما اصبحت مما يبحث عنه ، هذا البحث تاريخي قبل كل شيء : التاريخ موجه من جديد وفي بعض الحالات يكتفي ، كمرحلة اولى ، بفقد الاتجاه . حسب رأي لعله من اكثر الاراء الفاتا للنظر وتحييرا للمجانسة التقليدية يجب ان لا يتمادى التاريخ الثقافي التونسي في سلوك منعرج القرن السابع المفضي الى جاهلية الجزيرة العربية . يجب ان يواصل سيره قدما في اتجاه « اجدادنا » اللاطينيين » (20) . ذلك ان هناك « سنة ادبية فكرية قومية » تونسية يحملها بين طياته الادب اللاطيني و « نجدها بالتالي مبثوثة كاحد ما يكون البث في ادب الشابي والحداد وسعيد ابي بكر والدوعاجي (21) ليست هنا محل مناقشة هذا التوجيه للتاريخ الثقافي الذي حلله البشير بن سلامة وهو جدير بمناقشات جدية لم تتم . المهم هنا ان الابعاد العربية الاسلامية لم تعد مفهومة خارج خصوصية تاريخية او خارج « مشكلية » خاصة . والطريقة التي تدمج بها هذه الابعاد في رؤيا تونسية اصبحت من معايير الاختلافية كتجاوز للانسجامية . اعادة النظر في التاريخ تحول حتما مركز الثقل القديم وذلك بتعطيل الاستقطاب (22) : الغرب والشرق والماضي ايضا ثلاث قوى يعبر عنها في الحالات السلبية بالمسخ والذوبان والجمود

تونس ليست ممرا حضاريا وليست مادة لاستقطاب خارجي . هذا ما تزايد تأكيده رفضا لتصور قديم . تصور قل من يعرف انه وجد عند الفيلسوف هيقل بشكل عنصري غريب .

وفي كتاب يسمى « العقل في التاريخ » ! كتب هيقل بعد احتلال الجزائر متحدثا عن افريقيا الشمالية « انه بلد ليس له الا ان يتبع مصير كل ما يحدث خارجه من عظيم الاحداث دون ان يكون له وجه معين خاص به . هذا الجزء من افريقيا المتجه كاسيا مالصغرى نحو اوروبا يمكن بل يجب ان يلحق باوروبا . وهو ما حاول ان يفعله الفرنسيون اخيرا وبنجاح (23) .

عديد من المقالات وخاصة افتتاحيات محمد مزالي مدير المجلة وما كتبه البشير بن سلامة حول « مقومات الشخصية التونسية » ، بقطع النظر عن كتابه الاخير الحامل لهذا العنوان ، يحاول تحديد نوع من طرافة الذاتية الثقافية أقل غموضا من مفهوم « الاصالة » ومرتبط بتصور للتونسة . هذه « التونسة » هي الدعامة الاساسية لكثير من المواقف عن التعريب والتحفظ أمام التعاون الثقافي ... »

ثمة اذا عملية ارجاع زماني ومكاني لمفهوم الذاتية . غير أن الذاتية التعبيرية في مرحلتها الحالية رغم تموضعها زمانيا ومكانيا لم تفض الى مجابهة الذاتية المعاشة . معنى هذا ان تجاوز التجانس تم افقيا بالمعنى المشروح سابقا . على ان هذا التموضع كمرحلة اولى ييسر كثيرا المجابهة : اي مقارنة ما يقال بما يعاش .

وهنا لا بد من فتح قوسين يطول النقاش بينهما . كثير من المفاهيم (الاصالة ، الذاتية ، التونسة ...) مبني من الناحية المنهجية على تناقض هام : ذلك ان بلورة هذه المفاهيم ترمي من ناحية الى اعتبار الواقع التونسي والاقتراب منه ، ولكنها من ناحية اخرى تبقى في مستوى تجريدي لا يسمح لها بمعرفة هذا الواقع .

ان التفكير في العلاقة بين التعبيري والمعاش من جهة وبينهما وبين الممكن من جهة اخرى يفضي الى تطوير نوع من الضمير المشكلي (24) . من هنا جاءت بعض تساؤلات « الادب الطلائعي » في مجلة الفكر وخارجها . ومهما تنوعت الاراء في هذا الادب فهو تجربة فريدة ونقطة تحول كان يجب ان تحلل عوض ان تنتقد سطحيا على انها مجرد تهديم لقيم ثقافية لغوية . ان التهديم البنوي (25) في الادب الطلائعي تفكيك للمفهوم الكلاسيكي للثقافة عموما ، وانه يمكن التساؤل علميا ما اذا كانت الطلائعية وسيلة تعبيرية توخاها صنف من المثقفين الشباب لحل عقدة الجمود التي يعيشها ، فانه مما لا ينفى ان هذه الطلائعية تمثل ـ في ميدان الادب ـ ابعد تجربة الى الان في مراجعة ضمنية للمعطيات المفهومية للثقافة في تونس .

مفهوم التطور : عسر التوسط بين التعبيري والمعاش

قد يمكن الذهاب الى ان الذاتية التعبيرية كما وقع ابرازها توافق مرحلة من بناء الوعي القومي كان يمكن تجاوزها تاريخيا . وهو ما يفسر الشعور بالحاجة الى الربط بينها وبين مفهوم التطور . طبعا من جملة اسباب هذا الربط ـ كما سبقت الاشارة اليه ـ الوعي لضرورة اقحام القطاع الثقافي في سياسة عامة للتغير . لكن التحليل قد يحدد ابعادا وظيفية اخرى ، من ذلك

---

(19) انظر « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » تونس 1971 ، ص 157 وما بعدها .

(20) حسب تعبير البشير بن سلامة ، نفس المصدر ص 159 و ص 148 (ملحوظة) .

(21) نفس المصدر ، ص 136 .

(22) Dépolarisation

(23) Hegel, « La Raisön dans l'Histoire » Trad. kosta Popaioannou, col. 10-18, Paris 1965, p. 246

(24) Conscience Problématique

(25) Destructuration

استمرارية (بسيكو ـ اجتماعية) ، على الاقل ، يقدر عليها مفهوم كمفهوم الذاتية يمكن اعتباره في نهاية الامر ومن الناحية الوظيفية « ظرفيا ». على هذا الاساس يكون في الربط بين مفهومي الذاتية والتطور تدعيم ـ شعوري ـ لهذه الاستمرارية . هذا يعني ان مفهوم التطور اذا لم يقترن بمضمون حركي جديد للذاتية فان وظيفته البسيكو ـ اجتماعية لا تساعد الا على نسيان التخلف (بالمعنى الزمني) للكائن الثقافي .

ان اكبر صعوبة يلاقيها مفهوم التطور كوسيط بين الذاتية التعبيرية والواقع المعاش هي الطلاق التاريخي بين هذين الطرفين . ثم انه ما دام الصلح عسيرا فان التصور الفردي او الجماعى للتطور قد لا يساعد هنا ايضا الا على تناسى الطلاق . ليفترض وضع مبسط : شخص يدافع عن التعريب . له تلفزة تقدم له حصتين متتاليتين (وهو ما حدث فعلا) : الاولى (محل شاهد) يسخر فيها بمن يفضل الكلام باللغة الفرنسية عوض لغته العربية احدى مركبات ذاتيته . الثانية (صور متحركة) تكلمه وابناءه بالانقليزية ! علامات التطور هنا (الالة نفسها ، تقنية الصور المتحركة ...) قد تنسيه التناقض الاساسى فى التبليغ .

عمليا اذا قد يعسر على التطور استيعاب الذاتية التي يطالب بها . وتشتد الصعوبة طبعا في مستوى الذاتية (وقد يقال الذاتيات) المعاشة . ذلك ان تطبيق المفهوم لا يتم الا باعتبار الصنفية المجتمعية لذلك كان التطور الثقافي أو « ثقافة التطور » يلاقي تحفظا او لامبالاة في بعض الجهات والاصناف المجتمعية التي يفترض ان الامر يهمها .

من هنا جاءت ظاهرة تلقائية وهي تكون جمهور محدود وقابل للتحويل كالعملة ، من قطاع الى قطاع ومن المدينة الى القرية ، من ذلك ان الطلبة وصلوا الى تمثيل 96 ٪ من المطالعين و 79 ٪ من المشتركين في المكتبة الوطنية التي اصبحت هكذا فرعا جامعيا (26) . وهم مع اصناف اخرى « مثقفة » يكونون معظم الجمهور الفعلي لدور الثقافة . وهم الذين تترقب عودتهم في العطل مع التلامذة دور الشعب لتنشط . لا فائدة في الرجوع الى الفصل المفهومي بين المثقفين وغير المثقفين والذي يعكسه هذا الترقب . ما يسترعى الانتباه هذه المطابقة العامة بين غير المثقفين واللاجمهور .

هذه الظاهرة توضح لماذا اعتبر مشكل العمل ومتقدم نسبيا ، لكنه لا يكفي ان يرى فيه وسيلة انعتاق ثقافي من طرف المسؤول او النخبة المثقفة لكي يكون ممكن التبليغ الى جماهير حاجياتها اوكد الثقافي في تونس مشكل جمهور (27) وهو اعتبار لا يتسم بواقعية كافية ، اذ ليس المشكل مشكل جمهور بقدر ما هو مشكل ما يقدم للجماهير . هذا الاعتبار المتشكي ناتج عن الانطلاق من برنامج ثقافي عوض الانطلاق من الحاجيات والتتوقات الحقيقية لمختلف الاصناف المجتمعية الملموسة . **المسرح في تونس مثلا قطاع محظوظ الى انعتاقات اولية (من الامية والخصاصة مثلا) .**

ثمة سلم حاجيات يختلف طبعا باختلاف الاصناف والجهات . أن يكون صعب التحديد فشيء أكيد معلوم ولكنه جانب اخر من القضية . المهم ان لا تذهب الاراء الجمالية المثالية الى ان ما يثقف المثقف ويمتع المستمتع ثابت ضرورة لا نسبي . واذا قيل مع ذلك يجب ان لا تحرم الجماهير من « الثقافة » ، تكرر السؤال : اية ثقافة ؟ الرجوع العرضي الى الصحافة يمد المطالع برأيين في احدهما جواب عن الاخر : هدف المبرمج « نشر المسرح في كل الجهات وان يقاد الجمهور الى الشعور بالمسرح كحاجة » (28) والنتيجة الشعور بان « الشعب ليس هو الذي يصنع المسرح ... الشعب يتحمله » (29) واضح اذا الى اى حد هي شاقة مسؤولية البرمجة : فما تعتبره ـ مع صدق العزم والعمل ـ حاجة للناس قد يعتبره الناس عبثا . لعل هذا يشجع على تجربة تنشيط ذاتي (30) لامركزي تعبر فيه الثقافة الحية عن ذاتها ، اما الثقافة المثقفة فهي ليست غالبا منفصلة عن الواقع فحسب ، بل انها ـ كما سبق ان ذكر ـ قد تقوي القطعية بين الانسان وواقعه ... ودون تعويض .

تلخيصا ، يبدو حصاد التجربة التونسية ـ في الميدان المفهومي الذي حصر فيه القول ـ مؤكدا لمبدأ بسيط : التبليغ الثقافي لا يتم اذا تجاوز حدود الضمير التجريبي (31) للجماعة المبلغ اليها واذا لم يحاول اسقاط ضميرها الممكن (32) . يؤكد ايضا ان الربط بين الذاتية والتطور لا يكون عمليا في ميدان العمل الثقافي الا اذا حول وحرك المعطيات الموضوعية للتنوع المجتمعي : على هذا الاساس يعسر الحديث عن سياسة ثقافية قبل تجاوز الانسجامية التي غمرت هذين المفهومين . المسالة مسالة رؤيا .

ط. ل. ج.

---

(26) المصدر (4) ، الجدول ص 34

(27) انظر مثلا « لابراس » 24 ـ 7 ـ 1974 ، ص 3 .

(28) نفس المصدر .

(29) جريدة « لابراس » 1 ـ 5 ـ 1974 ، ص 3 .

(30) Auto-animation

(31) Conscience Empirique

(32) Projection de la Conscience possible



منزلة العقل عند ابن خلدون

ولد ابن خلدون في تونس في غرة شهر رمضان سنة 732 الموافق 27 ماي 1332 م وهناك تلقى علومه على ابيه وعلماء عصره من اهل تونس ومن الوافدين عليها ، فحفظ القرءان وتفسيره وحذق كل قراءاته كما تضلع في علوم الفقه واللغة والنحو ثم توسع في الاداب والمنطق وعلوم الفلسفة

وقد عاش ابن خلدون حوالي 74 سنة كانت مليئة بالنشاط والحيوية وقد كان هذا النشاط عديد الجوانب حيث شملميادين الادارة والسياسة والخطابة والقضاء فالدرس والبحث والتدريس والتاليف ، وقد كانت حياته مليئة بالتجارب التي عرف من خلالها نشوة النجاح ومرارة الفشل ومن خلال هذه التجارب الحية ارتبط ابن خلدون بالواقع واعتمده في ابحاثه ودراساته التي وفق بسببها الى افضل النتائج العلمية في موضوعي التاريخ والاجتماع وقد كان للجولات العديدة التي شملت كامل بلاد المغرب والاندلس فمصر والشام وبلاد الحجاز كما كان لتنوع المسؤوليات التي عاشها ابن خلدون الاثر الواضح في اصطباغ ءارائه بصبغة المجرب الواقعي البعيد عن الاعتبارات الخيالية والمثالية ، وقد ظهر هذا بالخصوص في اسلوبه وطريقته في الكتابة ، فهو . مثلا قد كتب مقدمته المشهورة سنة 779 هـ/1377 م في حوالي الثانية والاربعين من العمر بعد ان شاهد كثيرا من الانقلابات السياسية واشترك فعلا في الكثير منها . وقد كان هذا كله تجربة حية افادته في كتابته التي كانت تزخر بالروح الواقعية المقامة على الايجابية والموضوعية ولم تعرف حياة ابن خلدون الاعتزال الا مدة اربع سنوات اخلد فيها الى جمع تاملاته وتدوينها في مقدمته حيث اقام في قلعة بني سلامة بالجزائر وشرقي مدينة تلمسان بين سنتي 1374 – 1378 (1) وقد كانت هذه السنوات الاربع اثمن واخصب سني حياته من حيث النشاط الفكري والانتاج العلمي ، ويكفي تدليلا على هذا ان المقدمة التي ضمنت له الخلود كانت من نتاج هذه الحياة المنزوية في تلك القلعة النائية

وهكذا تجمع حياة ابن خلدون بين التجربة الحية من خلال البحث عن المنصب والجاه وحب الدرس والعلم الذي ياتي ثمرة لهذه التجربة فتكون الحقائق صلبة وثابتة لانها استمدت وجودها من الواقع وجاءت نتيجة الملاحظة والتجربة

واخيرا يمكن ان نلخص حياة ابن خلدون في ثلاثة ادوار اساسية :

– دور العمل السياسي في بلاد المغرب بين (1352 – 1374)

– دور الانزواء والتام[illegible] كتابة في قلعة بني سلامة عن[illegible] بني عريف من (1374 – 1478)

– دور الانصراف الى التدريس والقضاء مع مراجعة ما كتب (1378 – 1406) وقد توفي ابن خلدون بمصر ودفن بها حيث وافاه الاجل في 25 من شهر رمضان 808 هـ الموافق لـ 15 مارس 1406 م

مشكل المعرفة ومكانة العقل فيها :

تباينت الاتجاهات حول امكانية المعرفة وحول الوسائط التي يمكن اعتمادها لادراك الحقيقة

فقد لاحظ هرقليطس منذ القديم ان العالم في تغير مستمر وتبدل دائم لا يعرف الثبات او الاستقرار وقد كان شعاره «انك لن تنزل النهر الواحد مرتين» لانه يتغير في محتواه وفي تركيبه من لحظة لاخرى

واعتمد السوفسطائيون هذا المعنى علىلسان زعيمهمبروتاغوراي فاكدوا نفي وجود الحقيقة المطلقة الثابتة وانتهوا الى القول بان «ما يبدو لي حقا فهو حق بالنسبة لي وما يبدو لك حقا فهو حق بالنسبة اليك» وبذلك تكون الحقيقة نسبية فردية وبذلك هدموا العلم والاخلاق والدين لان كلا منها يقوم على التسليم بوجود حقائق ثابتة وعامة

ثم انتهى هذا الموقف التشككي عند بيرون الى حالة الاتراكيا وهي التوقفالتام عن البت في الحكم لا بالنفي ولا بالاثبات ، وفي هذا حكم على امكانيات الانسان بما فيها من الحس والعقل بالقصور واتهام لها بالعجز عنمعرفة الحقيقة مهما كانت طبيعة موضوعها وتركزت معرفة الحقيقة عند فيتاغوري عن طريق العقل الرياضي حتى ارجع الكون كله الى عدد ونغم ، وذهب الايليون الى تفسير الكون تفسيرا عقليا فانكروا الحركة والتغير

والكثرة وانتهوا الى القول بوحدة عقلية مثالية غريبة

وانتهى افلاطون الى القول بان عالم المحسوسات عالم الكثرة والتغير والتبدل ما هو الا عالم وهمي ظني هو بمثابة الظل والخيال لعالم حقيقي هو عالم المثل العقلية وهكذا تكون المعرفة الحقيقية عنده في المعرفة العقلية الكامنة في الذات وان محاولاتنا في المعرفة ما هي الا تذكر تقوم به النفس لتعيد ذاكرتها عما تعلمته عندما كانت في عالم المثل وينتهي ارسطو الى الجمع بين الحس والعقل فيؤكد ان صلتنا بالعالم الخارجي تكون عن طريق الحواس ثم يكون للعقل دوره في تجريد المعاني الكلية والصور وبذلك يتكامل العقل والحس في الحصول على المعرفة

وتتجدد هذه الاتجاهات في العصر الحديث مثل النزعة الحسية عند كوندياك وهيوم وشبيه بهما عند جون لوك الذي يؤكد بان العقل هو صفحة بيضاء وان التجربة الحسية تنقش عليه كل معارفنا ، ونجد النزعة العقلية عند ديكارت وان كانت في شكل مغاير عند ايمانويل كانط المتمثلة في موقفه النقدي من العقل ، كما نجد النزعة التجريبية العقلية عند فرانسيس بيكون

ولكن كيف كان الموقف في الفلسفة الاسلامية وخاصة عند ابن خلدون ؟

لقد كان لهذه الاتجاهات انصارها في الفلسفة الاسلامية حيث آمن المعتزلة بالعقل واعتمدوه في قضايا كل من الدين والدنيا وقاربهم في هذا الاتجاه ابو الوليد ابن رشد ، كما عرفت النزعة التجريبية العقلية عند علماء المسلمين امثال الحسن ابن الهيثم واخوان الصفاء وغيرهم ، وكذلك كان الموقف التشككي النقدي الذي وقفه الغزالي من الحس والعقل في موضوع الالاهيات وما بعد الطبيعة بوجه عام ، وهو الموقف الذي سيتبناه ابن خلدون بعد ان يعطيه قالبه العلمي في ثوب جديد

وهناك حقيقة اولية يجب الانطلاق منها هي ان العقل يستمد مقاييسه في الحكم على الاشياء من المادة وبالتالي فان هذه المقاييس لا تفيدنا في بناء معرفة يقينية الا اذا كانت طبيعة الموضوع الذي نعالجه مادية قابلة للتشخيص والمشاهدة كما هو الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية مثلا ، اما اذا كانت طبيعة الموضوع غيبية غير قابلة للمشاهدة مثل قضايا التوحيد والاخرة فان الامر فيها لا يعدو مجرد التخمين ولا ادل على هذا من اختلاف الفلاسفة حول مثل هذه القضايا منذ ان عرف الانسان التفكير الفلسفي ، ولعل الغزالي كان على حق عندما اكد على ان كثرة اغاليط الفلاسفة كانت في هذه القضايا الالاهية ، لان هذه القضايا الغيبية لا يقوى العقل على ان يعطي فيها احكاما يقينية يطمئن اليها

ابن خلدون وموقفه النقدي للعقل

هناك ملاحظة اولية لا بد من تاكيدها وهي ان ابن خلدون يجمع بين النزعة الواقعية العلمية من جهة والنزعة الاشعرية الاعتقادية من جهة اخرى

ومعنى هذا ان ابن خلدون يميز بين نوعين من المعرفة واعتماده في هذا التباين الحاصل بين موضوعي هذين النوعين ، فاذا كان موضوع المعرفة يقوم اساسا على ما هو قابل للمشاهدة في نطاق الواقع امكن ادخاله في مجال المعرفة التي تعتمد الحس والعقل اي امكن الانتهاء فيه الى معرفة بشرية يعتمد فيها الانسان على امكانياته الخاصة كما هو الحال في دراسة الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية بالاعتماد على ملاحظاتها على ما هي عليه بالفعل والتعمق في معرفة اسبابها ومسبباتها والانتهاء الى الكشف عن قوانينها ونواميسها العامة التي تعتمدها فيما بعد في تفسير الظواهر المشابهة او المماثلة وهذا كله ممكن ما دمنا في اطار الاسباب القريبة المباشرة والتي ترتكز حول موضوع معين اما اذا حاولنا الاحاطة بالكون كله فعندئذ تتشابك الاسباب طولا وعرضا ويحار العقل . ومن هنا كان لا بد من الوقوف بالعقل عند حدوده وان لا نغامر به فيما هو فوق طاقته

ان ابن خلدون يقر بالسببية في ميدان المعرفة العلمية وان لا يمكن ان نفسر الظواهر الكونية الا بالرجوع الى معرفة اسباب وجودها ، يقول ابن خلدون : «ان الحوادث في عالم الكائنات ، سواء كانت من الذوات او من الافعال البشرية او الحيوانية ، لا بد لها من اسباب متقدمة عليها ، بها تقع في مستقر العادة وعنها يتم كونها»

هذا كله ما دامت هذه الاسباب في متناول الادراك البشري اي اذا كانت قريبة ومباشرة ، اما اذا تجاوزت الاسباب في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا فانها عندئذ تكون قد خرجت عن ان تكون مدركة بحيث اذا حاول العقل تتبعها فانه لا محالة سيضل في بيداء الاوهام ويحار في ادراكها وتعديدها

يقول ابن خلدون : «وتلك الاسباب في ارتقائها تنقسم وتتضاعف طولا وعرضا ويحار العقل في ادراكها وتعديدها . ثم يقول : .. والانسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وانما يحيط علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعة ظاهرة ويقع في مداركها على نظام وترتيب لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها ، واما التصورات فنطاقها اوسع من نطاق النفس لانها للعقل الذي هو فوق طور النفس ، فلا تدرك النفس الكثير منها فضلا عن الاحاطة بها ومن هنا يتبين ان ابن خلدون يؤكد بوضوح ان مجال المعرفة اذا كان من طبيعة غير مادية فانه يتجاوز امكانيات الانسان وانما هو للعقل الذي هو فوق طور النفس لذلك اللجوء في معرفة مثل هذه المواضيع الى الوحي الالاهي الذي يتكفل بتبصيرنا بهذه الحقائق ، ويزيد هذا المعنى تاكيدا فيقول : «ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من انه مقتدر على

الاحاطة بالكائنات واسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رايه في ذلك»

هكذا يتبين ان مدركاتنا العقلية محدودة لانها تعتمد على ما تاتي به الحواس وهي محدودة ، ولا يفوتنا التاكيد على ان معارفنا ومداركنا منحصرة فيما تمدنا به هذه الوسائل المحدودة . خذ لك مثلا ، المقارنة بين المبصر والاعمى فاذا كانت المبصرات ثابتة وموجودة عند المبصر فهي معدومة عند الاعمى وكذلك الامر بالنسبة لمن يملك حاسة السمع بالمقارنة مع الاصم ، فالمسموعات ثابتة موجودة عند الاول ومفقودة عند الحيوان ومن هنا تكون المعرفة نسبية وهي بالتالي محدودة ومفيدة بطبيعة الموضوع المبحوث وامكانيات الباحث واننا فوق هذا وذاك انما نعلم افكارنا عن الاشياء ولسنا نعلم حقائقها في ذواتها

يقول ابن خلدون : «واعلم ان الوجود عند كل مدرك في بادىء رايه منحصر في مداركه لا يعدوها ، والامر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه . الا ترى الاصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الاربع والمعقولات ويسقط عنده من الوجود صنف المسموعات وكذلك الاعمى ايضا يسقط عنده صنف المرئيات ،، ولو سئل الحيوان الاعجم ونطق لوجدناه منكرا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية» ، ثم يقول : فاذا علمت هذا . فلعل هناك ضربا من الادراك غير مدركاتنا ، لان ادراكاتنا مخلوقة ومحدثة وخلق الله اكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول ، والوجود اوسع نطاقا من ذلك . واذا كان الامر هكذا وكان العقل قاصرا على ادراك الحق في مثل هذه القضايا فكيف الحل اذا وما هو الطريق الذي نتوخاه للظفر بالحل ؟ يجيب ابن خلدون فيقول : «فاتهم ادراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما امرك الشارع به من اعتقادك وعملك . فهو احرص على سعادتك واعلم بنفعك لانه من طور فوق

واتبع ما امرك الشارع به من اعتقادك عقلك» . وهكذا نرى الى اي حد كان ابن خلدون سنيا اشعريا في القضايا الغيبية وفي نفس الوقت صاحب نزعة علمية واقعية في المباحث التي يربط موضوعها بالمادة

وهنا لا بد من التمييز بين محدودية العقل وقصوره من جهة والقول ببطلانه من جهة ثانية ، ذلك ان العقل وان كان قاصرا عن معالجة القضايا الغيبية مثل قضايا التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة فهو قادر على معالجة القضايا ذات الطابع المادي الحسي مثل الظواهر الطبيعية والاجتماعية ، وهكذا يتبين ان الامر يتعلق بنقد العقل لا نقدا تهديميا بل ان صح التعبير نقدا تقييميا للتعرف على مدى قدرته حتى لانتعامل به فيما لا يطيقه ونعتمده كميزان صحيح في ما هو في طوقه . يقول ابن خلدون : «وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح فاحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالاهية وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع في محال»

ثم يوضح ابن خلدون هذا المعنى عن طريق المقارنة بين ميزان ذي طاقة محدودة أعد لوزن كميات قليلة مثل الذهب ، ان مثل هذا الميزان لا يقوى مثلا على وزن الجبال لانها ليست من طوقه فيقول : «ومثال ذلك رجل راى الميزان الذي يوزن به الذهب فيطمع ان يزن به الجبال وهذا لا يدرك (اي لا يفهم) على ان الميزان في احكامه غير صادق ، ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، وانى يكون له ان يحيط بالله وبصفاته ، فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه»

ويؤكد هنا اهمية تقديم ما يقول به الشرع في مثل هذه القضايا على ما يقول به العقل فيقول : «وتفطن في هذا (غلط) من يقدم العقل على السمع في امثال هذه القضايا . وقصور فهمه واضمحلال رايه»

وبهذا نفهم لماذا هاجم ابن خلدون الفلسفة والفلاسفة في قضايا الالاهيات . لان الفلاسفة قاسوا الاحكام المتولدة عن عالم المشاهدات الحسية على الامور غير المرئية بطبيعتها وهذا لا يصح ، وتوضيح ذلك كما يقول ابن خلدون : «واما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس . وهي الروحانيات ، ويسمونه العالم الالاهي وعالم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة راسا ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها لان تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن في ما هو مدرك لنا ، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات اخرى ، وذلك لحجاب الحس الذي بيننا وبينها ومن أجل ذلك لا يتاتى لنا برهان عليها ولا تدرك لنا في اثبات وجودها»

وهكذا نرى الى اي حد يماشي الغزالي في نقده للفلاسفة الالاهيين من جهة وفي نفس الوقت من وجهة اخرى كان يضع الحجر الاساسي للنزعة الايجابية Le Positivisme العلمية بالنسبة للمواضيع ذات الطابع المادي القابلة للتشخيص والمشاهدة والتي اعتبر انه لا دخل للدين فيها وان العقل في مثل هذا الموضوع هو المعتمد .

ثم هو من جهة اخرى كان في وضعه للمشكلة النقدية قد سبق «ايمانويل كانط» الذي انتهى من خلال نقده للعقل الخالص الى التمييز بين العقل النظري والعقل العملي مع التاكيد على ان العقل النظري العلمي قاصر على المواضيع ذات الطبيعة المادية وهو غير قادر على تجاوزها الى المواضيع ذات الطابع الغيبي

ونؤكد في النهاية كيف كان ابن خلدون اشعري النزعة في ميدان الالاهيات وواقعيا علميا في عداه من المواضيع المثبتة والقابلة للتشخيص عن طريق ادوات الحس

ع.م.



- تمهيد :

تبدأ قصة الادب العربي في تونس بعد ان استقر العرب الفاتحون في هذا الشمال الافريقي ، واتخذوا من القيروان عاصمتهم السياسية والعسكرية والثقافية ، في هذا القسم الكبير الذي فتحوه من القارة الافريقية .

وكان تأسيس هذه المدينة الخالدة مبنيا على حكمة سياسية وعسكرية ودينية . وكان من نتيجة تلك الحكمة ان رسخت قواعد الدين الجديد في هذه الاصقاع . بل ازدادت تقدما وانتشارا في ربوع اوروبا لما تغلغل الاسلام في بلاد الاندلس وجنوب فرنسا ، وفي صقلية وجنوب ايطاليا .

وكان تاسيس مدينة القيروان على غرار مثيلاتها من الامصار الاسلامية الاولى ، مثل الفسطاط بمصر ، والكوفة والبصرة بالعراق ، فقد أسست تلك الامصار لتكون مراكز اشعاع ، ومعاهد تثقيف ومنابر هداية للدين الاسلامي ، واللسان العربي .

وإذا قارنا بين استقرار الاسلام في المغرب العربي ، وبين استقرار المذاهب الدينية او السياسية السابقة او اللاحقة ، فاننا نرى فرقا واضحا جليا بين وضعية الاسلام وبين وضعية الديانات السياسيات الاخرى ، فالدين الاسلامي كان يحتم قبوله ككل لا يعرف التجزئة من جهة المعتقد او الحكم السياسي ، لانه لم يكن للدنيا فقط او للجسد وحده ، وانما كان للدين والدنيا ، وللجسد والروح .

وكان الفتح العربي – من جهة اخرى – يتسم بطابع الشمول والانتشار ، فلا يختص بطبقة من الطبقات او طائفة من الطوائف ، لان مبادئه السمحة لا تعرف التفريق بين الاجناس والالوان ، والطوائف والطبقات مما جعل السكان الاصليين بهذه الديار يقبلون عليه دون حرج ، ويعتنقونه دون خوف من تعصب او ميز او تفريق وهذا عكس ما جاء من ديانات او سياسات قبل الاسلام اذ بقيت مقصورة على طبقات خاصة او فئات معينة ، وبقي سواد الشعب في الغالب معزولا عما جاء من دين جديد او حكم جديد .

والمعجزة التي حققها الاسلام في هذه الرقعة من الارض تتمثل في تلك الميزة التي امتاز بها ، واختص بها دون غيره ، وكان لذلك نتيجة بالغة الاثر ، عميقة التاثير ، هي نتيجة التعريب لهذه الارض ، وتعريب سكانها الاصليين ، بل شمل ذلك حتى اولائك الطارئين ممن اثروا البقاء تحت ظل السيادة الاسلامية .

ثم كان من نتيجة ذلك ايضا انتشار اللغة العربية ، وشيوعها بين الناس ، واقبال السكان الاصليين عليها تعلما وتفهما ودرسا ، ولا يمكن ان نغفل في هذا المجال ذكر الرباط الوثيق بين لغة الدين والسياسة ولغة التشريع والادارة ، من انها كانت لغة واحدة ، هي لغة واحدة عند الامام الذي يؤم الناس في الصلاة ، ويخطب فوق المنبر بالمسجد ، او يعظ في الجموع والمحافل ، وهي نفس اللغة عند القائد يحرض بها الجند على الجهاد ، ويحثهم على الاستماتة في القتال الى درجة الاستشهاد ، وهي نفس اللغة التي عند الجند وعند عامة الناس على حد السواء .

وهكذا لم ير السكان الاصليون ما كانوا يرونه من فوارق بين رجال الدين ورجال الدولة ، بل انهم لا يكادون يجدون ما يشير الى تلك الفوارق او يدعو اليها .

بل لم يجد السكان الاصليون فرقا بينهم وبين القادمين عليهم الا ان يؤمنوا بما آمن به اولائك القادمون ، ويعتنقوا هذا الدين الجديد فيصبحوا مثلهم في الحقوق والواجبات ، بل قد يفضلونهم اذا كانوا اكثر منهم تقى وامتثالا لاوامر هذا الدين ونواهيه .

ان هذا العامل النفسي كان عظيم التاثير فيمن وجدهم العرب الوافدون من السكان القدامى للمغرب العربي .

لقد عرف هؤلاء السكان القدامى باسم البربر كانهم جنس معين من الاجناس البشرية معروفون بهذا الاسم ، ولكن علم الاجناس لا يساند هذا الاطلاق ، اذ لم تكن كلمة « البربر » سوى اطلاق يوناني كان اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم بلسانهم ، تماما مثلما اطلق العرب لفظ « العجم » على كل من لا يتكلم اللسان العربي ، ومثلما حصل لكلمة « عجم » العربية فاصبحت تختص ببلاد فارس لشدة اتصالها بالعرب واحتكاكها بهم ، فكذلك اختصت كلمة « بربر » بسكان الشمال الافريقي وغلبها اليونانيون عليهم ، ثم احتفظ بها الرومانيون من بعدهم لما ورثوا حضارة اليونانيين وملكهم الواسع . وواضح ايضا ان شدة الاتصال بين الرومان والسكان الاصليين بشمال افريقيا كان لها علاقة خاصة في الاحتفاظ بهذا الاطلاق واستمراره الى ان قدم العرب الفاتحون الى هذه الديار .

ودون الدخول في التفاصيل البعيدة عن هذا البحث سنكتفي فقط بالالماع الى ما له علاقة بقابلية هذه الاقطار الى التعريب ، والى امكانية انسجام سكانها الاصليين مع الوافدين عليهم من الجزيرة العربية .

فمهما اختلفت اراء النسابين وافتراضاتهم فان الاقرب الى الاقناع هو نسبة هؤلاء السكان الاصليين الى الجنس السامي من بني كنعان . وما تزال كلمة الامازيغ الى اليوم تشير الى مازيغ بن كنعان . كما لا تزال اللغة البربرية تعرف باسم « تمازغت » امتدادا لذلك النسب ، واستمرارا للارتباط بذلك الاصل .

ان موجات عديدة – على كرات مختلفة – خرجت من الجزيرة العربية فعبرت البحر الاحمر ، او اخترقت صحراء سينا ، وانتشرت في القسم الشمالي من القارة الافريقية الممتد من سواحل البحر الاحمر شرقا الى سواحل المحيط الاطلسي غربا . ومثلما استطاع البحر الابيض المتوسط ان يحدد من هذا الانتشار شمالا ، فقد حددت كذلك فيافي الصحراء الكبرى من توغل تلك الهجرات السامية الى افريقيا الوسطى والجنوبية .

وكان قدوم الفنيقيين الى شمال افريقيا موجة اخرى – حديثة العهد نسبيا – من موجات الهجرة السامية الى هذه الاقطار . فقد اختار الفنيقيون البقاء فيها وتولدت من هجرتهم تلك دولة من اشهر الدول في التاريخ القديم ، هي الدولة القرطاجية .

وفي هذا المجال من البحث يمكن القول بان العرب الوافدين محملين بالدين الاسلامي لم يكونوا سوى موجة سامية اخرى اتت الى المغرب العربي . والتحق اصحابها ببني عمومتهم السكان الاصليين من الامازيغ والفنيقيين .

وقد وجد قدماء السكان في هؤلاء الوافدين الجدد ما يشعرهم بسهولة الانسجام معهم والامتزاج بهم . وهو الذي لم يجدوه عند من سبق اليهم من يونان ورومان ، ووندال ، وبيزنطيين . هذا بالاضافة الى ما تقدم ذكره من ان العرب جاؤوا معهم بدين يدعو الى المساواة ، ويأمر بالعدل ولا يفرق بين الاجناس والالوان .
وكان هذا الدين الجديد يحتاج من اعتنقه الى وسيلة تقربه منه وتفهمه معانيه ومراميه . ولم تكن تلك الوسيلة الا اللغة العربية ، لغة القرآن والعبادة من ناحية ، ولغة السياسة والادارة من ناحية اخرى .

هنالك اذن . دافعان اثنان – على الاقل – يحفزان البربر الى تعلم اللغة العربية : دافع ديني روحي ، ودافع مادي دنيوي . ومما لا شك فيه ان الواقع الديني كان اقوى واعظم ، واقدر على الصعود والثبات امام التيارات والاحداث .

الدافع الديني دافع تلقائي شمولي يستوي امامه جميع المؤمنين . اما الدافع المادي فهو – من جهة – لا يمثل العموم والشمول ، وهو – من جهة اخرى لا يمثل الاستمرار والدوام .

وأمر اخر لا يمكن اغفاله كذلك هو الصلة بن اللغة البربرية باللغة الفينيقية التي تتلاقى مع العربية في اللغة السامية الام . وكذلك التشابه البشري والاجتماعي من ناحية الهيكل الجسماني ، ومن ناحية العادات والتقاليد .

وكان طابع السذاجة والبداوة السائد على كل من الجنسين يكون نقطة التقاء من الناحية النفسية والاجتماعية . وهي نقطة لم يكن يجدها البربر عند الموجات البشرية الاخرى التي سبقت الموجة العربية .

فماذا كانت النتيجة ؟
كانت النتيجة هي استقرار الاسلام وتمركز اللغة العربية ، وصمودها امام احداث التاريخ ، وتقلبات الزمان . وكانت النتيجة كذلك ما نراه من وضع معاكس لما هو موجود هنا اذا قارناه باطراف اخرى من الرقعة الاسلامية في اقصى اتساعها ؟ فبعض تلك الاطراف تقلص منه الاسلام ، وامحت منه العربية . والبعض الاخر استقر فيه الاسلام ولم تسد فيه العربية .

واذا كان لا يهمنا – هنا وفي هذه المقارنة – تلك الاقطار التي تقلص منها الاسلام مثل اسبانيا وصقلية ، فان الذي يهمنا في هذه المقارنة هي الاصقاع الاخرى التي ما تزال تدين بالاسلام . ولكن اللغة العربية لم تبق لها السيادة فيها ، او لم يبق لها شيء ذو بال .

وكي تتضح المقارنة اكثر يجب ان نمعن في الحصر والتدقيق بالقاء هذا السؤال : لماذا اصبح الشمال الافريقي ضمن العالم العربي ، ولم تصبح اقطار اخرى مثل المجموعة التركية ، او الايرانية او الهندية ؟

ان بعض تلك الاقطار لا يبعد عن مهد العرب مثلما يبعد هذا الشمال الافريقي ، كما ان البعض من تلك الاقطار انتصبت فيه الممالك الاسلامية الواسعة ، وازدهرت فيه الثقافة والاداب العربية عدة اجيال وعدة قرون . وشارك الكثير منها مشاركة ايجابية كبرى في نشر الاسلام والدعوة اليه وتوسيع رقعته . بل وصل البعض منها الى ان يصبح ملتقى انظار العالم الاسلامي ، ومركزا للخلافة الاسلامية .

ولا يمكن ان يقال ان تلك الاقطار كان لها من المجد السياسي او الحضاري ما اكسبها الحصانة دون الذوبان في بوتقة العروبة ، لان هذا اذا صح انطباقه على بلاد الفرس فلا يصح انطباقه على الطورانين الموغلين في البداوة والجهالة ، ولا شعوب المايو وغالب الاصقاع الهندية التي كانت بعيدة عن الحضارة والتمدن ، او كانت نسبة تقدمها الحضاري لا تفوق نسبة العرب في جاهليتهم وقبل الاسلام فيهم .

انما مرجع ذلك الى تلك العوامل النفسية والاجتماعية التي عددناها سابقا . والى ذلك التقارب الملحوظ بين السكان الاصليين المعروفين باسم « البربر » وبين العرب الوافدين عليهم من الجزيرة العربية .

وكنتيجة لهذا الاحساس بالتقارب وبعدم النفرة ، وجد مظهر سياسي اخر لوحظ في المشرق الاسلامي ، ولم يلاحظ في مغربه . هذا المظهر هو مظهر النزعة الانفصالية عن العروبة ولغتها ، والتمسك باللغة الاصلية لشعوب تلك الاقطار مثلما حصل بالنسبة الى فارس والشعوب الطورانية .

فنحن عند ما نستعرض التاريخ السياسي في المغرب العربي – وخاصة في تونس – لا نجد السيادة العربية في الجنس العربي الا في عصر الولاة ودولة بني الاغلب . أما بعد ذلك فالقيادة اصبحت لقبائل بربرية اصيلة تكونت منها دول عظيمة الشأن ، وازدهرت فيها الحضارة والمدنية ، وبلغت من اوج العزة والمناعة ما يمكنها من ان تصبح في حل من التمسك باللغة العربية ، واستبدالها بلغتها البربرية ، وتبقى محافظة على العقيدة والدين الاسلامي كما بقيت دول المشرق الاسلامي مثل تركيا وايران وافغانستان .

كان في امكان الدولة الرستمية بتاهرت ، ودولة المرابطين بالمغرب ، ودولة الصنهاجيين بتونس ، وكان في امكان دولة الموحدين التي جمعت الاقطار الثلاثة ، وكان في امكان الدول التي تفرعت عنها من بني مرين بالمغرب الاقصى وبني عبد الواد بالجزائر ، وبني حفص بتونس . كان بامكان هؤلاء واولائك ان يفعلوا مثلما فعل الفرس والترك بالمشرق : ان يتعصبوا للغتهم الاصلية ، ويتركوا العربية مستبقين الاسلام دينهم – لكنهم لم يلتزموا العربية لغة رسمية لهم . كان في

امكان البربر ان يفعلوا ذلك . لكنهم لم يفعلوا ولم يستنكفوا من التمسك بالعربية والتدين بالاسلام .

وما ذاك الا لما تقدم سابقا من وجود هذه الصلات الوثيقة ، وهذا التشابه الكبير ، وذلك الارتباط التاريخي المستمر مما جعلهم لا يستنكفون ابدا من ان ينضموا الى بني عمومتهم ، ويندمجوا معهم بعد ان جاء هذا الرباط المقدس رباط الاسلام . فجمع بين اقطارهم المتباعدة ووحد بين صفوفهم المتفرقة .

- صعوبات :

تواجه المتصدى لدراسة الادب العربي في تونس عدة صعوبات اذا هو اراد الاستيعاب والاستقصاء لتلك الدارسة ، والالمام بجميع جوانبها وجزئياتها .

ذلك ان مناهج الدراسة الادبية المعاصرة لم تبق كما كانت الدراسات الادبية والنقدية في عصورها القديمة ، فقد كان النقاد القدامى يكتفون بالبيت الشارد او القصيدة النادرة ليحكموا بها للشاعر او عليه .

ولم تكن تلك الدراسات تعتمد العوامل النفسية والاجتماعية ، وتتقصى بالبحث الاسباب التاريخية والعوامل الاقتصادية والسياسية لتفحص من خلالها عن منهج الشاعر ودوافعه الذاتية ليصبح كما كان عليه وما آل اليه من طريقة في التعبير ، ونظرة الى الحياة ، ومسلك في المجتمع . ومن هنا اقتصر النقد في الماضي على اللفظ المجرد ، وعلى المعنى المستقل عن نفسية الشاعر ، وظاهرة المجتمع الذي يعيش فيه .

ومن هذه النواحي كلها كان يسهل الجمع على من تصدى لجمع طبقات الشعراء وكان يسهل الحكم للشاعر او عليه ما دام ذلك يحصل بما توفر للناقد من تلك الابيات الشاردة او المقطوعات القليلة .

ونحن لا نعيب على القدامى مسلكهم ، ولا نطالبهم بما اصبحت عليه مناهج الدراسات الادبية والاساليب النقدية المعاصرة ، فان سنة التطور لا ترنو الى الماضي الا باعتباره مرحلة للتأسي والاتعاظ ، لا باعتباره القدوة في السير ، او المثالية في التقدم والتطور .

ولكن عمل القدامى نفسه لا يعني البطلان بالنسبة لنا . ولا يعني ان ما قاموا به من عمل ومجهود نحن في غنى عنه . بل ان ما قام به القدامى من الادباء والنقاد هو – من ناحية – حلقات التسلسل الحضاري الذي تنتسب اليه ، وتوصل بيننا وبين مختلف الاجيال المتعاقبة والقرون المتتالية وهو – من جهة ثانية – المادة الخام ، والحجر الاساس ، الذي منه نصنع انتاجنا النقدي الجديد والذي عليه نبني ما اردناه من دراسة ادبية ونقدية لمعالمنا الادبية القديمة .

ومن هنا تبرز اهمية التراث المحفوظ . وتزداد هذه الاهمية قيمة واعتبارا بوفرة ذلك التراث وكثرته ، وبالحفاظ عليه وصيانته .

فبقدر ما يتوفر ذلك التراث بقدر ما تتوفر اسباب الكشف والبحث وتتوفر مهيئات الاستيعاب والاستقصاء ، لان ما كان يكتفي به الناقد القديم والمؤرخ السابق ، اصبح لا يفي بحاجة الناقد الحديث والمؤرخ المعاصر .

ولهذا يجد كل من هذين : الناقد الحديث والمؤرخ المعاصر ، الصعوبة عند ما يحاول القيام بالدراسة الموضوعية المركزة ، والبحث المنهجي المستوعب اذا كانت تلك المادة الخام مفقودة او قليلة . واذا كان ذلك الحجر الاساس مخروما او مهشما ، وبالاحرى اذا كان مفقودا او معدوما .

وبوصولنا الى هذه النقطة من البحث يمكن لنا ان نربط بينها وبين ما قلناه من ان المتصدي لدراسة الادب العربي في تونس تواجهه عدة صعوبات اذا هو اراد الاستيعاب والاستقصاء لتلك الدراسة ، والالمام بجميع جوانبها وجزئياتها .

ذلك ان وفرة التراث الادبي التونسي تكاد تكون مفقودة ، ولا نعني بهذا انها لم توجد . بل هي وجدت بالفعل . ويمكن القول بشيء من اليقين والجزم انها كانت موجودة بكثرة ، وان ذلك التراث كان غزيرا وكان خصبا وان كتب التاريخ والادب والسير حفظت لنا الكثير ، والكثير جدا من اسماء الادباء والشعراء والكتاب ، ومن اسماء الكتب والمؤلفات والدواوين .

ولكن اين تلك المؤلفات والكتب والدواوين ؟ هذا هو المشكل في الامر . انها مفقودة او في حكم المفقودة ، وان عوادي الزمن ، ونوائب الدهر واحداث التاريخ كان لها العامل الاكبر في فقد ذلك التراث الواسع العريض ، وفي تلاشي تلك الثروة الضخمة من المآثر العلمية والادبية التي كتب لها ان توجد ، وتنمو ، وتزدهر على هذه الرقعة من الارض ، وعلى فترات مختلفة من تاريخ تونس العربية .

فقد لعبت الارض التونسية دورا هاما في حياة الثقافة العربية والادب العربي لا في تونس فقط بل تجاوز ذلك الدور نشاطه الى ما هو ابعد من ذلك حتى شمل كل بلاد المغرب في معناها الواسع الذي لا يعني اقطار « المغرب العربي » حسب المصطلح المعاصر بل كان يشمل صقلية والاندلس ، وما كان يقع جنوب المغرب العربي من مفازات الصحراء الكبرى ، ومجاهل القارة الافريقية .

وكانت مدينة القيروان – لفترة طويلة من الزمن – مركز الاشعاع الفكري والادبي لكافة تلك الاقطار ، كما كان للعواصم التونسية الاخرى دور لا يقل اهمية وفعالية عما قامت به عاصمة القيروان في ميدان الحضارة الاسلامية والثقافة العربية .

ودراسة هذا الدور لتونس العربية يمكن الدارس المحصن من الوصول

الى نتيجة يقينية هي أن هذا الدور نفسه كانت له نتيجة عكسية سيئة . ومفعول جد خطير على ما اشرنا اليه سابقا من ضياع ذلك التراث وتلاشيه .

فان الاحداث السياسية الاشد خطرا على ذلك التراث وعلى ضياعه انما كانت نتيجة مباشرة وزد فعل حتمى لما قامت به تونس من دور ايجابى فعال فى مجال السياسة الاسلامية ، والمغربية بصفة اخص .

فالملاحظ ان كارثتين فظيعتين اصابتا التراث الادبى والعلمى في تونس كانت كل منهما نتيجة مباشرة للدور السياسي الذي لعبته تونس سواء في مجال المغرب العربى او فى مجال العالم الاسلامى .

فلم يكن زحف بنى هلال وتخريب افريقية الا انتقاما سياسيا قامت به الخلافة الفاطمية بالقاهرة عندما انفصل عنها المغرب العربى ، واعلنت عاصمة القيروان زعامتها لذلك الانفصال ، وقيادتها لذلك الاستقلال .

اما الزحف الاسبانى على تونس العاصمة فلم يكن في هدفه البعيد سوى انتقام سياسي وصليبي قامت به اسبانيا النصرانية ضد تونس الحفصية التي كانت ملجأ للمهاجرين الاندلسيين ، وكانت خطرا قد يهدد اسبانيا النصرانية فيما اسرته بالاندلس [illegible] اومن بني حفص من انتصار وفوز ضد المسلمين الضعف وهرأهم الخلاف ، بادرهم الاسبان بالسيطرة والاحتلال . وكانت مصيبة الثقافة والعلم في هذا الاحتلال تتمثل في ذلك الاعتداء الفظيع على المكتبات العلمية بجامع الزيتونة فاخرجت منه عشرات الآلاف من المجلدات والقيت في الشوارع واحرقت بالنار . فضاعت بذلك ثروة طائلة من الادب والعلم تنافس ملوك بني حفص في جمعها والاكثار منها . ولعل من ابلغ ما يصف لنا تلك الكارثة الرواية التاريخية التي تقول بانه لم يبق بخزائن الكتب بجامع الزيتونة سوى بضع نسخ من صحيح البخاري .

وكان حظ مدينة القيروان اسوأ واشد ، فقد تعرضت مرات عديدة الى التخريب والابادة . وكان من اشهر المصائب فتنة ابي يزيد المعروف بصاحب الحمار 333 هـ وزحف بني هلال 449 هـ ثم فتنة مراد بوبالة (IIII هـ) وهي الفتنة التي اتت على البقية مما كان موجودا في هذه العاصمة العريقة من اثار العلم والادب .

واما العاصمة الثالثة ، مدينة المهدية فبالرغم من بقائها مدة اقل كعاصمة سياسية وثقافية فقد تعرضت بدورها الى الفتن والتخريب سواء من الاعداء الخارجين مثل النرمان او من الفتن الداخلية زمن بني عبيد والصنهاجيين .

ان تعدادنا لهذه العواصم الثقافية الثلاث ينتهي بنا الى حقيقة اخرى لها اتصال وثيق بالمآل المحزن الذي انتهى اليه تراثنا الادبي والفكري .

هذه الحقيقة هي ان انتقال عاصمة الدولة من مكان الى مكان كان له اثر كبير في تلاشي الكتب والخزائن والوثائق ، وفي تعرض القصور والمكتبات العامة او الخاصة الى الهجران والترك ، وبالتالي الى الاهمال والتلاشي . وهو امر قل نظيره في بقية البلاد العربية الاخرى ، لان انتقال العاصمة من مدينة الى مدينة له تاثير كبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وفي المظاهر العمرانية والاثرية . ذلك ان استقرار العاصمة يولد – من ناحية – طبقات عريقة في التمدن والتحضر ، ويكسبها مناعة ذاتية تحول بينها وبين ذوبان مجدها ومكاسبها خاصة في مجال الكتب واختزانها . واستنساخها . كما انه من ناحية اخرى – يكون له تاثير في انماء المكتبات العامة التي كانت تنشأ بمدارس العلم او في المساجد . وان عظمة تلك المكتبات وخلودها يرتبطان حتما ببقاء حياة سياسية واجتماعية مزدهرة لانها انما تولدت عنها وانبعثت منها ، وهي لذلك تزول بزوالها وتنقرض بانقراضها . وهو ما حصل بالنسبة لمدينة القيروان ومدينة المهدية العاصمتين السياسيتين والثقافيتين قبل مدينة تونس .

وملاحظة اخرى لا بد من الاشارة اليها هي عدم تسلسل التقدم العلمي والحضاري في تونس العربية . فان استعراض التاريخ السياسي بتونس الاسلامية يكشف عن تلك الملاحظة وهي ذات اثر ملموس فيما نحن بصدد ذكره .

فان الازدهار الذي حصل في عهد بني الاغلب اعقبته الاضطرابات والفتن التي صاحبت سيطرة الشيعة من بني عبيد . وبعد الازدهار الذي حصل في عهد الصنهاجيين كانت فتنة الزحف الهلالي والاضطراب السياسي ، الى ان استقر بنو حفص فعادت البلاد الى الازدهار والانتاج من جديد . ثم كانت نكبة الاحتلال الاسباني وقدوم الاتراك العثمانيين مما كان له تاثير فعال في خمود جذوة الحركة العلمية والادبية في تونس . الى ان تمكنت في عهد الملوك الحسينين من الانفصال عن الاتراك وعادت البلاد الى التعريب . وقام اولائك الملوك بحركة جديدة في سبيل نشر العلم والثقافة . والاخذ باساليب الحياة العصرية وهو ما لم ينقطع الى اليوم بالرغم من صدمة البلاد بالاحتلال الاجنبي وما قام به من جهود في سبيل تحويل الاتجاه العربي والاسلامي في هذه البلاد .

ان تلك الفجوات الزمنية من التدلي والتدهور التي حصلت بين مختلف عصور الازدهار الادبي والعلمي في تونس اذا ضممناها الى ما سبق ذكره من اسباب فقد التراث وتلاشيه نكون بذلك قد استجمعنا اهم العوامل وابرزها تاثيرا في هذه الصعوبة التي قد تواجه المتصدي لدراسة الادب العربي في تونس .

ولكن هل يعني هذا كله فقدان تلك المصادر كلية ؟

محمد العروسي المطوي

محمد الكشابي

مدن الجنوب التونسي من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب

سأحاول في هذه العجالة عرض ثلاثة موضوعات ترتبط ببعضها اتم ارتباط

الاول : الدور الذي اضطلعت به مدن الجنوب التونسي ، خلال عمليات الفتح الاولى ، اذ لا يغرب عن البال ان هذه المدن كانت تمسك بيدها مفاتيح النجاح والفشل ، فهي التي تمثل الدرع الواقي للعاصمة البيزنطية ، « سبيطلة » من جهة وهي التي تحمي ظهور المهاجمين العرب وتؤمن خط الرجعة لهم اوالعكس من جهة اخرى

اذا فهذا الذي ساقدمه مجموعة افتراضات ، واستنتاجات ، سريعة ، قابلة للنقاش ، لان الخوض في هذا الموضوع لا يخلو من التعثر نظرا لقلة المعلومات ، وندرتها من ناحية ، ونظرا الى ان المعلومات القليلة المقدمة من طرف المؤرخين ، لا تخلو من تناقض ، وغموض واضطراب بل انها احيانا تلجأ الى الاساطير والخرافات من ناحية اخرى

الثاني : الكلام بايجاز عن مدى مشاركة مدن الجنوب في الحياة الفكرية والمذهبية ومدى انتشار العقائد المختلفة بين سكان هذه المدن ، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة في القرون الخمسة الاولى للاسلام

الثالث : محاولة جمع ما ورد في كتب الجغرافيين والرحالة العرب حول مدن الجنوب من معلومات جغرافية ، وبشرية ، واقتصادية ، ومعمارية وغيرها وارجو المعذرة ان جاءت ينقصها العمق والتحليل ويغلب عليها روح البرقيات المستعجلة ، فانها مقتطفات من موضوع طويل ما زال تحت الدرس ، يتعلق بحياة المدن الافريقية عامة ، في الفترة الاسلامية من حيث الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وصلة المدن ببعضها ، وتاثيرها في بعضها وتاثرها ببعضها ، وقد اتممت وضع خريطة للطرق والمسافات ثم جمعت المعلومات حول المدن ، فعسى ان يوفقني الله لتحرير ما جمعت ، وابرازه للوجود

لم يكتمل بعد فتح طرابلس ، حيث فكر المسلمون في غزو افريقية . واعتقد انهم ارادوا بالتعجيل في القيام بعمليات عسكرية في هذه المنطقة ، لاغتنام فرصة الفوضى التي تعيشها الدولة فانها حديثة عهد بالانفصال عن جسد الامبراطورية البيزنطية . لذا فان عدم تدخل جيوش الروم لمساعدة الافارقة ، شبه مؤكد بالاضافة الى ان جرجير مشغول بالتنظيمات الداخلية في عاصمته الجديدة ، اي انه على غير استعداد لخوض معارك حاسمة ، او طويلة النفس ، على الاقل ، ثم انه لم يكن يتوقع هجوما مفاجئا من العرب في ذلك الوقت ، بل كان يتوقع هجوم اساطيل الروم لذلك انتقل الى سبيطلة التي لم تكن [illegible] لان تكون عاصمة فرغم انتصاب[illegible] وسط المنطقة وسيطرتها على شبكة هامة من الطرقات فان تحصيناتها ضعيفة ان لم تكن معدومة . فلا يمكن المقارنة البتة بين حصونها وحصون قرطاج العاصمة الضاربة في التقدم ، يضاف الى هذا كله ان جرجير لا يمكنه التعويل كثيرا على مساعدة البربر الذين [illegible] جوانبهم احقاد عظيمة

ضد الروم ، ويتطلعون منذ اماد بعيدة للاستقلال ببلادهم

كل هذه المعلومات المشجعة جرأت عمرو بن العاص ، الى مصر ، وفاتح برقة وطرابلس على ان يستاذن من الخليفة عمر بن الخطاب ، في التقدم نحو افريقية ، ولكن عمر لم ياذن له بل منعه من ذلك منعا باتا ، يتمثل هذا الرفض القطعي في احاديث ينسبها اليه المؤرخون ، تظهر تخوفه من المجازفة بالتدخل في هذا الاقليم الواسع كقوله : انها ليست بافريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها احد ما بقيت ، مما يبعث على الاعتقاد ان عمر المعروف بتبصره وحذره الشديد لم يرد ان يقذف بجيش اسلامي لمحاربة بلد شاسع كافريقية بينما هو لم يستكمل فتح كل منطقة طرابلس لذلك صرف نظره نهائيا عن فتحها . لكن عمرو بن العاص لم يهدا اذ ربما شجعته المعلومات التي كانت تصله عن الفوضى وعدم الاستقرار والانقسام الداخلي في المنطقة فاخذ يرسل المسلمين في جرائد الخيل ، تنهش اطراف افريقية ، فيصيبون ويغنمون (1) وازدادت هذه المناوشات حدة بموت الخليفة عمر وتولى عثمان خلافة المسلمين ، فنشط واليه الجديد على مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح . هذه البعثات العسكرية التي يمكن ان نحصر دورها في حملات خاطفة للاتصال والاستكشاف ، والاختبار وجمع المعلومات ، لمعرفة صلة هذا الشعب بدولته ، ولسبر مدى تحصينات هذه الدولة واستعداداتها العسكرية ، ومعرفة مسالكها وطرقها ، اكثر منها للفتح ، يدلنا على ذلك انها دامت حوالي ست او سبع سنوات من سنة 21 الى 27 و 28 هـ

ويبدو انهم اكتشفوا منذ تلك الحملات الاولى ، حقد الشعب على دولته ولمسوا ضعف تحصينات العاصمة الجديدة ، سبيطلة ، فهاجموها راسا في حملة خاطفة ، دون التعرض الى مدن الجنوب ذات الاستحكامات المنيعة ، كقابس مثلا

اننا لا يمكن ان نمر على هذه الغزوة مر الكرام ، دون ان تثار في وجهنا عدة اسئلة وملاحظات اهمها ، كيف يمكن للمسلمين ان يقتحموا ارض بلاد عدوة ويهاجموا عاصمتها التي تقع في قلب المنطقة دون سابق انذار ، من غير خشية من التفاف شعب عدو عليهم ، ودون ان يضمنوا خط الرجعة في حالة فشل عمليتهم ؟ لعل الجواب عن هذا السؤال يكمن في تلك المناوشات الاولى التي قام بها العرب . فالمفروض ان المسلمين اتصلوا بسكان الجنوب ، وعلموا منهم نقاط الضعف في تحصينات الدولة ، كما لمسوا حقدهم على البيزنطيين فاستغلوا هذا الحقد وجلبوا اغلب البربر الى جانبهم ووعدوهم بالانصاف الذي جاءبه الدين الاسلامي،فوعدهم البربر بحماية ظهورهم ، وتامين خط الرجعة لهم ، وهكذا تم اول اتصال بين سكان الجنوب وبين العرب اذ لو لم يحدث هذا الاتصال ولو لم تصدر وعود متبادلة بين الطرفين ، لما تجرا قائد عسكري على التوغل مسافة اربعمائة كلمتر تقريبا ، في منطقة عدوة ليس له بها نصير

نجد تفسير هذا الافتراض في حوادث الاعوام التالية ، لما تتالت عمليات الفتح ، وتكسرت الجيوش البيزنطية ، وتصدت الكاهنة في حملة عظيمة ، مستغلة انكسار البيزنطيين لطرد العرب والاستقلال بارضها فخذلها البربر بالاحتماء بالجيوش العربية فان سكان قابس فتحوا مدينتهم لاستقبال حسان بن النعمان عند عودته الى افريقية ، وقبلوا عامله عليها ـ فامنهم على مال معلوم ، كما استنجد به سكان قفصة وقسطيلية لانقاذهم من الكاهنة (2)

وبذلك التاييد ، فضل حسان المسير راسا لملاقاة الكاهنة المتمركزة في الاوراس ، والتي نزلت الى السهول الجنوبية لما علمت بمقدمه ، ويبدو ان ميدان المعركة بينهما كان في منطقة قسطيلية او الزاب وبموت الكاهنة بدات كفة العرب ترجح واخذ البربر يعتنقون الدين الجديد عن اقتناع واستبشار بحياة جديدة

وتتالت الاعوام ، واختلف معها الخلفاء ، والولاة فوجد البربر انهم لم ينالوا شيئا مما كانوا يؤملون وان الوعود التي وعدوا بها قد تبخرت ، وان الولاة بداوا يعاملونهم معاملة السيد للمسود ، فالتجاوا الى الخلفاء يشكونهم معاملة ولاتهم ولكنهم لم يجدوا عند هؤلاء ايضا ما كانوا يؤملونه بالاضافة الى انهم جرحوا في عاطفتهم الوطنية التي هي اخص صفات البربر منذ ظهورهم في عالم التاريخ والتي اخذت تتجلى شيئا فشيئا في الاحقاب المتتابعة (3) لما اخذ السلمون يضعون الاحاديث المكذوبة وينسبونها للنبي في ذمهم والحث عن التنصل منهم ، كما انهم سلطوا عليهم ضرائب باهضة تتنافى وروح الدين

كل ذلك ساعدهم على اعتناق المذاهب الخارجية المتطرفة ، واعلان لواء الثورات في وجه كل الولاة على السواء وقد شارك سكان الجنوب ، منذ مطلع القرن 2 هـ في العمليات العسكرية الكبرى ضد حكم الولاة ، مشاركة فعالة ، مؤيدين ثورة ميسرة البرغواطي ، بالانضواء تحت لواء قائديه في افريقية . عكاشة الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهواري سنة 124 هـ فنرى سكان قابس ، والحامة ونفزاوة يلتحمون بشجاعة في المعارك الضارية التي دارت في منطقة الحدود التونسية الليبية بين هذين القائدين ، وبين امير طرابلس صفوان بن ابي مالك ، كما تصدوا لمسلمة بن سوادة واهل القيروان لما انتصروا لوالي طرابلس فدارت معركة ثانية بين الجيشين بجهة قابس انتهت بانهزام مسلمة وقتل عامة من خرج معه (4)

---

1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب . ص 42 ط . الجزائر 1948

2) تاريخ افريقية ، المغرب للرقيق القيرواني ـ ص 61 ـ 62

3) ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص 45

4) ابن الحكم ص 126

واعتقد ان تاييد بعض سكان الجنوب للحركة الانفصالية التي قادها عبد الرحمان حبيب وعائلته للتخلص من حكم الامويين والعباسيين للاستقلال بافريقية ، لم تكن حبا في عبد الرحمان ، انما كانت مساعدة له لضرب جيوش الخلافة ، ثم يسهل التخلص منه بعد ذلك.ورغم هذه المناورة السياسية ، فان قابس رفضت ان تفتح له ابوابها ولم تقبل واليه عليها في حين رضيت قفصة ونفزاوة وقسطيلية على مضض ان تكون من نصيب ابنه حبيب بعد موت عبد الرحمان واقتسام افريقية بين افراد عائلته

كانت الحرب الدائرة بافريقية الى مطلع القرن 2 هـ ، حربا سياسية قلبا وقالبا ولكنها اتخذت شكلا جديدا ، منذ هذا التاريخ ، حين نجحت الاباضية في فرض سلطانها على الجنوب ، فاصبحت المعارك مذهبية ظاهرها الدين وباطنها السياسة ، فلم تعد العمليات العسكرية تدور بين بربر وعرب ، بل اصبحت بين اباضيين وغيرهم ، خاصة وقد اختلط العنصر البربري بالعرب الذين قدموا من المشرق حاملين له عقائدهم ومذاهبهم ، فقد ايد البربر امامة الاباضي ابي الخطاب عبد الله بن السمح المعافري العربي على كل مناطق الاباضيين الجنوبية ، كما ايدوا بعد موته ، امامة عبد الوهاب بن رستم الفارسي ، على تاهرت

بالاضافة الى اننا نلاحظ ان تاييد ابي الخطاب للقيروانيين السنيين العرب ، ضد قبيلة ورفجومة البربرية لم يكن انتصارا منه للعرب ضد البربر ، بل لعله اراد امتلاك القيروان واقتطاع افريقية من جسد الخلافة السنية ، لتصبح اباضية لحما ودما **لذا فاننا لا نعتمد الراي الذي يلح على عنصرية الحروب التي دارت في افريقية الذي يعتنقه** ، ويلح عليه بعض المؤرخين ، لغايات معروفة ، بل اننا ننقل احقاقا للحق وللامانة العلمية **انها حروب بين حكام مستغلين ومحكومين مستغلين ومن هذا المبدا انشات المذاهب المختلفة وترعرعت الفلسفات والافكار المتباينة متفاوتة في التطرف والاعتدال مستندة على الدين حينا وعلى السياسة في اغلب** الاحيان وانتشرت الاباضية في مدن الجنوب انتشارا واسعا على يد ثلاثة من الزعماء الكبار لهذا المذهب : ابو الخطاب وعبد الرحمان بن رستم ، وابو داود القبلي ، وقد ازدهرت ازدهارا كبيرا على يد هذين الزعيمين الاخرين ، الذين تلقيا تعليمهما الاول في القيروان على يد شيخ الاباضية وفي العاصمة على سلمه بن سعد ثم ذهبا الى العراق لاتمام دراستهما بالبصرة ، التي كانت من اهم مراكز المذهب الاباضي فدرسا على شيخها المبرز ابي عبيدة مسلم ابي كريمة ، مدة خمس سنوات فلما اجازهما ، رجعا الى افريقية فانقطع عبد الرحمان الى الكفاح السياسي حتى اسس الدولة الرستمية في تاهرت منتصف القرن الثاني الهجري ،بعد انهيار دولة ابي الخطاب في جبل نفوسة ، بينما انصرف ابو داود الى الكفاح العلمي ، فانشا جيلا مثقفا ثقافة اباضية عميقة

وبذلك اصبح سكان جربة وجرجيس وورغمة ، ومطماطة ونفزاوة ، والجريد من اشد المتحمسين لهذا المذهب والمدافعين عنه (5) وكان سكان نفزاوة على المذهب الصفري وتحولوا الى الاباضية في عهد الامام عبد الوهاب بن رستم وبقي هذا المذهب هناك الى القرن الخامس الهجري حيث كان في بلدة فطناسة وحدها احدى عشر مسجدا اباضيا ، اما في الجريد فقد انتشرت الاباضية في زمن مبكر واصبحت لها قوة عتيدة خصوصا في ايام ازدهار مدينة درجين ، قرب نفطة ، وكان سكان درجين وحدهم نحو 18 الف فارس ، وانتشرت الوهبية بين سكان توزر والحامة (6)

وتدعي كتب الاباضيين ان تاهرت (137 – 297 هـ) توسع نفوذها في القرن الثالث الهجري حتى شكل اغلبية مدن الوسط والجنوب في افريقية ، بالاضافة الى اعمالا في المغرب الاوسط وتزعم ايضا ان عمالا كانوا يقيمون احكام الله في تلك البلدان ، وتذكر ان هؤلاء الولاة كانوا في قابس وقفصة ونفزاوة (7) لكني اشك في تبعية تلك البلاد سياسيا، الى تاهرت ، اذ اعتقد ان المؤلفين الاباضيين قصدوا التبعية المذهبية فقط ، لان ابن خرداذبة المتوفى في بداية القرن الرابع الهجري الذي زار المنطقة ، على ما يبدو في النصف الثاني من القرن الثالث ، يذكر أن : قابس ، وغدامس وقفصة وقسطيلية ، ومدينة الزاب كانت في يد ابن الاغلب (8) ، لكن يبدو ان المقصود بكلمة عمال ، الدعاة الذين يبثون احكام المذهب ومعتقداته،وليس ولاة سياسيين ، وفعلا ، اننا نجد ان الحامة كانت مركزا مهما من مراكز الاشعاع للمذهب الاباضي ، باحتضانها اجل علماء الطبقة السابعة من علماء الاباضيين ، وهو ابو القاسم يزيد ابن مخلد ، الذي عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (9) والذي كان يعقد حلقات تدريس المذهب الاباضي ، كما كان قبله ابو الخطاب وابو داود القبلي

لكن المنطقة التي استقلت فعلا استقلالا سياسيا ومذهبيا ، هي جبل نفوسة الذي اضطلعت فيه القبيلة القوية نفوسة باكبر دور في معارك القرن 3 هـ ، والتي ساعدت بقوة شكيمتها على انتشار الاباضية في المنطقة الممتدة من طرابلس الى جبل دمر جنوب قابس ، وهي التي اقامت القلاع الرئيسية للاباضية المغربية وهي التي انتخبت امامها الاول ابو الخطاب ، واعلنت انه : اميرالمؤمنين في فترة حكم الولاة ، كما ساعدت كل سكان الجنوب على تحدي النفوذ الاغلبي في مناطقهم

---

5) علي يحي معمر : الاباضية في موكب التاريخ في تونس ص 47
6) المصدر السابق (نقلا عن محمد المرزوقي في كتابه عن قابس نقلا عن لوفيكي) ص 48
7) نفسه – ص 49
8) ابن خرداذبه المسالك – ص 87
9) علي يحي معمر : المصدر السابق ص 52

وحين تولى الاغالبة كانت نفوسة تسيطر على منطقة واسعة جدا ، تمتد الى منطقة تاهرت في المغرب الاوسط كما بسطت نفوذها مع قبيلة هوارة على الطريق ا لرئيسية ، التي تقود من القيروان الى الشرق ، ولم تترك للاغالبة سوى شريط ضيق على السواحل الليبية ، ومدينة طرابلس ، اما الجنوب ، وحتى ضواحي مدينة طرابلس فقد كان كله تحت سيطرة هاتين القبيلتين القويتين

لذلك كانت السيطرة على الطريق الرئيسية موضع نزاع مستمر بينهم وبين الاغالبة ولم يستطع هؤلاء بسط نفوذهم عليها اطلاقا ،بل انهم كانوا ،بين الحين والحين يحرزون على انتصارات جزئية بسيطة حتى اقبلت سنة 283 هـ الحاسمة حيث اعترض 12000 رجل مسلح من نفوسة وهوارة ، طريق ابراهيم 2 بين قابس ، وطرابلس ، لما كان ذاهبا لطرابلس لمواجهة ابن طولون لان النفوسيين والهواريين راوا ان السماح باقامة حاكم اغلبي في طرابلس ، تنازلا منهم ، اما ان تطا جيوش عدوة ، ما يعتبرونه منطقة نفوذهم ، فانه لايمكن التسامح فيه او التنازل عنه اطلاقا ، ولم يشا ابراهيم ان يدخل في معركة لم تكن في برنامجه او انه تجنبها قصدا ، لغاية في نفسه ، فطلب منهم ان يتركوا له معبرا على ساحل البحر مهما كان ضيقا ، فلما رفضوا طلبه وضع ابراهيم جيشه في حالة استعداد للمعركة ، وامره ان يتبع ساحل البحر ، ولا يناشبهم القتال ما ترك لهم الاباضيون الطريق حرة ولكن هؤلاء اعترضوا طريق الجيش ومنعوه من العبور فاندلعت اضرى معركة في هذا العصر في المغرب كله حسب ما يذكر المؤرخون الاباضيون فتساقط الرجال بالجملة ، وكانت خسائر الجانبين فادحة ، وانهزم النفوسيون ، فتبعهم ابراهيم الى البحر والقى كثير منهم بانفسهم في الماء فتبعهم بالقتل حتى تغير لون الماء كما يقول ابو زكرياء ، واسر كثيرا من اهم رجالهم ويذكر هذا المؤرخ ان عددهم ثمانين شيخا من جملة شيوخهم

هذه الهزيمة ارادتها نفوسة ولم يردها ابراهيم على ما يبدو فلما وقعت اغتنمها فكسر شوكة هذه القبائل المستقلة المتكبرة فكانت الضربة القاضية على قوة نفوسة وعلى نفوذها بين البربر التابعين لها وعلى ا لمذهب الاباضي باكمله

يجمل بنا ان نقف لحظة للرد على بعض المؤرخين الذين نعتوا ابراهيم 2 الاغلبي بعدم التبصر السياسي بادعائهم ان قهر نفوسة لم ينتفع به الاغالبة بل انه ترك الفراغ للانتصارات الفاطمية فيما بعد ، واعتقد ان الرد على هذا الانتقاد نجده في تصرف ابراهيم الذي لم يرد ان يدخل المعركة لانه لا فائدة له في قهر نفوسة ، خاصة وان دعاية الشيعي في عهده انتشرت انتشارا عظيما بين برابرة المغرب الاوسط بل انه ربما اراد ان يستميلهم الى جانبه ، بتجنبه الدخول معهم في الحرب ليستعملهم وقت الحاجة ، ولكن ا لمعركة فرضتها الظروف ، كذلك لا يمكن ان نصدق ، بسهولة ما ذكرته كتب الاباضيين ، وتبعهم فيه المؤرخون الاخرون وما يرونه من فظاعة ابراهيم في معاملة اسراهم ، لقد مهدت هذه الهزيمة فعلا للفاطميين بعد ذلك الى ان يجتاح قوادهم اراضي الاباضيين ، وان يسقطوا تاهرت وان يبيدوهم ابادة منكرة ، اضطرتهم الى الاختفاء حيث هم الان كما اندحرت مدن الجنوب بعد سقوط تاهرت الواحدة تلو الاخرى ، ودعت للخليفة الفاطمي ، على كره شديد

وقد حاول الاباضيون الانتقام من خصومهم الاشداء بمشاركتهم في ثورة صاحب الحمار اذ نلمح ضمن فرق جيشه تشكيلات من فلول هوارة ومن بعض سكان الجريد ونفزاوة وغيرهما ، لعلهم يعيدون مجدهم السياسي ، والديني ، لكن هزيمة ابي يزيد امام اسماعيل المنصور الفاطمي اسكتت اصواتهم الى الابد، فلم نسمع لهم اي حركة طول فترة الحكم الصنهاجي ، ولما قدم الهلاليون في منتصف القرن الخامس الهجري واستوطن الاعراب جل المدن التونسية انقلب ميزان القوى بان اصبح الاعراب المحرك الرئيسي للاحداث وذاب البربر في هذه الموجة العارمة حتى اننا نجد من المؤرخين من ينسب تعريب افريقية الحقيقي ، الى هذه الفترة

بعد هذا التلخيص الموجز للاحداث السياسية العظمى ، التي ادت الى تحويل هذا الشعب من قوة بربرية لاتينية ، الى قوة عظيمة اسلامية عربية يحسن بنا ان نقدم تعريفا موجزا لاهم المدن في هذه المنطقة الشاسعة من ارض افريقية والتي كانت مسرحا لتلك الاحداث وماوى ذلك الشعب الذي كون هذه الاحداث وشاهد عن كثب ذلك التحول التاريخي العظيم

فاذا تطلعنا شرقي هذه المنطقة نجد مدينة قابس الرابضة على شاطىء البحر والصحراء ، القابضة على زمام اهم الطريقين اللتين تدخلان افريقية او تخرجان منها هما الجادة العظمى ، طريق قوافل التجارة والحج والجيوش الذاهبة او القادمة من الشرق او اليه والطريق البحرية ، التي تذهب الى الشرق والى مرافي افريقية والاندلس فلا غرو ان تجد قابس في قمة الازدهار الاقتصادي والتجاري والرفاه المادي وليس غريبا اذا ، ان يصفها اليعقوبي الذي زارها على ما يبدو في النصف الاول من القرن الثالث بالعظمة ، اذ يقول : ومن طرابلس على الجادة العظمى ، الى مدينة يقال لها قابس ، عظيمة على البحر المالح كثيرة الاشجار الثمار والعيون الجارية (15) اما البكري الذي كتب عنها في القرن الرابع فينعتها بتعاريف ادق مما تكلم عنها به اليعقوبي ، واكثر تفصيلا فيقول: ومدينة قابس مدينة بليلة مسورة بالصخر الجليل من بنيان الاول ذات حصن حصين ، وارباض ، واسواق وفنادق ، وجامع سري ، وحمامات كثيرة وقد احاط بجميعها خندق

---

15) اليعقوبي : البلدان ، ص 85

كبير يجرون اليه عند الحاجة ، فيكون امنع شيء ، ولها ثلاثة ابواب ، وبشرقيها وقبليها ارباضها ،،، وفيها جميع الثمار ، والموز بها كثير ، وهي تمير القيروان باصناف الفواكه ، وبها شجر التوت الكثير يقوم من الشجرة الواحدة من الحرير ما لا يقوم به خمس شجيرات من غيرها . وحريرها اطيب الحرير وارقه وليس في عمل افريقية حرير الا في قابس واتصال بساتين ثمارها مقدار اربعة اميال ومياهها سائحة مطردة يسقى بها جميع اشجارها ، واصل هذا الماء من عين خرارة ، في جبل بين القبلة والغرب منها ، يصب في بحرها وبها قصب السكر كثير ، وبقابس منار منيف ويحدو الحادي قدومه من مصر الى افريقية فيقول :

لا نوم لا نوم ولا قرار
حتى ارى قابس والمنار

وساحل مدينة قابس مرفا للسفن من كل مكان (11) اما بنيانها فكان من الحجارة والاجر ، كما شاهد ابن حوقل وابن خرداذبة ، كذلك لاحظ ان تفاحها لا يوجد في اي مكان غيرها ذكاء رائحة ولذة مذاق ، وقد حافظت على ذلك الازدهار حتى نهاية النصف الاول من القرن السادس الهجري حيث يصفها الادريسي بوفرة الانتاج الفلاحي والنمو الاقتصادي والعمراني ويشيد بتعدد اسواقها ورخص اسعارها ، ويذكر تحصيناتها المنيعة وخندقها العميق وبعد ما ينوه بازدهار صناعة الاقمشة الحريرية بها ، فيما سلف كما نوه بها البكري يتكلم على ان صناعة الجلود في زمنه واتساع زراعة الزيتون والزيت يحتلان مكانا بارزا في اقتصادها فهما مما يتجهز به التجار ، ويصدرونه الى سائر النواحي ، كذلك يتكلم عن خزن نوع من التمور في الدنان الكبيرة (الخوابي كما تسمى الان) ، اذ ان اهل قابس يجنونها طرية ثم يودعونها في دنانات ، فاذا كان بعد مدة من ذلك خرجت لها عسلية تعلو وجهها بكثرة ولا يقدر على التناول منها الا بعد زوال العسل عنها من اعلاها . وليس في جميع البلدان المشهورة بالتمر شيء شبيه ولا يحاكيه ولا يطابقه . في ملكوته وطيب مذاقه

اما مرساها الذي كان يعج بالسفن زمن البكري فقد اصبح ، في عهد الادريسي مكشوفا للرياح لا تكاد ترسي فيه السفن الكبيرة وانما ترسي القوارب الصغيرة بواديها الضيق (12) ونكاد نلمح غضب العبدري الذي زارها سنة 688 هـ ، ولكننا لا نعلم سبب نعته لها بالمنظر الخبيث والمحيا العابس (13) سوى انه لاحظ بها بعض الاوساخ والروائح الكريهة . فهي عفونات تخبو لقربها المصابيح وتنحو بالحول كل وجه صبيح (13) كما نعت اهلها باللؤم والبخل فقد دارت بها غابة من النخيل ، قد طلمت ثمرتها بكف كل بخيل (13) ويهجوهم كذلك بقلة العناية بالعلم والدين ، هواء وخيم ولؤم طبع وخيم ، وتضييع المصليات والمساجد ، وقلة اعتناء بكل راكع وساجد (13) لكن الادريسي رغم انه يصف اهلها بقلة الدماثة ، وان في باديتها عتو وفساد وقطع سبيل ، الا انه يشيد بان لهم زي ونظافة (12)

يحمل العبدري هذه الحملة الظالمة ضد قابس رغم ملاقاته بها خطيبها الفاضل ابو موسى الشكري الذي اولاه برا واكراما (14) ورغم ان التجاني الذي زارها بعد العبدري بعشرين سنة يوافقه على ان بها بعض الاوساخ والروائح الكريهة ويرثي لاهلها ما يتعهدهم من الاوبئة بسبب الماء الذي يجري على الدفلى فتكسبه مرارة ، لكنه لايوافقه بانها ذات منظر خبيث ومحيا عابس بل انه راى بلدا قد استوفى المحاسن واستغرقها ، واذكر بمنظره الانضر وورقها الاخضر جنة الخلد واستبرقها وقد احدقت به غابة من جميع جهاتها وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق . ما يتوقف الطرف ويستوفي الحسن والظرف ، ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا ، وانها دمشق الصغرى ويقال انه لا يجتمع في مائدة صيد البر والبحر واصناف التمر الافي مائدة من سكن قابس (15) ويبدو ان المدينة توسعت وامتدت في اتجاه البحر مقدار ثلاثة اميال في حوالي 150 او 160 سنة اذ ان الادريسي يحدد المسافة بينها وبين البحر بستة اميال بينما يذكر التجاني الذي زارها بعده بحوالي قرن ونصف ان بين قابس والبحر ثلاثة اميال فقط اما جهة الغرب والجنوب فقد اتصلت بها صحراء رملية مترامية الاطراف ثم يذكر سورها الصخري الجليل وخندقها كما وصفه البكري والادريسي قبله ويشيد باتساع ارباضها وجل اسواقها في هذه الارباض كما يلاحظ ان واديها يسقي مزارعها وبساتينها ، ويخترق في كثير من مواضع ، الغابة ودورها وشوارعها . وان اغلب جناتها بين المدينة والبحر ولهم منتزه في هذه الجهة يسمى ساحة عنبر (16) ويعدد معالمها . كالمنارة التي بشرقي المدينة ويشير ، الى انها سقطت في زمنه (17) وبداخل المدينة مسجدها الجامع، وهو مسجد متسع ، له منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن ، لكنه لصحة موضعه ، لا يخشى سقوطه وهو قريب من القصبة التى كان بها المبنى المعروفة بالعروسين الذي لا يرى مثله ظرفا وحسنا ، وقد استولى عليه الخراب فى زمنه وينسب بناؤه الى رشيد بن مدافع بن جامع من بني جامع الهلاليين الذين كان لهم امر قابس ، في النصف الثاني من القرن 5 هـ ، يذكر اليعقوبي والبكري ان سكانها اخلاط من العرب والعجم والبربر (18) اما ضواحيها فيسكنها اخلاط من قبائل بربرية شتى تنتمي الى لواته ولماية ونفوسه ومزاتة وزواغه وزواره . كذلك بقايا الروم اما في عهد التجاني فتختفي تلك

11) البكري : ص 17 — 18
12) الادريسي : نزهة المشتاق . ص 106 — 107
13) العبدري : الرحلة ص 74 — 75
14) العبدري : ص — 237
15) التجاني : ص — 86 — 87
16) » : ص 88 — 87
17) » : ص — 84
18) اليعقوبي : بلدان ص 346 — 347 والبكري ص 85

الاسماء وتظهر اسماء جديدة كالنوائل واولاد عوف والوشاحيين من العرب تحتل ضواحي قابس .

فاذا اتجهنا شرقا ، نجد جزيرة جربة بينها وبين البر الكبير مجاز وهي معمورة اشتهرت بكثرة ا لذهب وتربية الماشية (19) وبها بساتين عدية وزيتون كثير وقد اصبحت هذه الغابة الكثيفة من الزيتون تمول كل افريقية بالزيت بعد خراب غابة الزيتون بافريقيةكما انها تشتمل على ثمار كثيرة وتفاحها مشهور يجلب منه الى البلاد (20 اي الى ا فريقية

اما ا لتجاني فيذكر انها ارض كثيرة المزارعذبة المشارع ، شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين كما يشيد بتفاحها الذي لا يوجد في جميع بقاع الارض ، له نظير ، لما يوجد بها منه ، صفاء وطيب مذاق وعطارة استشراق ، ورائحة توجد من المسافة المديدة والاميال العديدة ثم يشير الى ان شجر ا لتفاح كان كثيرا بالجزيرة قبل احتلالها من طر فالنصارى سنة 529 هـ ، فما ان جاء هؤلاء حتى اخذوا يتحفون به ملوكهم ، وكبارهم دون تعويض لاربابه فراى اهل الجزيرة ان غيره من الشجر انفع لهم فقطعا اكثره كما يشيد بانها اختصت بالاصواف على المحمودة الاوصاف التي ليس بافريقية ، لما ينسج من اثوابها ، نظير ، اما اهلها فهم من البربر الذين تلغب السمرة على الوانهم وكلامهم بالبربريةخاصهم وعامهم(22) ويتفق جل الرحالة ، على انهم اهل فتة وخروج من الطاعة ، غدارون لا تؤمن ناحيتهم ، مفسدون في السبر والبحر ، وهم خوارج ، واصحاب مذاهب ودية واهواء مضلة ، الا انهم مع ذلك ضيافون يطعمون الطعام ويندبون الى طعامهم ويسالمون الناس في اموالهم ، وفيهم عدالة بينة لمن نزل بهم (23)

وقد ا فتتحها رجال النرمندي ملك صقلية سنة 529 هـ ، ولكنهم ثاروا ضده سنة 548 هـ فغزاهم باسطول كثيف ، فاحتلها ثانية ورفع سبيلها الى صقلية على ما يبدو من رواية الادريسي واكثر مساكن اهلها اخصاص من النخيل ، يجعل كل واحد منهم في ارضه ، واحدا او اثنين او اكثر ثم يسكنه بعياله ، وليس بها بناء قائم الادور قليلة (24)

فاذا خرجنا من قابس واتجهنا الى الغرب ، تاركين الجادة العظمى التي تقود الى القيروان فاننا سنلتقي بطريقين تحفان بسبخة تاكرهت (شط الجريد) من الشمال والجنوب فاذا اتبعنا الطريق الجنوبية ندخل الحامة ، وهي المعروفة بحامة مطماطة ، للتفريق بينها وبين حامة توزر المعروفة بحامة البهاليل وحامة مطماطة (او حامة قابس كما نسميها اليوم) مدينة حاضرة ، كما يقول التجاني تحف بها غابة من النخيل وجميع مياهها شروبة ، وهي في غاية السخانة ، كان يحيط بها سور مرتفع شاهد التجاني بقاياه وبناء داخل البلدة في غاية الارتفاع وهم يتنافسون في ذلك ، وكانت بها قصبة يصف التجاني بقاياها بالضخامة اما الادريسي فلا يذكر من الحامة شيئا ، لعلها كانت قرية ضئيلة في عهده، ثم نمت شيئا فشيئا الى ان اصبحت قرية هامة في عهد التجاني .

ثم نسير في الحامة فندخل قرى صغيرة ،اهلة ، حتى نصل ارض نفزاوة : يذكر اليعقوبي ان المنطقة هي التي تمس نفزاوة ، فيقول : ومدائن نفزاوة عدة مدن فالمدينة العظمى ، التي ينزل بها العمال تسمى بشرة (25) بينما يذكر البكري مدينة نفزاوة ويصفها كما يصف مدينة لا كما يتكلم على منطقة ، اما الادريسي ، فمرة يذكر مدينة نفزاوة (26) واخرى يذكر بلاد نفزاوة (27) اما التجاني فيؤيد اليعقوبي بان نفزاوة اسم لمنطقة تشتمل على مدينتين هامتين وعدة قرى ، هاتين المدينتين طرة . وهي بلد بلا اسم وقرية بلا معنى ، وهي محفوفة بالنخيل ، وبها التمر المفضل على جميع البلاد ، وليس فيها ما تنظر اليه على الجملة ، غير العين المعروفة بعين طرة ، فان لها بركة ماء متسعة ، حسنة المنظر ، شارحة للنفس ، وثانيتهما بشري ويسميها اليعقوبي : بشرة ، اما البكري فلعله عني هذه المدينة ، حين اطلق اسم نفزاوة ، وبين طرة وبشري قرى كثيرة يعدد التجاني اهمها : كقرية كليكل ، وياسك ، وبني يوسف ويظهر ان مدينة بشري كانت في القرن الخامس ، زمن البكري ، اهم منها في القرن الثامن ، زمن التيجاني ، فالبكري يصفها بان لها سور صخر وطوب ، ولها ستة ابواب وبها جامع واسواق حافلة ، وهي على نهر كثير النخل والثمار وحواليها عيون كثيرة ، بينما يصفها التجاني بانها قرية اضخم من جميع ما قبلها من قرى نفزاوة ، وبخارجها عين تعرف بعين تاورغس ، اعظم اتساعا من عين طرة واقوى ماء الا ان في تلك حسنا ليس في هذه

تكثر مزارع النخيل وانواع الثمار في منطقة نفزاوة فيذكر التجاني أن بها سفرجلا قل في جميع البقاع ما يناظره او يقرب منه : طيب طعم وضخامة جرم وكثرة ماء ، وخلوص صفاء ، كذلك لهم صنف من اصناف الكمثرى بديع الشكل ، شهي الاكل ، قلما يوجد مثله طيبا

اما سكانها فيذكر اليعقوبي انهم خليط من الافارقة القدامى ومن البربر (28) بينما يذكر التجاني في زمنه انهم ينتمون الى قبيلة زغب العربية ، يحسن بي ان انبه الى نص اورده الادريسي ، يخلط فيه خلطا

---

19) البكري : ص 85
20) العبدري : الرحلة ص 2337
21) التجاني : الرحلة ص 122
22) الادريسي : نزهة المشتاق ص 127
23) الادريسي : نزهة المشتاق ص127
24) التجاني : ص 122
25) اليعقوبي : نزهة المشتاق ص 150
26) الادريسي : نزهة المشتاق ص 106
27) الادريسي : نزهة المشتاق ص 110
28) اليعقوبي : ص 350

شنيما ، لا ندري انتسبه للمؤلف نفسه ام لنساخه ، اذ انه يضع مدينة سبيطلة في منطقة نفزاوة في قوله : فلنرجع الان الى ذكر بلاد نفزاوة فنقول : ان مدينة سبيطلة كانت مدينة جرجيس ، ملك الروم الافارقة (29) كما يذكر الادريسي نفسه اسم مدينة في هذه المنطقة ، اهمل ذكرها جميع الرحالة وهي مدينة لوحقة فيقول : وفيما بين جبل نفوسة ومدينة نفزاوة ، مدينة لوحقة ، وتتصل بها غربيا مدينة بسكرة وبادس (يسميها البكري باديس) وكل هذه البلاد تتقارب في مقاديرها وصفاتها وفي متاجرها واسواقها (30)

تستمر الطريق من نفزاوة وهي طريق الحافة الجنوبية للسبخة التي تقود الى جنوب الجزائر والمغرب الاقصى ، وهي طريق صحراوية خطرة لكن الذي يريد ان يدخل واحات الجريد ، او بلاد قسطيلية كما يسميها الجغرافيون والرحالة العرب ، فلا بد له من ان يقطع تلك الملاحة العظمى التي عدها ابن فضل الله العمري من عجائب افريقية ، وبهذه السبخة طريق معلومة : اذا جاء عنها سائر هلك في ارض رخوة تشبه الصابون ويذكر البكري ان ادلاء تلك الطريق قوم من البربر ، يعرفون ببني موليت لان ظواعينهم هناك ويهتدى الى الطريق الصلبة باخشاب منصوبة ، وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممن لايعرفها، وفي وسط الطريق ، يوجد مكان صلب يستطيع الانسان ان يجلس فيه للاستراحة وهو جزيرة تسمى المنصوف ، فاذا خرجنا من السبخة ندخل في ارض قسطيلية ، وهي قطر كبير فيه مدن كثيرة قاعدتها توزر كلاها الله ، وهي المدينة السعيدة التي هلك عليها عدو الله.(31) يذكر اليعقوبي ان منطقة قسطيلية تتالف من اربعة مدن في ارض واسعة لها النخل والزيتون ، فالمدينة العظمى يقال لها توزر وبها ينزل العمال ، والثانية يقال لها الحامة (هكذا بالالف بينما التجاني يسميها الحمة والنسبة لها حمىء ويقول ان نسبة حامي بالالف شاذة) والثالثة تقيوس والرابعة نفطة وحول هذه المدن اربعة سباخ،(32) ومن الجغرافيين القدماء من ينسب مدينة قفصة الى قسطيلية اما الزاب جنوب الجزائر فقد ظل قرونا طويلة ملحقا بهذه المنطقة

يطلق المقدسي اسم قسطيلية على مدينة توزر ، ويصفها بانها نظيرة البصرة في الدنيا ، كما يشيد برخص اسعارها : حمل جمل تمر بدرهمين ، ولها نهر عظيم قد غاب في النخيل ولا تسال عن كثرة البساتين (33)

تمثل منطقة قسطيلية اهمية بالغة من الناحية الاستراحية ، لانها تسيطر على الممرات الصحراوية المضغوطة بين السبختين بالاضافة الى غناها وخصبها ووفرة خراجها اذ يذكر البكري انه بلغ مائتي الف دينار (34)

يصف البكري مدينة توزر – وهي قاعدة الاقليم – بانها مدينة كبيرة عليها سور مبني بالحجر والطوب ولها جامع محكم البناء ، واسواق كثيرة ، وحولها ارباض واسعة ، ءاهلة ، وهي مدينة حصينة لها اربعة ابواب ، (35) ويجد التجاني كثيرا من اهلها يسكنون في البساتين وان مباني الغابة اضخم من مباني داخل المدينة وبداخلها جامعان للخطبة (يذكر البكري واحدا فقط) وحمام واحد ومنتزه في موضع يسمى باب المنشر وهو من احسن المنتزهات ، لان مجتمع الماء هناك (لعل باب المنشر هو الذي كان يسمى زمن البكري : وادي الجمال) (36) يجتمع به القصارون فينشرون به الثياب الملونة والامتعة الموشية ، ما يعمه على كبره فيخيل للناظر انه روض تفتحت ازهاره ، واطردت انهاره وليس بتوزر احسن من هذا الموضع ، وهو خارج عن غابتها ، والغابة ملاصقة لسور المدينة وهي بذلك تحت حصانتها (37)

وتوزر كثيرة النخل والبساتين والثمار الا ان قصب السكر والموز لا يصلحان بها وهي اكثر بلاد افريقية تمرا ، حيث تصدر في اكثر الايام بعيرا موقرة تمرا وازيد ، كذلك لا يعلم في بلد مثل اترجها جلالة وحلاوة ، كما يروي البكري والتجاني (38) ويضيف الادريسي ان اكثر الفواكه بهما في حال معتدلة وبقولها كثيرة ، موجودة متناهية في الكثرة والجودة وماؤها غير طيب ، ولا مر،وسعرالطعام بهاالكثر الاوقات غال ، لانه يجلب اليها ، وزرع الحنطة والشعير بها قليل يسير (39) واهم ما يتعجب منه الرحالة في توزر ، توزيع المياه ، فهي من رمال كالدرمك رقة وبياضا ، تسمى عندهم سرش (راس العيون الان) وتصب في ثلاثة انهار ، تجتمع في منطقة تسمى وادي الجمال ، (هي التي اصبحت تسمى باب المنشر في عهد التجاني) وينقسم كل نهر من الانهار الثلاثة الى ستة جداول تتفرع من تلك الجداول ، سواقي لا تحصى كثرة ، تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل ، لا يزيد بعضها على بعض شيئا ، كل ساقية سعة شبرين وتتخلل هذه السواقي البساتين الكثيرة ، ويستعملون الاقداس ، (جمع قدس) لتوقيت السقي ، ويلزم سقي اليوم الكامل مائة واثنان وتسعون قدسا (40) هذا ما يذكره البكري ، اما التجاني فيضيف ان لهم على قسمتها ، امناء من ذوي الصلاح منهم ، يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف ، وامر مقرر مالوف (41)

---

29) الادريسي : ص 110
30) الادريسي : ص 106
31) الاستبصار : ص 155
32) اليعقوبي ص 150
33) المقدسي ص 26
34) البكري ص 49
35) البكري ص 48
336) البكري ص 48
37) التجاني ص 157 – 158
38) البكري ص 48 والتجاني ص 158
39) الادريسي ص 104
40) البكري ص 48 – 49
41) اليعقوبي البلدان ص 150 والتجاني ص 160

واهل قسطيلية قوم عجم من الروم القدماء ، والافارقة ، والبربر (42) حسب رواية اليعقوبي ويضيف التجاني انه سكنها قوم من العرب بعد الافتتاح ويذكر ان بقايا كنائس النصارى ، بقيت بها الى زمنه لكنها خربة لم يتصرف فيها وان المسلمين بنوا بازاء كل كنيسة مسجدا (43) كما يضيف انها ، في عهده ، لبني مرداس من العرب ، وهم فرع من بني جامع - حكام قابس - وهم اشهر عرب افريقيةقدما ورئاسة (44)

اما البربر الذين استوطنوا قسطيلية فهم : لواته وزواغة وكناسة كما نجد فرعا من زناته وقد اعتنق جلهم الاباضية التي جرت لهم المتاعب ، ومنهم من بقي على مسيحيته ، والى جانب الاباضيين والمسيحيين ، عاش ايضا جانب من السنيين المالكيين ، وكان قاضي قسطيلية السني المالكي ، يعين من القيروان ويتبع في احكامه ، المذهب المالكي طبعا ، ولا اعلم ان كان الاباضيون عينوا لهم ائمة من قبلهم كذلك انتشر المذهب المعتزلي بين قبيلتين كبيرتين من قبائل الجريد وهما : زناتة ومزاتة

يلوم بعض الجغرافيين والرحالة سكان الجنوب عامة ، على صفتين يتصفان بهما وهما : بيع فضلاتهم لتسميد بساتينهم واكل لحوم الكلاب اذ يروي صاحب الروض المعطار ، ان سكان توزر يبيعون فضلاتهم التي يجمعونها في خنادق ، لتسميد بساتينهم ولا يستعملون هذه الفضلات الا يابسة ، الامر الذي يدفعهم الى عدم الاغتسال في هذه الخنادق بل انهم ينتقلون بعد انتهاء العملية الى اقربمجرى مائي ، للاغتسال ، ويبني بعضهم مراحيضهم على قارعة الطريق ليستعملها عامة الناس ، لجمع اكبر كمية من السماد (45) لعل هذا يعود الى قلة وجود الماشية التي يجمع الناس فضلاتها - عادة - ويستعملونها للتسميد ، اما عن اكل لحم الكلاب فان جميع سكان جنوب شمال افريقية ياكلونه ، ويستطيبونه

حيث يروي البكري : ان اهل سجلماسة - جنوب المغرب الاقصى - يسمنون الكلاب وياكلونها كما في قفصة وقسطيلية (46) ولا اعلم اهل هذه العادة

اما نفطة فيذكر البكري انها كانت مبنية بالصخر - وهو مستغرب في بلاد الجريد وهي مدينة عامرة ءاهلة بها جامع ومساجد ، وحمامات كثيرة وهي كثيرة المياه السائحة وشرب جميع بلاد قسطيلية يوزن الا نفطة ، فان شربها جزاف (47) ويصفها الادريسي بانها مدينة متحضرة عامرة باهلها ، لها اسواق وتجارات ونخل وغلال ومياه جارية (48)

ويبدو ان جل اهلها كانوا اباضية، خاصة سكان مدينة درجين وهي قرية ملاصقة لها او غير بعيدة عنها على الاقل ، يذكر بعضهم انه كان بها ثمانية عشر الف مؤمن ، كما ارجح ان المذهب الشيعي كان منتشرا بنفطة ، حيث يروي القاضي النعمان ان تشيعهم كان على يد رجل من الدعاة اسمه ابو سفيان ، ارسله الامام ابو عبد الله جعفر بن محمد الملقب بالصادق الى افريقية سنة 145 هـ ، فاستقر بمدينة تالة ، واخذ يعلم الناس المذهب الشيعي ، وكان اهل نفطة يختلفون الى نواحي تالة لبيع تمورهم وشراء القمح وكانوا ياتونه ويسمعونمنه وياخذون عنه ، (49) بالاضافة الى انه كان بها سنيون مالكيون ، وليس ادل على ذلك أن سليمان بن عمران صاحب سحنون وقاضي افريقية بعده ، ولد بنفطة ولا يمكن ان يكون غير سني وربما يكون بدا دراسته الاولى بها على يد مشائخ من اهل السنة ، اما كتاب الاستبصار فيقول ان اهله ذوو يسار ، وهم من بقايا الروم (50) ص 156

وقد ازدهرت بها الدراسات المذهبية من جميع المعتقدات على ما يبدو ، الى جانب الدراسات اللغوية والادبية ، حتى بلغ الامر ببعضهم الى تسميتها الكوفة الصغرى (49) ويصف كتاب الاستبصار مدينة درجين بانها داخل بلاد الجريد وهي مدينة قديمة بقرب نفطة وفيها يصنع الكساء الدرجيني ، وهو يشبه السجلماسي في ثوبه ولونه ، ولكنه دونه في الجودة ، وبالقرب منه بلد سوف ، ولا يعرف خلفه عمران ولا حيوان ، الا جبال في رمل يصاد فيها الفتك الذي لا يوجد لجلده نظير في الدنيا (52) ص 159

ويتصل بتوزر بين الجنوب والشرق منها - حسب رواية الادريسي - مدينة الحامة ، وبينهما مرحلة صغيرة ، وبينما يعين الادريسي اتجاهها - خطأ - بالنسبة لتوزر ، ويخصص لها وصفا قصيرا فيقول : ان ماءها ليس بطيب ولكنه شروب قنع به اهلها ، وبها نخل كثير وتمر غزير (53) فان غيرهمن الرحالة يكتفي بذكرها فقط من بين مدن قسطيلية بينما نجد بعض التفصيلات الهامة يوردها صاحب الاستبصار فيقول : وتعرف اليوم بحامة بني بهلول ، وبنو بهلول من سادات بلاد قسطيلية ، بل هم اغنى من فيها وهم بقايا الروم الذين اسلموا على اموالهم ، وعندهم كرم كثير ، وبر بالاضياف ، وحرص على التضييف، وهو الذي رفع ذكرهم في تلك البلاد

وبهذه المدينة حصن يسمونه القصر وهو مختص ببني بهلول ، وحاشيتهم ، ولها ارباض واسعة تسكنها الناس ، وهي كثيرة التمر والزيتون وجميع الفواكه ومياه هذه المدينة حامة حارة وليس ببلاد الجريد اكثر منها عنبا ، ولا اطيب ، وشرابه اطيب من كل شراب واعطر، ويزعم اهلها انه يسرج به السراج

42) التجاني ص 157
43) التجاني ص 162
44) التجاني ص 163
45) القلقشندي ص 106 العمري مسالك (الترجمة الفرنسية) ص 106 تعليق رقم 1
46) البكري ص 148
47) البكري ص 74
48) الادريسي ص 105
49) القاضي النعمان افتتاح الدورة ص 55 ، 56 بيروت
50) الاستبصار ص 156
51) البكري ص 75
52) الاستبصار ص 159
53) الادريسي ص 104

كما يسرج بالزيت ، وفيهـا نوع من التمر يسمونه الخنفس ، وهو اسود اللون شديد الحلاوةكبير الحجم (54) ص 457 والغريب ان البكري لم يتكلم على تقيوس (دقاش الحالية) بينما يذكرها الرحالة الاخرون ، فابـن حوقل يصفها بانها مدينة وانهـا تشتمل على ثلاثة قصور ، اما المقدسي فيذكر انها مدينة القصور بـدون تعيين ، ويحدد الادريسي موقعهـا بين الحامة وقفصة ، لكنه يخطـيء في جعل المسافة بينها وبين الحامـة بعشرين ميلا ، (55) لكنه يشيـد بخصبها فينسب اليها انتاج الحناء والكمون والكرويـاء ، وبها نخـل وتمر حسن وجملة يقول طيبـة ناعمة (56) اما ابن فضل اللـه العمري ، فيذكر قربها من توزر ، وانها تشتمل على ثلاثة مجموعـات من النخيل ، وعلى مزارع واسعة للزيتـون ، (57) امـا الاستبصار فيقول انها اربع مدن متقاربة عليهـا أسوار يكـاد يكلم بعـض اهلهـا بعضها لتقاربها ثم يشيد بخصبهـا وانها اكثر بلاد الجريد زيتونـا وجباية (58)

فاذا انتقلنا الى قفصة التي تقع على الطريق الشمالية المحاذية لشط الجريد ، وهي طريق الحـدود البيزنطية (الليماس) التـي تمتد من قابس الى تبسة ، فاننا سنجـد موقعا استراتيجيا هاما ، منـذ العهود القديمة اذ تحتل منفذا بين سلسلتين من الجبال حصنته بهـا الطبيعة تحصينا منيعا ، لذا فـان مدينة قفصة تعتبر باب منطقـة قسطيلية

يذكر جل الرحالة ان هذه المدينة كانت تحت سيطرة القيروان والمهدية بعد ذلك ، عدا ابن حوقل الذي يقول انها ما تزال على مذهب الخـوارج في عهده ، يؤيده ياقوت بقوله : ان اهلها واهل قسطيلية والحامة ونفطة وبلاد سماطة ؟ اهل بدعة مخالفـون للسلطان (59) وينفرد الادريسـي بحقيقة نادرة ، وهي ان ا هل قفصة متبربرون ، واكثرهم يتكلمـون باللسان اللاطيني الافريقي (60) في عهده

يصفها اليعقوبي بانها مدينـة حصينة عليها سور حجارة ، وداخلها عيـون مـاء كثيـرة ، وهـي مفروشة بالبلاط وحولها عمارة كثيرة وثمار موصوفة (61) اما البكـري فيقول : انها مبنيةعلى اساطيـن وطيقان رخام ، قد بني خلالهـا بالصخر الجليل باحكم عمل وينسب بنيان سورها الى شنتيان غـلام نمرود ويقول : ان اسمه منحـوت على السور الى يومه ، وهذا السور كانما قد فرغ من عمله بالامس فقط ويذكر صاحب كتاب الاستبصار انه كان به اربعة ابواب وقد هدمـه الخليفة ابو يوسف ـ لما خالفـوا عليه واتبعوا الميورقي ، بعد سنـة 581 هـ ، ولم يبق منه الا اساسـه وبرج بجوار برج ابن زواج شاهـدا على عتاقة بنيانها وعظم شانها (62) وداخل مدينة قفصة عينان نضاختان من نهرين خرارين يسقيان بساتينها ومزارعها ، وفي داخل جامعها عيـن مبنية بالصخر منبنيان الاول اربعون باعا في مثلها (63) وحولها عمـارة كبيرة ، وثمار موصوفة ، منذ زمن اليعقوبي ، اما البكري ، فيضيف ان حواليها اكثر من مائتي قرية عامرة واهلة تطرد فيها وحواليها الميـاه تعرف بقصور قفصة ، وهي اكثر من بلاد القيروان فستقها ومنها ينتشر بافريقية ويحمل الى مصر والاندلس وسجلماسة وبها تمر مثل بيـض الحمام وهي تمير القيروان بانـواع الفواكـه والثمار ، وجبايتهـا زمن البكري خمسون الف دينار (65) اما الاندلسي فيصفها بانها مدينة حسنة ذات سور ونهر جار ماؤه اطيب مـن ماء قسطيلية ، ولها في وسطهـا العين المسماة بالطرميذ ، ولهـا اسواق عـامـرة ومتـاجر كثيرة وصناعات قائمة ويطيف بها نخـل كثير يشتمل على ضروب من التمر العجيب ، ولها جمل جنات وبساتين وقصور قائمة معمورة ، يزرع بهـا غلات الحناء ، والقطن ، والكمون(65) والغريب ان الادريسي لا يذكـر زراعة الفستـق الـذي اشاد بـه البكري وذكر انه من أهم صادرات قفصة ويضيف ابن فضل اللهالعمري ان الزيتون كان يحتل منطقة واسعة من اراضيها الى جانب النخيل حتى

انه يصفها بذات النخيل (66) ويقول انها ايضا كانت تصدر زيوت البنفسج وخل البصل البري (الوحشـي) وجلود الظباء التي يصنع منها نعال في غاية الليونة حتى اصبحت تعرف باسم قفصة (67)، ولعل اجمل وصف واكمله لهذه المدينة ما يورده كتاب الاستبصـار (القرن 6 هـ/12م) اذ يقول : ولمدينة قفصة غابة كبيرة قد احاطت بهامن كل ناحية مثل الاكليل، في تكسير دائرتها نحو عشرة اميال، فيها من المنازل التي تعرف بالقـرى 18 منزلا ، وعلى الغابة والبنيـان والكل حائط يسمونه سور الغابة ، وفي ذلك السور ابواب عظام عليهـا ابراج مسكونة يسمون تلك الابـواب «الدروب»

وغابـة قفصة كثيرة النخلوالزيتون وجميع الفواكه ، التي ليس في بلد مثلها ، فيها تفاحعجيب زكي الرائحة يسمونه السدسي ، ولا يوجد فـي بلد مثله وكذلك الرمان والاتـرج والموز لا يوجد في بلد وفيها نوع من التمر يسمونه بالكسبا ، ليس مثله في بلد وهو اكثر تمرهم يكون فـي الثمرة الواحدة فتراه في جرم بيـض الدجاج ، تكاد تنفذها ببصرك لصفاء لونها ورقة بشرتها ، وهم يجعلونـه في ازيار فاذا اخرجوه منها بقي في قعر الزير منها عسل الـذ من عسل النحل ، واعطر ، وهم يصرفونه فـي طعامهم ، كما يصرف العسل عندنا وتعمل منه الحلاوات

---

54) الاستبصار ص 157
55) الادريسي ص 104
56) نفس المصدر والصفحة
57) العمري ص 106 ـ 107 بالفرنسية
58) الاستبصار ص 156
59) ياقوت الحموي : معجم 3 ص 151 والعمري : مسالك (ترجمة) ص 256
60) الادريسي ص 105
61) اليعقوبي ص 349
62) الاستبصار ص 151 ـ 152
63) البكري ص 47
64) البكري ص 47
65) الادريسي ص 104 ـ 105
66) العمري ص 106ـ107 (بالفرنسية)
67) نفس المصدر والصفحة

وقفصة اكثر البلاد فستقا ، حتى انني اظن انه ليس بافريقية فستق الا فيها ، ومنها يجلب الى افريقية وبلاد المغرب وبلاد الاندلس وبلاد مصر ، فان الذي يجلب من بلاد الشام صغيرة الجرم ليس مثل قفصى يكاد يكون في جرم اللوز ، ثم يتكلم على انواع الورد والرياحين التي تزرع بقفصة ويشيد بكثرتها وجمالها. ويصنع بقفصة اردية وطيالس وعمائم من صوف في نهاية الرقة ، وتصنع بها كذلك اوان ملساء من الخزف تعرف بالريحية شديدة البياض والرقة ليس يعرف لها نظير في جميع البلاد ويصنع بها زجاج حسن واوان عجيبة مذهبة غريبة ، وهي حاضرة في جميع امورها ، واهلها ذوو يسار وفيهم خير كثير ولهم صدقات ويذكر انه ليس بافريقية حريم اجمل من حريم قفصة مع ملاحة اخلاقهن ورخامة منطقهن (68)

وقد كانت مدينة قفصة مركزا والبلاد بها دائرة (69) اذ يتصل بها من جهة الغرب ومع الجنوب مدينة قاصرة وهي مدينة مذكورة ومدينة بيلقان وقد خربها العرب على عهد واستولوا على منافعها وعلى جميع ارضها وقد كانت كثيرة المياه (70) اما الى الشرق فتجاورها مدينة نقاوس ومدينة جموس ، وهذه البلاد كلها تتقارب في حالاتها وتتدانى في صفاتها ونخيلها وغلاتها ، ومياهها والحنطة بها دائما قليلة لانها في الاغلب تجلب اليها (71) اما جهة الشمال فنجد مدينة طراق التي يذكر البكري ، انها تقع على طريق قفصة — القيروان وهي كبيرة ءاهلة بها جامع واسواق حافلة واليها ينسب الكساء الطراقي وهو منجهاز مصر وهي كثيرة الفستق (72) اما كتاب الاستبصار فيقول : وكانت ، مدينة قفصة اعظم بلاد افريقية نظرا : كان حولها نحو 200 قصر ءاهلة عامرة ، فيها الاشجار والنخيل والزيتون والفستق وجميع الثمار وفيها العيون والانهار والابار وتسمى قصور قفصة — ثم يستطرد « وكانت القوافل اذا خطرت بين هذه القصور تكم ابلها ودوابها لئلا ترعى ورق الشجر لكثرته على الطريق وهي خربة لا انس بها من وقت دخلت العرب بلاد افريقية ، وافسدت بلاد القيروان وغيرها من البلاد والقرى والعمائر وكثيرا من المدن بافريقية ، (73) ولم ارد ذكر صفاقس عن قصد لان هذه المدينة تستدعي بحثا خاصا بها ، كما اني لم اشر الى مدن اقصى الجنوب . خوف التطويل بل ءاثرت ان اذكر المهم من المدن والقرى فقط اذ ان كل هذا سيصدر في كتابي الذي اشرت اليه حول المدن الافريقية

---

68) الاستبصار ص 153 — 154

69) الادريسي ص 105

70) الادريسي ص 105

71) الادريسي ص 105

72) البكري ص 47

73) الاستبصار ص 153 — 154



تطوّر علم الضّوء

أحمد الشرفي

« ... فقد تبين ان ما يوجد بالاعتبار من رؤية الكواكب يدل دليلا برهانيا على ان ادراك البصر للكواكب انما هو بالانعطاف وان جسم الهواء أغلظ من جسم السماء وان جسم السماء أصفى وأشد شفيفا من جسم الهواء . وليس في الوجود جسم مشف ألطف من الهواء،من ورائه مبصرات يدركها البصر غير جسم السماء . وليس ينفصل عن جسم الهواء بسطح يفصل أحدهما عن الاخر . وانما الهواء كلما قرب من السماء لَطُف . فاللطافة انما هي على تدريج من غِلظ الى لطافة،لا من فصل محدود » .

ـ الحسن ابن الهيثم ـ

يدرك الانسان الكائنات بالعين أو بالاذن أو بالانف أو باللسان أو باللمس وتمثل هذه الحواس الخمسة منافذ المخ على المحيط الخارجي الذي يستقبل المعلومات عن طريق الاعصاب ويجري عليها التحليل والتركيب والتجريد والتعميم وادراك العلاقات . وكل ما يدرك عن طريق العين يسمى بعلم الضوء أو المناظر أو البصريات .

لقد كان عقل الانسان في الحضارات القديمة يعتبر الرؤيا خروج سائل من العين يكتشف وجود الكائنات أو خروج شعاع ضوئي منها يتحسس به تلك الموجودات حتى جاء ابن الهيثم بانقلاب ثوري في التفكير العلمي ، فاعتبر أن للضوء وجودا في ذاته مستقلا عن وجود البصر ، وان الابصار يكون به ، وبذلك قلب المفهوم القديم وأنشا علما جديدا مبنيا على الاستقراء والقياس والاعتماد على المشاهدة والتجربة والتمثيل ، فوصل الى نتائج ما زالت معتمدة حتى الان في علم الضوء الهندسي الموجي من انعكاس وانكسار وانعراج (1) .

وقد اكتشف ابن الهيثم ايضا بواسطة تجارب ضوئية أن الارض محاطة بطبقة من الهواء تتناقص كثافتها تدريجيا بالارتفاع وهي محدودة البعد ومعينة المسافة وبهذا كان بدون منازع رائد علم الفضاء . (2)

(1) قد برهنت عليها وحققتها ودحضت اسنادها للعالم ديكارت في العدد ـ 3 ـ من مجلة العلم وقد نقل المعهد التربوي الجزائري هذا البحث بكامله في كتاب الضوء المقرر للسنة السادسة ، شعبة العلوم من التعليم الثانوي .

(2) نشرت هذا البحث ايضا في مجلة العلم ونقلته بكامله مجلة الهلال المصرية في ديسمبر 1972 .

كما أن ابن الهيثم وضع الاسس التي قامت عليها الثورة العلمية الحديثة في مفهوم الموجة والكم والسرعة .

1) مفهوم الامواج :

ينتشر الضوء في وسط متجانس حسب خطوط مستقيمة واذا نفذ من خلال ثقب قطره لا يقل عن حد معين تكون البقعة الضوئية المرتسمة على شاشة مساحتها مساوية لمساحة الثقب ، اما اذا تناقص القطر عن ذلك الحد فان الحزمة الضوئية تنعرج وتصبح مساحة البقعة اكبر بكثير من مساحة الثقب . ولم تفسر هذه الحادثة الا في القرن التاسع عشر من طرف العالمين يونغ وفرينال بوضعهما فرضية الامواج عند ما لاحظا حادثة التداخل . ونظرا للتشابه بين حادثة التداخل الضوئي وحادثة تداخل الحركات الاهتزازية الميكانيكية ، وضعت الفرضية الاهتزازية للضوء .

2) مفهوم الكم الضوئي أو الفوتون :

شبه ابن الهيثم حركة الضوء المنعكس على سطح عاكس بحركة كرة صغيرة تقع على سطح جسم فترتد عنه . مستعينا في دراسته بالمنطق والتجربة الحسية بالمقارنة لان حركة الضوء لا يدركها الحس .

وظلت فرضية يونغ فرينال الموجية سائدة وفرضية الكراة الصغيرة لابن الهيثم مهملة وغير مدركة حتى عام 1891 عند ما لاحظ ج. ج. طمسن ان صفيحة من التوتيا تصدر كهارب عند اضاءتها بضوء غني بالاشعة فوق البنفسجية وتعرف هذه الحادثة بالاثر الكهرضوئي - ولتفسير هذه الحادثة فرض العالم انشتاين عام 1905 ان الضوء لا يستطيع انتزاع الكهارب الا اذا كانت طاقته متجمعة في كريات صغيرة معدومة الكتلة سماها بالفوتونات - وتتناسب تلك الطاقة مع تواتر الضوء - فاوجد بهذه النظرية العلاقة بين الفرضية الموجية والفرضية الحبيبية للضوء .

وقد احدثت هاتان الفرضيتان تناقضا حادا في عقول العلماء فتارة يفسرون الضوء بأمواج مهتزة في حوادث التداخل وتارة اخرى بحبيبات كروية معدومة الكتلة في حوادث التاثير الكهر ضوئي حتى عام 1925 عندما اثبت الفيزيائي « لوي دى بروي » ان الظاهرة الاهتزازية والظاهرة الحبيبية ما هما الا تشخيصان متكاملان لحادثة فيزيائية واحدة فاوجد نظرية تقرن كل موجة ضوئية بحبيبة ضوئية وتربط كل جسيم مادي كبير السرعة بموجة اهتزازية . وقام بتحقيق هذه النظرية تجريبيا كل من دافيسون وجيرمار عام 1927 وطمسن عام 1928 وذلك بارسال حزم الكهارب متحدة في السرعة على شبكة بللورية من النيكال ولاحظوا جميعا انعراج الكهارب المادية مثلما وقع في انعراج اشعة الضوء عن خطها المستقيم .

3) مفهوم السرعة الضوئية :

كانت تعتبر سرعة الضوء لا نهائية وانه لا يستغرق في انتقاله من مكان الى آخر ايا كان البعد بينهما زمنا ما . اي ان زمن وصول الضوء من الشمس الى الارض يساوي صفرا . وكان هذا الاعتبار سائدا حتى القرن السابع عشر من طرف كيبلر وديكارت اللذين اخذا كثيرا من نظريات ابن الهيثم واسنداها لانفسهما ولكنهما عجزا عن ادراك ما قاله ابن الهيثم في القرن العاشر ميلادي من ان الضوء يستغرق في تحركه من مكان الى آخر زمانا محدودا وبذلك تكون سرعته محدودة . اذ يقول بلفظه في المقالة الثانية من المناظر : « **اذا كان الثقب مستترا ثم رفع الساتر فوصول الضوء من الثقب الى الجسم المقابل ليس يكون الا في زمان وان كان خفيا عن الحس** » .

ويشرح هذا الرأي بقوله : « لان وصول الضوء من الثقب الى الجسم المقابل للثقب ليس يخلو من أحد أمرين ، اما ان يكون الضوء يحصل في الجزء من الهواء الذي يلي الثقب قبل ان يحصل في الجزء الذي يليه ، ثم في الجزء الذي يليه ، ثم في الجزء الذي يلي ذلك الجزء من الهواء ، الى ان يصل الى الجسم المقابل للثقب . واما ان يكون الضوء يحصل في جميع الهواء المتوسط بين الثقب وبين الجسم المقابل للثقب ، وعلى الجسم نفسه المقابل للثقب دفعة واحدة ، ويكون جميع الهواء يقبل الضوء دفعة واحدة لا جزءا منه بعد جزء . **فان كان الهواء يقبل الضوء جزءا بعد جزء فالضوء انما يصل الى الجسم المقابل للثقب بحركة . والحركة ليست تكون الا في زمان وان كان الهواء يقبل الضوء دفعة واحدة فان حصول الضوء في الهواء بعد ان لم يكن فيه ضوء ، ليس يكون ايضا الا في زمان وان خفي عن الحس** » .

وعند ما اصبحت سرعة الضوء حقيقة ثابتة في القرن التاسع عشر وقع التفكير في صنع اجهزة قياس لهذه السرعة بطرق عدة اذكر اهمها :

1 - طريقة « فوكو » التي اعطت نتيجة لسرعة الضوء في الهواء 298000 كلم / الثانية .

2 - طريقة « مايكلوسون » التي اعطت نتيجة لسرعة الضوء في الهواء 299853 كلم / ثانية .

3 - طريقة « نيوكومب » التي اعطت نتيجة لسرعة الضوء في الهواء 299860 كلم / ثانية .

وبهذا تكون سرعة الضوء في الفراغ 300.000 كلم / ثانية .

وهذه المفاهيم الثلاث (الموجة والكم والسرعة) من العناصر الاساسية التي قامت عليها الثورة العلمية الحديثة التي نتمتع بخيراتها ان طبقت في الخير ونتحمل اوزارها والامها وشقاءها ان استعملت في الشر - **فالعلم خير عند الاخيار وشر عند الاشرار .**

احمد الشرقي



صالح المهدي

السياسة والوطنية في الموسيقى العربية

انه من الصعب جدا ان نميز بين الانتاج الموسيقي الخالى من الكلمات الذي يعبر عنه في الكتب القديمة « بالموسيقى المحضة » او « الفارغات » ويسميه بعضهم الان موسيقى صامتة (غلطا) وبين الغناء فى شتى اغراضه ومشاربه .

ويعسر على المتصفح للتراث الموسيقى العربى ان يجد أناشيد وطنية فى اي عصر من العصور قبل التقسيم الذي ادخله الاستعمار على وطننا العربي ليصنع منه كتلات صغيرة سهلة الاستثمار والذوبان في الثقافات الغربية عنها .

والمعروف من اغانينا انها لم تتناول سوى الخمريات والغزل وشيء من الوصف فى اسلوب يبعث على الخنوع والضعف والاستسلام فهذا الشيخ الصفتي يسجل :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل
ففي حبه يحلو التهتك والذل

وهذا الشيخ **سلامة حجازي** الذي يعتبر من رواد المسرح الغنائي يسجل :

سمحت بارسال الدموع محاجري
لما تزايد في التجني هاجري

وهذا الشيخ **يوسف المنيلاوي** يسجل بدوره :

الله يعلم ان النفس قد هلكت
باليأس منك ولكني أمنيها

وهذا الموشح الاندلسي الذي يغنى حتى الان يقول :

جا زمن الربيع
ثيابك ارهن وبيع

فالامثلة عديدة لهذه المعاني التي لا تخلو من طرافة وجمال ورقة حاشية ولكن انفرادها في البرامج الفنية دون سواها ينمي في الشباب الركود والاستسلام والتذلل وعدم الشعور بالمسؤولية .

وقد وجدنا فى كتب الادب والتاريخ امثلة عديدة للاغاني السياسية سواء للتنويه بالمعارك التى خاضتها الجيوش الاسلامية او لابراز مدنية معينة او لاعلاء شان قائد منتصر . ونسوق لذلك بعض الامثلة :

لعل من ابرز هذه الاغاني تلكم التي ارتبطت بشعور كل مسلم وهي التى استقبلت بها بنات النجار الرسول بمناسبة الهجرة عند وصوله للمكان المعروف **بثنية الوداع** من المدينة المنورة :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا
جئت بالامر المطاع

ومن الامثلة القديمة ما تغنت به فتيات قريش خلف المشركين المحاربين في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة تبعث فيهم الحماس وهذه الاغنية موروثة من **العهد الجاهلي** ومطلعها :

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
ان تقدموا نعانق
او تحجموا نفارق
فراق غير وامق

ثم ان كتاب الاغاني يحكي لنا عدة قصص لعبت فيها الاغنية دورا سياسيا هاما فهذا المغني طويس يوقد ما خمد من نار حرب **الاوس والخزرج** بالاغنية التى تختم بـ :

رد الخليط الجمال فانصرفوا
ماذا عليهم لو انهم وقفوا

فاجرى بينهم الدماء وخرج هو سالما من كل سوء .

وهذا **سائب خاثر** يستعمل لحن استاذه **نشيط الفارسي** في كلمات **حسان بن ثابت** في غنائه لغرض سياسي :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
واسيافنا يقطرن من نجدة دما

واحتلت الاغنية السياسية مكانة مرموقة عند انتصاب الدولة العباسية ونورد من بين امثلتها العديدة اغنية **ابراهيم الموصلي** لتهنئة **هارون الرشيد** بتوليه الحكم :

الم تر ان الشمس كانت مريضة
فلما ولي هارون أشرق نورها
فالبست الدنيا جمالا بوجهه
فهارون واليها ويحيى وزيرها

فأجازه الخليفة بجزيل العطايا رغم ضعف الشعر الملحن .

ومن الاغاني السياسية تلك التى بز بها **ابن جامع** زميليه **ابراهيم الموصلي** ومخارق وهى التى انشدها بين يدي الخليفة هارون الرشيد عند فتحه لهرقلة وتصف لنا السلاح الذي استعمل في هذه المناسبة :

كان نيراننا فى جنب قلعتهم
مصبغات على أرسان قصار
موت هرقلة لما ان رات عجبا
حوائما ترتمى بالنفط والنار

وبسقوط الدولة العباسية ظهرت بوادر الانهيار في السياسة واختار المغنون البعد عن الاغاني السياسية اذ لو تناولوها لاضطروا الى مدح الحكام الاجانب الذين اصبح العديد من البلدان العربية تحت سلطتهم والغناء تعبير صادق لا يمكن ان يصدر الا من اعماق القلب .

وبمراجعتنا للتساجيل القديمة لم نجد فيها سوى بعض القطع التى تمت للسياسة بصلة . منها ما سجلته **شركة بيضافون** للمطرب **المر** :

يا بلادي يا بلادي
يا ضيا البلدان
كل حب في فؤادي
موقد النيران

الى ان يقول :

يا جبالي ووهادي
مرتع الغزلان
انت فوزي في جهادي
انت دين ثان

ومنها ايضا نشيد البرلمان للمطرب المصري الكبير المرحوم الشيخ **يوسف المنيلاوي** الذي سجلته **شركة قرامفون** :

وطني انا بالروح افديه
حب الوطن ده من الايمان
تعيش مصر حره
تعيش مستقله يحي الملك
يعيش سعد باشا يحي الوطن
البرلمان للمجد سبيل
ما يسلكه غير كل همام
شرب الوفاء من ماء النيل

ومنها ما سجله الموسيقار العراقى **محمد القبنجي** من نقد للحالة السياسية فى شركة **بيضفون** **كبيت الرصافي** :

عبيد للاجنب هم ولكن
على ابناء جلدتهم أسود
بلد يزاحمني الغريب بوصله
والاهل أهلي والبلاد بلادي

وبعد الحركات الاصلاحية وانطلاق الشعب العربي من سباته ودخوله في الحركات التحريرية بدات

نهضة طيبة فى انتاج الاناشيد الوطنية والاغانى السياسية سواء بالعربية الفصحى او باللهجات العامية وقد تعثر الملحنون في الخطوات الاولى اذ ظهر في العديد من هذه القطع شيء من ميوعة التلحين جعلنا نكاد لا نفرق بين تلحينها وتلحين الاغانى الغزلية من حيث ادخال جو الطرب عليها .

والطور الثانى من تلحين الاناشيد الوطنية والاغانى السياسية كان مجرد تقليد لموسيقى المسيرات الاوروبية بحيث اقتصر الموسيقيون فى هذا الانتاج على مقامى الكبير والصغير Majeur et Mineur اللذين اختصت بهما الموسيقى الغربية وتسربت هذه العاهة الى الاناشيد المدرسية وصار بعض المشرفين على التربية الموسيقية يعتقدون انه لا يجوز ولا يمكن تلحين الاناشيد على غير هذين المقامين وعلى ايقاع غير ايقاع الخطوة وكدنا بهذا المركب الذي اصاب الوسط الفني نفقد شخصيتنا العربية وندمج جيلنا الصاعد في ثقافة غير ثقافته فنجعل منه عنصرا متنكرا لشخصيته قاطعا الصلة مع الجيل الذي سبقه !

وهو بذلك معذور لانه يشعر بضرورة التخلص من الركود والميوعة التى تسلطت حتى على بعض الاناشيد الوطنية الرسمية (مثل النشيد الرسمى التونسي قبل الاستقلال) ولا يجد امامه الا بابا واحدا يرميه فى هوة اكثر خطورة

وقد خدمت الظروف السياسية العسيرة بواسطة الاحزاب ومنظمات الشباب المختلفة وخاصة الاذاعات قضية النشيد فسخر العدد الكبير من الملحنين الذين يجندون لكل مناسبة حرجة فتوضع الابواق على ذمتهم للاصداع باصواتهم المدوية فى قوالب موسيقية مختلفة . وهكذا طلع فجر جديد للتلحين الحماسي طبقت فيه المقامات والايقاعات العربية . فهى بداية طيبة علينا بمواصلتها وتوسيعها للأغاني المدرسية واغانى مختلف هيئات العمال والشباب .

ويجدر بنا قبل طرق باب الموسيقى السياسية ان نتعرض لبعض الاناشيد التى اشتهرت فى بعض الاقطار العربية على سبيل المثال .

لقد تبنى الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد سنة 1934 نشيد **مصطفى صادق الرافعي** وجعله رفيقه فى الكفاح الى الاستقلال وهو يتقد من ناره لمواصلة الجهاد الاكبر :

حماة الحمى يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الوطن
لقد صرخت فى العروق الدما
نموت نموت ويحي الوطن

وبمناسبة عودة الرئيس الحبيب بورقيبة مظفرا من فرنسا يوم غرة جوان 1955 اضيف لهذا النشيد بيتان من قصيد أبي القاسم الشابي :

اذا الشعب يوما اراد الحياة
فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي
ولا بد للقيد ان ينكسر

كما اعتمد طلبة شمال افريقيا عند تأسيسهم للمكتب الموحد بين المغرب والجزائر وتونس بباريس على نشيد من الحان **الشيخ سيد الدرويش** من رواية (كليوباترا) (حيوا روما) فابقوا على اللحن وغيروا الكلمات التى صارت :

حيوا افريقيا
حيوا افريقيا يا عباد
شمالها يبغي الاتحاد
اشبالها تابى الاضطهاد

وظهرت عدة اناشيد في كل قطر عربي نذكر منها نماذج من تونس : نشيد العروبة من تأليف الشيخ الطاهر القصار (بمناسبة تأسيس **جامعة الدول العربية**)

يا عرب يا عرب
يا كرام النسب
انتم للغلب
والحجى والادب
يا عرب

وغيره **لاحمد خير الدين** :

يا شبابا قد تسامى
نحو ادراك المعالي
كسر القيد وسارع
باتحاد للنضال

واخر **لسعيد ابى بكر** :

هيا للميدان يا جيل الشباب
نسعى لاسعاد هذا الوطن
نمشي للعلياء فى نهج الصواب
فى ظلام الليل او فى العلن

والنشيدان الاخيران لحنا سنة 1942 في نطاق الشبيبة الدستورية بالمرسى .

ومن نماذج **الاغانى الشعبية السياسية** نورد اغنية المراة التى تخاطب زوجها الحداد **ايام الثورة** فتقول :

حس الراديو يا حداد
واسمع ما قالو الاولاد
حله بالصيبه
وخبرني عل سي بورقيبه
قالو روح بعد الغيبة
وان شاء الله يجلي الانكاد

والناحية الاخرى من الموسيقى السياسية تتمثل في **فرق العزف** التى تدعم هيبة الحكم وتبعث الحماس فى الجيوش واكتست بذلك طابعا عسكريا بحتا . واذا ما ربطنا بين ما جاء فى **مقدمة ابن خلدون** من تحاشى الجيوش الاسلامية فى عهودها الاولى استعمال الطبول وبين ما يذكره **ابو الفرج الاصفهاني** من ظهور النوبة العسكرية فى العصر العباسي الثالث يمكننا الجزم بانها اخذت مكانتها الرسمية فى هذا العصر الاخير .

وقد سميت بالنوبة لقيامها بالعزف اثناء فترات معينة من اليوم امام دار الخلافة فيقال هذه نوبة الصباح وهذه نوبة العصر ؟

وقد كانت متركبة من خمسة عازفين وخاصة بمراسم الخلافة ثم منحها **الطائع** فى القرن الرابع

الهجري ـ العاشر ميلادي ، لوزرائه وجعلها تتركب من ثلاثة عازفين فقط .

ثم تفتح الخليفة القادر وسمح ان تكون خماسية لوزرائه وللسلاطين باعتبارهم يمثلون الخليفة في مناطقهم ولكن تصبح ثلاثية عند ما تعزف لهم بعاصمة الخلافة .

والمعروف ان هذه الموسيقى استعملت **في الاندلس وفي المغرب** العربي حيث يذكر **المقري** عزف الابواق للخلفاء واحتفاظ الموحدين بالطبول للولاة كما يذكر **ابن خلدون** اندماج الموسيقيين العسكريين مع حاملي اللواء في الجيش الاسلامي .

وقد تطورت هذه الموسيقى بتطور الجيوش الاسلامية ودخلت الاقطار التي فتحتها هذه الجيوش **الى ان دخلت اوروبا بواسطة « الطبلة خانة او طبل الباشا »** التي رافقت الجيش العثماني وخلفت اثرها هنالك سواء في المقامات او الايقاعات او حتى الالات حيث اخذت **الزرنة** عن هذه الفرق وبقيت مستعملة حتى الان **في البلقان** وطورتها الاقطار الاوروبية الاخرى واخرجت منها الالة المعروفة « **بالاوبرا** » التي تمكنت من الدخول في الاركستر السنفوني .

وبعد النهضة العسكرية في مختلف الاقطار العربية أسست فرق موسيقية على الطريقة الغربية زاحمت طبل الباشا ثم احتلت مكانه . **وفي تونس تاسست الموسيقى النحاسية في نطاق مدرسة باردو الحربية على عهد المشير احمد باشا الاول وتكون جمع من الضباط التونسيين انجزوا اول مخطوط عربي مرقوم بالنوطة الموسيقية تناولوا فيه قواعد العزف على مختلف الالات وقواعد الطبوع (المقامات) مدعمة بنماذج من البشارف والمالوف وهي من مدخرات الرشيدية** . وانطلقت هذه الفرق في المشرق والمغرب تعزف قطعا من التراث التقليدي عن غير روية حيث عزفت المقامات التي تلائمها والتي لا يمكن لها اداؤها بحار مسيئة الى هذا التراث والى الذوق الفني لدى الجماهير بواسطة الفرق الصغيرة العديدة التي اسست على غرارها والتي اصبحت في الكثير من البلدان **تعمل في حفلات الزفاف والختان** ويوجد منها نحو الثمانين فرقة بتونس .

وقام جمع من المؤلفين الموسيقيين بانتاج قطع خاصة لهذه الفرق ، اغلبها في شكل مسيرات وراعوا فيها امكانية الالات المستعملة وادخلوا عليها شيئا من توافق الاصوات بقدر لا يغير من الطابع العربي .

علينا الان بمواصلة الجهد في هذا الميدان بانتاج عدد كبير من القطع الخاصة به مع العمل على تنويعها حتى يصبح لهذه الفرق المعروفة الان **بالنحاسية** برنامج مستقل عن الفرق الوترية ويمكننا ان ننتقي لها قطعا من التراث من المقامات التي لا تشتمل الا على الدرجات وانصافها ليصبح لها اداؤها لها ممكنا .

هذه لمحة عابرة عن النشيد الوطني والاغنية والموسيقى السياسيه في البلاد العربية . ويظهر انه لا يكفي ان تكون لنا فرق للموسيقى النحاسية واناشيد وطنية يرتبط اغلبها بمناسبات يسجلها المطربون والفرق وينزعونها في باب الاستوديو كما ان الجمهور اذا ما بث له هذه القطع يتحول في الغالب بجهازه الى اذاعات اخرى للبحث عن الغذاء الفني الذي تعود به واصبح لا يقبل سواه .

ان جمهورنا ميال الى الغناء دون الموسيقى وفي ذلك يبحث عن كلمات وموسيقى ارتبطت بوجدانه واحساسه الذي ورثه عن الاجداد . وقد تعودنا الاستماع الى الاغاني ولا نحكم عليها الا بمدى اقترابها من التراث القديم او بما ارتبطت به لدينا بذكريات الشباب وهكذا نجد كل جيل منا ميالا الى القطع التي استمع اليها في شبابه وينتقد موسيقى الجيل الصاعد ويعتبرها مخالفة للذوق السليم ؟

وفي رأيي ان احسن تعبير عن هذه الظاهرة الخطيرة هو تسمية التراث التقليدي في تونس «بالمالوف» فنحن جميعا ميالون للمالوف وما عدا ذلك نعتبره خطأ لا وزن له ولا قيمة .

فمستمع العربي اذا ما عرضت عليه قطع في تراكيب غير مالوفة لديه يرميها بالخطأ والنشاز بينما المستمع الغربي يجيب في هذا الحال بانه لم يتوصل الى فهم ما عرض عليه وفي ذلك اعتراف بنقصه واعتبار للمنتج المجدد .

علينا حينئذ بتربية ذوق الشباب على اساس يتفتح به على كل تجديد مع الحفاظ على تقاليده واصالته والكثير من الشعوب الغربية اجتمعت فيهم النزعتان معا ولم يمس ذلك من تقدمهم العلمي والفني والاجتماعي .

ففي وجود هذين النزعتين ضمان للحفاظ على الشخصية وللتطلع لما يتماشى مع ناموس التطور .

ان مجهودا كبيرا يبذل في اغلب الاذاعات لتغيير مواضيع الاغاني . فهذه تركزت على التعريف بالبلدان والاخرى على حب الوالدين والثالثة على الانتاج الصناعي ... الخ ... فهو عمل مهم جدا ولكن **لا بد من تعزيزه بانتاج موسيقي خال من الكلمات يتركز على الوصف او ابراز براعة العازفين ندخله في برامج الاذاعات وتخصص له مكانا مناسبا في الحفلات العمومية يتوسع شيئا فشيئا الى ان نفرد لهذه القطع حفلات خاصة ليتعود الجمهور على استعمال العقل عند استماعه للغناء والموسيقى ويرتفع بها من ان تكون مجرد موضوع للكاس والخلاعة .**

وبذلك يكون الموسيقيون قد ساهموا في بناء السلوك العربي الجديد الذي يحافظ على العاطفة التي نعتز بها وقد اخذت تتقلص من العالم الغربي بما ينذر بتفكك الاسرة ويولي جانبا هاما للعقل في تدبير الامور لاعطائها الوزن الذي تستحقه .



نحو تكتل عربي جديد

نعيش اليوم في عالم يتطور بسرعة هائلة جدا وبلدانه تتقارب وتتجمع على أسس جديدة غير تلك التي عرفت حتى قبيل السبعينيات من هذا القرن . وابرز ما يميز هذا التكتل نزوعه الى التغلب على مشاكل حضارية متشابهة ومشتركة بين عموم الاطراف المتقاربة أو التي تحاول التكتل . وللمرة الاولى تأخذ الفوارق الاقليمية والوطنية والعقائدية مكانا ثانيا في الاهمية . ويبدو كذلك وللمرة الاولى ايضا ان العالم متجه بكليته نحو تكتل اوسع هدفه المحافظة على استمرار بقاء الانسان على سطح هذه الكرة الارضية بعد ان ثبت ان الثورة الصناعية توشك ان تأتي على كل ما في باطن الارض من معادن وسوائل وقود وعلى سطح الارض تسببت في تلويث البيئة Pollution of environnent وتعكير صفاء الاجواء وان ما تنفثه المصانع من مواد ملوثة يهدد بتدمير السعة الامتصاصية Absoptive Capacity للاجواء (1).

لكن هذه الحضارة الصناعية التي لم تعمر بعد اكثر من قرن واحد ونصف القرن وان تكن اقصر الحضارات عمرا بالنسبة للحضارات السابقة التى عمرت آلاف السنين الا انها اعطت لانسان هذا العصر من التقدم والازدهار والمتعة ما لم تعطه جميع الحضارات الغابرة ، لا بل ما فتئت تفاجىء بني البشر كل يوم بما هو جديد وطريف مما ليس في امنياتهم ولا في احلامهم ولا هو في مستوى استيعاب الاكثرية الساحقة منهم : اذ ما عدد هؤلاء الذين يعرفون القواعد العلمية لتكوين الصورة التي نشاهدها متحركة حية على شاشة الاذاعة المرئية وكم عدد الذين يقدرون على مجرد تخيل سرعة مركبة ابولو البالغة 25 الف ميل في الساعة وهم لما يزالوا في حيرة واندهاش لسرعة السيارة ناهيك عن الطائرة . هذا من حيث الاستيعاب ، اما من حيث الاندهاش والمتعة فنحن لم ننس بعد ملايين الساهرين ليلا لرؤية ارمسترنج ARMSTRONG وهو يطأ بقدميه سطح القمر ، ولدينا مئات الملايين تتعلق ابصارهم بشاشة التلفزة في كل يوم وفي كل ليلة .

ومع كل ذلك مع الاعجاب والتقدير والاعتراف بعظمة كل هذه الانجازات الحضارية ـ برز الآن تساؤل هام : هل الانسانية في حاجة الى هذا التسارع في الاختراعات والاستهلاك لخيرات الارض ومن جهة اخرى هل هنالك توازن ما بين استنفاذ الموارد الطبيعية وبقية انواع الحياة الاخرى على سطح هذا الكوكب وهل ان هذا التوازن حاصل حتى بالنسبة لتطور انسانية الانسان ذاته باعتبار انه يمثل نوعا واحدا من بين عديد المخلوقات على ارضنا هذه . ان علماء الايكولوجيا Ecologists وهم العاكفون على دراسة البيئة وعلاقتها بالحياة النباتية والحيوانية لينذرون بتفكك ايكولوجي فيما لو استمرت الحال على هذا المنوال وليس في الآفاق ما يشير الى امكانية ايقاف هذه الاستمرارية .

في الماضي ـ وما بالعهد من قدم ـ كانت الحاجة هي ام الاختراع كما يقول المثل الدارج Need is the mother of invention وكانت هنالك فترة زمنية معقولة ما بين ظهور الاختراع واستيعابه والانتفاع به لصالح الانسان وفترة اخرى اطول تمر قبل بروز حاجة اخرى يعكف الانسان زمنا في شحذ قريحته للتوصل الى اختراع يسدها به . أما في الحضارة الصناعية العصرية فقد انعكست الآية تماما وصارت الاختراعات هي التي تولد الحاجة . يخترعون التلفزة فيصبح الناس بحاجة اليها . يخترعون القنبلة الهيدروجينية فيغرق العالم في انفاق معظم جهوده وامواله لاختراع سلاح يفوقها ويبطل مفعولها .

وغدا اذ يطورون وسائل السفر الى القمر سيجد كل ثري أو حتى كل متوسط الثراء ان زيارة القمر اصبحت شيئا ضروريا لصالحه . ناهيك عن مئات الاشياء التافهة كاللبان على سبيل المثال : فقد غزا افواه شبيبتنا او ربما من هم اكبر سنا لا في الشارع والبيت فحسب بل على مقاعد الدرس في المدرسة . فلا غرو اذن لو عكسنا المثل السابق ليصبح « ان الاختراع هو اب الحاجة »

---

(1) راجع ما كتبته في هذا الموضوع في مجلة الفكر التونسية ، عدد ديسمبر 1972 وعدد ماي 1973 .

Invention is the father of need مع تعمد استبدال كلمة الام بكلمة الاب لكون الرجل الاب كان هو المخترع الاول لسبب او لآخر ولكون انتساب الحاجة الى المرأة الام في العهود السابقة هو تعبير اقرب الى المعنى الانساني الى الصواب والى السمو .

ولو تعرضنا للنواحي الاجتماعية التي تاثرت بالحضارة العصرية لوجدنا ان هذه الحضارة اوجدت مجتمعا فريدا من نوعه بالنسبة للمجتمعات والحضارات السابقة ويطلقون عليهاسم المجتمع الصناعي وهو مجتمع لا يتسنى لنا اعطاء ملامحه بسهولة في هذا المقال نظرا لتشعب وتعقيدات حياته وطغيان التخصص التكنولوجي على كل نواحي حضارته ولكننا نورد لمحات بفقرات مما كتبه بعض مفكريه .

ففي عام 1962 صدر ديوان شعر ملحمي للشاعر الامريكي « ب. بكمنستر فولر » B. Buck mi inster Fuller يمجد الثورة الصناعيه الحالية ويتنبا لها بانقاذ الانسانية والسير بها الى عوالم لا حدود لها من الازدهار والمتعة والخلود ولا عجب في ذلك فالشاعر شب وترعرع في حقبة الفرحة الكبرى العارمة للنجاحات الباهرة التي حققتها الصناعة والتصنيع في الولايات المتحدة الامريكية . وديوانه قصة شعرية رائعة تروي تاريخ التصنيع باسلوب شعري مبتكر تمكن الشاعر فيه من السيطرة على ادق المصطلحات العلمية ويمضي به الايمان بالثورة الصناعية الى التنبؤ لها بالقضاء على كل ما عانته الانسانية سابقا من بؤس وبطالة وجهالة وقهر ومجاعات وربما حروب ثم يحلها منزلة ارقى الديانات :

« بصريح العبارة . التصنيع ديانة :
وهي الديانة الاولى القادرة على تخليدنا ..
لانها أول ديانة مبنية على الواقع ...
ليست كالديانات السابقة ...
التي خطبت ود الناس ليعتنقوها ...
عن وعي وطواعية .. بل انها افرغتهم (2)
ثم انتشلتهم الى اعاليها ... »

ولكن نبوءة الشاعر هي الآن امام تساؤل هام : اذ اننا منذ بداية السبعينات واواخر الستينات بدأنا نستمع للمجتمع الصناعي وهو يقرع ناقوس الخطر بشكل عنيف معلنا ان هنالك العديد من المخاطر اكتشف مؤخرا انها ناجمة ومتولدة عن الصناعة والتصنيع وفي اعلى القائمة من هذه الاخطار التي تهدد الانسانية جمعاء والكرة الارضية بأكملها – نجد التلوث واستنفاد الموارد الطبيعية وتزايد الاستهلاك والنسل ثم خضوع المجتمع الصناعي لنمط من العيش والتفكير أملته الحضارة الصناعية وسطرته الآلة بكل ما فيها من تعقيدات واوجدته التكنولوجيا باختصاصاتها المتعددة كواقع ملموس يتمثل في الجديد يوميا مما يسر الانسان ويفرحه .

هذا الخضوع الفكري الطوعي هو ظاهرة اجتماعية في العالم المصنع لم يسبق لها مثيل مطلقا من حيث ان المستبد هنا ليس فردا نتخلص منه ولا حكومة نستبدلها باخرى فيزول الاستبداد وانما المستبد الظالم هو النظام الاجتماعي الصناعي القائم الوجود والكيان والذي تنساب في جداوله الآلية كل الفئات البشرية وكل التناقضات وكل الاخطار والاخطاء . حتى ان الحكومة ذاتها في هذا المجتمع تخلت عن دورها السياسي التقليدي وانسابت بالجداول ذاتها وفي هذا الموضوع يكتب ، هربرت ماركوس » Herbert Marcuse استاذ الفلسفة في جامعة سان دييجو بكلفورنيا « ان الحكومة فى المجتمع الراقى صناعيا او السائر فى هذا الطريق لتقدر على البقاء وصيانة نفسها اذا نجحت فقط بتعبئة وتنظيم انتاجية العلوم والتقنية والآلة لصالح الحضارة الصناعية وهذه الانتاجية يخضع لها المجتمع ككل بقطع النظر عن المصلحة الفردية أو الجماعية – اي مجموعة من الافراد – والحقيقة الشرسة هي ان مقدرة الآلة المادية – وهي تفوق مقدرة الفرد او مجموعة من الافراد – تجعل منها – اي من الآلة – الاداة السياسية الاكثر فعالية في اي مجتمع بني نظامه عليها .

ان الحضارة الصناعية المعاصرة وصلت الى المرحلة التي تبدو فيها عبارة « المجتمع الحر » « لا معنى لها بالمفهوم التقليدي للحريات الاقتصادية والسياسية والفكرية ، لا لكون هذه الحريات فقدت اهميتها بل لان هذه الاهمية قد ازدادت بحيث لا يمكن تحديدها بالقوالب التقليدية . ونحن أحوج ما نكون الى قوالب فهم جديدة تمت بصلة الى قدرات المجتمع الجديدة كأن يصبح المعنى الجديد للحرية الاقتصادية التحرر من الاقتصاد ومن كل قيوده ، والحرية السياسية تحرر الافراد من السياسات التي لا سيطرة لهم عليها والحرية الفكرية استعادة الفرد لفكره الذي امتصته وسائل الاعلام والتثقيف الموجه ومن ثم الغاء ما يسمى بالرأي العام » مع صانعيه .

وفي موضع آخر يقول المؤلف : « لو حاولنا تقصي اسباب الخطر من خلال الاسلوب الذي ينتظم فيه المجتمع وينظم افراده لجابهتنا حقيقة كون المجتمع الراقي صناعيا يصبح اغنى واضخم واحسن حالا بقدر تهويله للاخطار المحدقة وبذلك يتسنى للجهاز الدفاعي القدرة والسيطرة على العدد الاوفر من الناس بتسهيل الحياة لهم وتوسيع

(2) عبارة « أفرغتم It has vacumized people يقصد بها الشاعر ان الثورة الصناعية ازالت من الناس اعتقاداتهم السابقة ص 177 – 178 من ديوان الشاعر : « شعر قصص بلا عنوان عن تاريخ التصنيع » .
Untitled epic poem on the history of industrialisation

سيطرتهم على الطبيعة وفي هذه الحال تصبح حاجات المجتمع السياسية هي حاجات وامنيات فردية يسهل تحقيقها فتسير الأعمال وتبدو الامور بشكلها الاجمالي وانما هي تجسيم للمعقول ومع ذلك فهذا المجتمع ككل هو مجتمع لا عقلاني IRRATIONAL لان انتاجيته تقضي على النمو الحر لحاجات وقدرات الانسان ، وسلامه يرتكز على مواصلة التهديد بالحرب . ونموه يعتمد على القمع وهو قمع لا مثيل له في السابق لكونه يتصرف من مركز قوة ومقدرة في السيطرة على الافراد لا حد لها . كما ان هذا المجتمع يتميز باخضاعه للقوى الاجتماعية الداخلية عن طريق التكنولوجيا لا عن طريق الارهاب وعن طريق الفعالية الهائلة لرفع مستوى الحياة (3) .

ان الوقت لم يحن بعد للحكم على الحضارة الصناعية السائدة حاليا والتنبوء بخلودها حسبما يرى الشاعر الامريكي FULLER « فولر » او بفشلها حسب رأي الفيلسوف « ماركوس » ولكن الارجح ان يوجد هناك تصحيح لمسيرتها سواء اكان ذلك على ايدي ابنائها او غيرهم .

فمن المؤلفات النيرة حول ازمة الصناعة والتصنيع ما اورده كل من ، باربره ورد Barbara Ward و « رينيه دبوس » René Dubos في تاليفهما المشترك عام 1972 واسمه « ارض واحدة فقط . كيف نعتني ونصون هذا الكوكب الصغير » .

وهذا المؤلف مستمد من اراء واستشارات ساهم فيها علماء وخبراء من 58 بلدا في القارات الخمس ومن العالم الرأسمالي والشيوعي والنامي . وقد اورد المؤلفان اسماء هؤلاء العلماء ومكانتهم العلمية وعناوينهم . وجاء التاليف على شكل تقرير قدمه السكرتير العام لمؤتمر هيئة الامم عن البيئة الانسانية عام 1971 .

وجاء في مقدمة هذا التقرير ما يلي :

« ينعقد هذا المؤتمر في احرج الظروف ، اذ بعد ان ملا الانسان الارض واستعمرها لا بد من تعليمه كيف يتصرف بها بحكمة لا بل من الواجب عليه تقبل مسؤولية خدمتها والاعتناء بها لا للحاضر فحسب وانما للاجيال القادمة . ان استنفاد الموارد الطبيعية هو بالطبع احد الاسباب الرئيسية للتخوف المتعلق باستمرار قدرة الارض على اعالة الحضارات الانسانية القادمة مما حدا باحد المستشارين من دولة اوروبية صناعية وثرية الى الجهر بالقول ان على الانسانية ان تقلع عن التصنيع وتركز جهودها على الافكار المؤدية الى التوصل الى طرق زراعية اكثر نجاعة وانتاجية ، غير ان فكرة الاقلاع عن التصنيع لم ترق بمستشاري تلك البلدان المتجهة نحو التصنيع املا في انقاذ شعوبها من الفقر .

وفي مثل هذه البلدان الفقيرة يرون الاخطار الكامنة وراء التصنيع ولكنهم يرونه ايضا الطريق الوحيد لرفع مستوى حياتهم ولذا يجب ان ينال حسب رأيهم الاولوية دونما اعتبار لمضار البيئة في المستقبل » .

لقد تعددت وتشعبت وتناقضت الاراء التي بدرت من العلماء والمستشارين ممن ساهموا في اصدار مؤلف « ارض واحدة فقط » ولم يكن الاختلاف في معظم الاحيان لعدم التاكد من الحقائق العلمية بل بسبب الاختلاف الناجم عن مفهوم القيم الاجتماعية . ومن الآراء المتناقضة مثلا واحد تطالب احدى الشخصيات بوجوب معالجة مشاكل البيئة على نطاق عالمي نظرا لازدياد تاثيرها على العالم باسره الا ان شخصيتين من آسيا اوضحتا انه لا يمكن احراز اي تقدم في معالجة المشاكل الاقتصادية والبيئية ، عالميا ، قبل ان يتعلم كل بلد بمفرده التحكم في نظامها الايكولوجي ECOSYSTEM كما اوضحتا ان داخل عالمنا الواحد . نظريا ، هناك عدة عوالم كل يختلف عن الآخر لا في الصفات الطبيعية والبنية الاقتصادية فحسب بل – وهو الاهم – في التقاليد الثقافية والتطلعات Aspirations وبرز التناقض جليا في حل مشكلة الطاقة بواسطة القوة النووية فقد كان هناك اثنان من حملة جائزة نوبل للعلوم ينتميان الى بلدين صناعيين من البلدان الناطقة بالانقليزية وكلاهما مشهور بابحاثه وانجازاته العلمية وتضلعه في العلوم الطبيعية وتزعمه .. في هذا الميدان لمؤسسات قومية وعالمية ، فاحدهما يرى ان المؤلف « عالم واحد فقط » يبالغ في المخاطر التي تنجم عن اقامة مفاعلات نووية سواء اكان ذلك على الانظمة الطبيعية الكونية او على صحة بني البشر ، اما الثاني منهما فيؤكد ويصر على استبعاد الطاقة النووية لانها على حد تعبيره ، تفسد كلية ، طبقات الجو الحياتية Biosphère وانقسم باقي العلماء فيما بينهم الى مؤيد ومعارض بقوة لهذا الراي او ذاك .

واحد المؤلفين وهو رينيه دبوس يرى ان مشاكل الحضارة الصناعية ، وان اصبحت عالمية الى حد كبير ، فانه لزاما علينا وان اصبحت مشاكل الحضارة الصناعية عالمية الى حد كبير ، تنمية العبقريات البارزة لكل منطقة ولكل جماعة ولكل فرد فالتعلق العاطفي بذاتيتنا وخاصياتنا يتعارض مع تنمية التفكير على نطاق عالمي مما سيتولد عنه ولاء معقول للكرة الارضية بكاملها ، فنحن شركاء في طبقة الهواء التي تحيط بنا وفي مياه المحيطات وفي التغيرات المناخية وغيرها .. وغيرها مما اصبح للتصنيع والصناعات دور ملموس في التاثير عليه ولكن الصعوبة القائمة هي ان الامم لم تزل عازفة عن مواجهة الحقائق المتعلقة بالتلاحم والارتباط ما بين

نجو التقني Technosphère والغلاف الهوائي Biosphère المحيط بالكرة الارضية ومنه تستمد لحياة . فالانسان لما يزل متعلقا بمزايا السيادة لذاتية التي ورثها منذ عشرات الوف السنين كافح للمحافظة على استمرارها ويتطور في تكتله ن مجموعة افراد الى قبائل متجانسة الى شعوب ـ امم او امبراطوريات لا تكاد تتسع وتكبر حتى نفذ اليها عامل الانفصام فتضعف ويعود الى لانقسامات الفردية الذاتية ليعاود التكتل من بديد وهلم جرا . فكيف . والحال هذه ، يمكننا لتوصل الى اي نوع من مفاهيم التوحيد بناء على الارتباط العضوي القائم ما بين الصناعات والجو الارضي المحيط بها في عالم يحتوي على اكثر من 130 دولة كلها ذات احساس قوي بسيادتها وبذاتيتها .

ان البداية يجب ان توجد وان تكون في توحيد تلك النواحي التي يجمع الكل على ان ارتباطاتها ببعضها امر لا مفر منه ولا بديل له وان التخلي عن السيادة في ذلك الامر المشترك يجب الا يقع تحت طائلة النزوات العاطفية ما دامت حتمية البقاء توجيه . ومثل هذه الخطوات نحو وحدة سكان الارض لمجابهة مصير ما زال في خفايا الغيب يجب ان يمهد لها بتكتلات من نوع جديد تتجاوز الحدود السياسية القائمة حاليا الى نوع آخر من التكتل البشري يقوم على اساس التجانس الفكري ضمن المناطق الجغرافية والامكانيات التي يتواجد فيها هذا التجانس . وعلى مدى العصور يصبح لهذا التجانس مفعوله المقصود في معالجة مشاكل العالم كوحدة متكاملة ، ومن ثم سوف يبرز من هذه التكتلات من التفاعل ، فيما بينها ، ما سوف يطلق عليه اسم « النظم الكوني الجديد » الذي سيعمل لا للانسان الحالي على هذه الارض فحسب بل لبقاء النوع الانساني بكامله .

ان العالم العربى الآخذ فى البروز تدريجيا كطاقة مادية وبشرية عالمية لهو من اوضح واصفى التكتلات البشرية المتجانسة فكريا والتواقة ابدا للرقي وتحمل المسؤوليات الحضارية ذات الطابع القيادي . هذا العالم يشغل حيزا جغرافيا بين ثلاث قارات ، ولذا كان في الماضي ملتقى ومنبعا للحضارات وعلى اديمه الممتد من الخليج الى المحيط يرتكز اليوم اهتمام العالم باسره . والامة العربية ـ حتى في احلك عصورها وانقساماتها وخلافاتها وحين وقعت تحت سيطرة الاستعمار الاوروبي لعشرات ومئات السنين لم تفقد الاحساس بتجانسها الفكري . ولاسباب عديدة لم يتح لهذا التجانس ان يبرز على الصعيد العالمى الحضاري كطاقة ايجابية الا ان الزمن اخذ في التغير وبوادر اليقظة بدأت تشق طريقها نحو النور .

في بداية العصور الحضارية يوم كانت الارض متسعة وسكانها قلائل قامت الحضارات على اسس عرقية RACIAL فمن حضارة الهند الحمر في الامريكتين الى حضارات العرق الاصفر في الصين واليابان والهند الصينية الى حضارات الشعوب الهندية والآرية والسامية . هذه الحضارات نشأت في شعوب متجانسة عرقيا وفي حيز ترابى على سطح الارض غير ما نراه اليوم . لكن عصرنا يتميز بظاهرتين : الاولى تقلص حجم الارض بالنسبة لسرعة النقل والاتصال ولذا فمزايا الحضارة الصناعية الحالية وتاثيراتها لم تقتصر على الشعوب الاوروبية التي اوجدتها بل شملت كل اجزاء العالم ، والظاهرة الثانية تضاؤل المزايا العرقية التي تميزت بها الحضارات السابقة بفعل تقارب الشعوب والثقافات الناتج ايضا عن سهولة الاتصال وتغلغل الحضارة الصناعية .

ان للتجانس البشري اثره الهام في تنمية المواهب والابداع وتكامل التفاعل الفكري لا سيما اذا وجد هذا التجانس في بيئة ترابية وعرقية وفكرية ملائمة والحيز الترابى او الجغرافى هنا يشبه آنية الطهى فيها تتحول جميع المواد الغذائية الى طعام مفيد . والعالم العربى جغرافيا لمن اخصب بقاع الارض لتوليد وانماء وتفجير طاقات بشرية جديدة لا عهد للانسانية بها اذ هنالك اكثر من عامل تجانس واحد بين سكانه فهم وان كانوا ينتسبون في اكثريتهم العظمى للعرق السامى على كل حال الا ان التجانس الفكري والعقائدي والثقافي هو الغالب ، كما ان لهم جميعا تطلعات واحدة نحو الرقي البشري ودعم الحضارة الانسانية ..

لقد مر العالم العربي باطوار من التفرقة والتشتت والانحطاط كادت تقضي على كل معالمه التاريخية والحضارية لو لا ان اصالته القائمة على تجانسه الفكري والبشري تمكنت من الصمود . فبعد اضمحلال الخلافة العباسية والانقسامات التي عادت بالعرب الى عهدهم القبلي الاول وقعوا فريسة سهلة لهيمنة العرق الآري من اتراك واوروبيين ولكن خصائصهم الاصيلة لم تضمحل وثابروا في الكفاح الى ان خرجوا ثانية من براثن السيطرة الاجنبية واخذوا مكانهم تحت الشمس من جديد كعالم عربي يمتد جغرافيا من المحيط الاطلسي غربا الى خليج العرب شرقا بسكانه المئة مليون وثرواته الطبيعية وتراثه الحضاري .

هذه الكتلة العربية من الارض والسكان تواجه الآن احتمالين : الوجود الابدي ونقيضه . ذلك لان تحديات العصر ومشاكل الحضارة الصناعية سيؤدي حتما الى تدابير وحلول تشمل الكرة الارضية بكاملها : ترابها ومائها وهواءها وانسانها . وعندها تتهاوى الدويلات والكيانات السياسية الهشة مثل اوراق الخريف . اما التكتلات المنسجمة المتجانسة فيصعب اجتثاثها لا سيما اذا

كانت تساير العصر وتساهم ايجابيا في تقدم الحضارة الانسانية وتصحيح اعوجاجاتها .

والعالم العربي الشاسع الاطراف ذو الثروات الهائلة والشعوب المتجانسة يضم تشكيلة عجيبة من الكيانات السياسية تتمثل في وجود عشرين دولة ونيف : منها الدول ذات البضعة آلاف من المواطنين والدول ذات الملايين ومنها الدول التي تغص بالمال والثروات والاخرى التي خبزها كفافها الخ..،، في هذا التشكيل السياسي الفسيفسائي . لقد ذكرنا سابقا ان النزعة الاستقلالية والسيادة الذاتية متاصلة بالانسان منذ وجوده وان المطلوب ليس محاربة هذه النزعة وانما خلق المناخ الفكري والثقافي الذي تستطيع فيه هذه الانانية ان تنمو وتبدع وتنطلق في آفاق ارحب حسب ما عندها من مواهب وطاقات ، ولا ارحب ولا اوسع من آفاق هذا العالم العربي القائم الذات جغرافيا . فكيف يمكن تنظيم هذا العالم العربي بالابقاء على دوله الحالية ذات السيادة التامة وتجاوز ذلك حسب نظام مبتكر عصري نابع من تجانس الفكر العربي واصالته بحيث يستطيع هذا التنظيم الجديد لا ان يبقى على السيادات الفردية الذاتية المتأصلة فحسب وانما يجعل منها قوة وابداع وابتكار . ان من اولى اهداف التكتل العربي المنشود الاخذ في البروز لمواجهة تحديات العصر والمساهمة في دعم الحضارة الانسانية ـ ان يتمكن من وضع قواعد التنظيم الجديد القادر على توجيه جميع المتناقضات نحو اهداف أبعد منها وأجدى .

لقد صار واضحا ان الاستقلالات والسيادات الذاتية التي حصلت عليها بلدان العالم العربي بعد كفاحها الطويل المرير كانت استقلالات سياسية تفتقر الى الكثير من نواحي السيادة المتمثلة في الاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا وغيرها من مقومات حضارة هذا العصر الطاغية ، ودول هذا العالم العشرين ونيف ، تجد نفسها عاجزة عن الحاق شعوبها بالركب الحضاري رغم تراكم الاموال لدى بعضها . ونظرا لطغيان حضارة العصر الصناعية ومناداة الشعوب وطموحها الى الالتحاق بهذه الحضارة نجد بعض الدول شبه مجبرة على نوع من التبعية والارتباط باصحاب هذه الحضارة وان الاستقلال السياسي لا يتمكن من الحاق شعوب عاشت حقبا طويلة تحت الظلم والجهل بحضارة كالتي تسود العالم حاليا في هذه الفترة الزمنية القصيرة وان الوقت لا يكفي حتى للتفكير والتخطيط وتولدت عن ذلك مشاعر ومركبات نفسية ادت الى العديد من الانتفاضات السياسية والانقلابات والثورات ومحاربة الاخ لاخيه في كثير من البلدان التي لم تكد بعد تمارس استقلالها وتنعم به . ووقع العالم العربي من جديد تحت وطأة ما يسمى بالغزو الحضاري وكاد هذا الغزو يفقدنا الصواب او على حد تعبير احد المسؤولين « يبدو اننا فقدنا حاسة الاتجاه » تماما كالواقف وسط عاصفة هوجاء رملية او الغارق في دوامة ماء بحرية وكانت حرب عام 1967 دليلا على ذروة حيرتنا وغداة استيقظنا اثر هذه الحرب لم يكن في الافق سوى الاعتماد على الله والرضا بما هو مقدر وهي فلسفة تجري في عروقنا منذ وجودنا وهي ان كانت عاقت مسيرتنا الحضارية الا انها سر وجودنا وبقائنا وتجانسنا .

وفجأة وبلا بوادر بدأت الغيوم تنقشع واذا هنالك حقائق ومعطيات جديدة تبرز لاول مرة ولا تفسير لها الى الان سوى القدرة الالهية او الغيبية ومجمل هذه الحقائق ما يلي :

1) في اوائل السبعينيات اخذ المجتمع الصناعي يدق ناقوس الخطر ويعلن على الملا اخطار تلويث البيئة واستنفاذ الموارد الطبيعية وتزايد الاستهلاك والنسل والتضخم المالي وأزمة الطاقة .

2) تجرأ العالم العربي على تحدي الحضارة التكنولوجية العسكرية للعدو الصهيوني والحق به هزيمة فاثبت امكانيته ومقدرته على تولي زمام اموره والتحاقه بالحضارة الصناعية وحتى العسكرية منها .

3) تبرز الارض والصحاري العربية كاغنى بقعة في العالم بالبترول والمواد الاولية والطبيعية والخامات والامكانيات الغذائية .

4) يبدأ العالم الغربي المصنع يولي اهمية خاصة للعالم العربي ويغيّر نظرته تجاه هذا العالم ولانسانه العربي ويبدأ هذا الانتسان وكأنه ذلك المارد ينطلق من قمقم كان محبوسا به عبر مئات السنين تماما حسبما تصورت اساطيرهم ذلك .

لكن هذه الانطلاقة العربية لم تكن الاولى وهي ليست اسطورة فالتاريخ والحقائق تشهد بان الدين الاسلامي والديانات السماوية الاخرى انطلقت كلها من هذه الارض العربية ومن هذه الصحاري العربية . ولقد كانت هذه الانطلاقات في أزمنة تشبه الحاضر من حيث افلاس الحضارات السائدة وقتها . ففي حقب الافلاس لحضارات الفرس والرومان انبثق الاسلام من صحراء العرب وانتشر كالبرق الخاطف على أيدي نفر قليل يحملون للعالم رسالة العدل والسلام . وليست السيوف العربية المنحنية الدقاق هي التي ثلت عرش « كسرى » وامبراطورية « هرقل » التاريخ يشهد بان الزنود

التي ضربت بها كانت اطول في العزيمة والايمان والقلوب التى افرغت فيها تلك الشجاعة كانت اوعى واقوى (1) .

واليوم بعد الحقائق الآنفة الذكر هل نحن فعلا على عتبة انطلاقة جديدة ... ؟ ؟

1) هنالك من البوادر ما ينبىء بان العالم العربي مقبل على تكتل من نوع جديد لم يسبق لـه مثيل ولا يندرج تحت اي شعار او تجربة وحدوية سابقة كاتحاد الولايات الامريكية او الجمهوريات السوفياتية او حتى تلك التي رفعتها الشعوب العربية وما زالت تنادي بها .

2) هذا التكتل تمليه حقائق العصر وما أوجدته الحضارة الصناعية من تشابك المصالح الانسانية وتعددها وتعقدها بحيث أصبحت الاستقلالات الحالية لدى العرب وغيرهم لا تحوي مفهومها التقليدي السابق وان بلدان العالم المئة وثلاثين ونيف لا تستطيع الاستمرار في البقاء لوحدها مهما بلغت ثروتها الفردية وان البديل هو التكتل المبني على التجانس البشري وان العالم العربي لاحسن مثال على هذا التجانس .

3) هنالك خطر ما زال قائما يهدد الوجود العربي واستقلالاته باستمرار . واعيد الى الاذهان الخلفية التاريخية لهذا الخطر لكي يدرك القارىء أن التكتل العربي المنشود هو الوسيلة الوحيدة لازالته وباسلوب ربما لا يكون عسكريا .

من المعروف أنه في ابان التوسع الاستعماري الاوروبي والتسابق المسلح لامتلاك الاسواق ومناطق المواد الخام كانت هناك دلائل تشير الى ثراء العالم العربي بالمواد الخام بالاضافة الى موقعه الهام لامتلاك الاسواق العالمية ، فاتجهت انظار المستعمرين منذ اواخر القرن الماضي لأنتزاع هذا العالم من حاكميه وهم حكام الدولة العثمانية كما خطط من وقتها لانتزاع فلسطين وهي بمثابة القلب لهذا العالم العربي وجعلها نقطة ارتكاز لهذا الاستعمار واجلاء شعبها العربى عنها واحلال شعب آخر مكانه يصبح حارسا امينا للمصالح الاستعمارية والصهيونية وتم تنفيذ هذا المخطط الاستعماري خلال حربين عالميتين ولكن الشعب العربى كان يكافح لينزع عن كاهله نير الاستعمار التركي فما باله يقع تحت براثن الاستعمار الاوروبي الصهيوني بعده ولذا كان لابد من مواصلة الكفاح الى ان انحسر الاستعمار الاوروبي عن كافة البلدان العربية ولكنه لم ينحسر عن فلسطين بل تدرج من احتلال جزء منها الى احتلالها باكملها الى احتلال ما حولها من اراض عربية مجاورة كما نشاهد اليوم .

وعليه فالخطر الصهيوني ما زال قائما كما ذكرنا يهدد الوجود العربي وعالمه الشاسع الاطراف الثري ، فاذا لم يكن هناك من سبب سوى غريزة الكفاح لاجل البقاء فان الامة العربية ملزمة على التكتل لاجل هذه الغاية دون اضافة اخبار التهديدات المباشرة باحتلال منابع النفط العربية التى تطالعنا بها وسائل الاعلام الاستعمارية كل يوم .

4) كيف نفسر ظاهرة تفجر النفط من الارض العربية وهي الارض التي انطلقت منها الديانات السماوية الثلاث ؟ وكيف نفسر نكسة الحضارة الصناعية الحالية واصحابها الذين كانوا بالامس مندفعين في نهب خيرات الارض ومواردها وقهر شعوبها ووقوفهم الآن مشدوهين حائرين يتساءلون ماذا فعلنا بهذه الارض وما جدوى كل هذا الاندفاع الصناعي ؟ ولربما يجول في ضمير هذا المجتمع الصناعي المجرم هذا السؤال : لماذا اقتلعنا من فلسطين ... بها ؟ وما هى الجدوى بعد ان اصبحت حضارتنا خطرا يهدد الكرة الارضية باكملها ؟

هذا هو المناخ السائد حاليا والذي فيه بوادر الامل لانبعاث الامة العربية من جديد، وانطلاقها كعنصر انقاذ لا كقوة غاصبة . لقد بدأت بوادر الترحيب بهذه الانطلاقة تظهر لا على الصعيد العربي فحسب وانما على الصعيد العالمي بعد ان عرف ان التكتل العربى الآخذ في البروز هو دعم للحضارة الانسانية ككل وخاصة لبلدان العالم الثالث الرازحة تحت وطأة سلبيات الحضارة الصناعية بالاضافة الى تخلفها المتوارث عبر قرون من الجهل والانحطاط لاسباب متعددة .

5) ان الصخرة التى كانت تتحطم عليها كل الجهود لتوحيد وتكتيل الامة العربية في الماضي كانت هى الفقر وكان يقال ما هي الفائدة من تجميع أصفار بعضها فوق بعض وكان ذوو المناصب والثراء والنفوذ بعددهم القليل يشمئزون من محاولات التكتل . اما اليوم فقد تبدلت المعطيات والموجبات والثراء العربي بدأ الآن يلعب دورا هاما فى اعانة غير العرب ولم يعد امام الاثرياء والمنتفعين من عهود الاستقلالات العربية سوى الاطمئنان على ثرواتهم ومكاسبهم المادية والمعنوية لا بل لهم ان يطمعوا في المزيد منها بعد تفتح الآفاق العربية الارحب والاوسع . كذلك أصبح واضحا ان هذا التكتل العربي لا يهدف الى التدخل بالخصائص الاقليمية لاي قطر عربى ولا حدوده السياسية او سيادته الذاتية ... هو ابعد افقا من كل هذه وتلك : انه رسالة جديدة وأمل جديد ونظام جديد وامكانيات لانقاذ الحضارة الانسانية التائهة او هديها للطريق الصحيح .

---

(1) من مقدمة كتيب في الادب العربي أعددته لتلامذتي في السنة ثالثة ثانوي في مركز التدريب الزراعي الحرفي والفنون اليدوية طرابلس ليبيا ، عام 1957 .

تلك هي الآفاق الايجابية لمستقبل نأمل اشراقه على الامة العربية نحاول ابرازه والتأكيد على ان القدر ليس كل شيء في صنع مصائر الشعوب وان هناك واجبات وجهودا مضنية يجب القيام بها كما يجب تهيئة المناخ الفكري لهذه الواجبات والجهود بمنأي عن النزعات الاقليمية الفردية والمصالح الآنية . فما هي ملامح تلك الواجبات ... ؟ ؟

1) من حسن الحظ ان اجهزة الاعلام في عصرنا الحاضر قادرة على الاضطلاع بمهمة التوعية وتهيئة الافكار لاي حدث او مصير . والعبرة بل الاهمية هي للافكار التي تغذي بها اجهزة الاعلام ذاتها فما لم يساهم الفكر العربي الاصيل في تاليف الرسالة وتكوين الخطة يكن الاعلام ضربا من اللهو ومادة للتسلية ومطية للوصولية والانتهازية .

2) من المعروف ان اجهزة الاعلام في العالم العربي تخضع كلية لسيطرة الدولة فما لم تساهم الدول في توجيه معين لخدمة التكتل العربي يظل هذا التكتل بطيء المسيرة ويخشى جدا من تخلفه وراء الاحداث ويعود الزمام ليد العدو الرابض على مشارف الجولان وأبار البترول في ابي رديس وفى وسط القدس مدينة العرب وعاصمة فلسطينهم .

3) مهما كان للاجواء الفكرية السائدة في الاقطار العربية من مبررات لوجودها على الحال التى عليه الان الا ان هذه الاجواء لم تستطع تنمية الابداع الفكري فكانت هجرة الادمغة والركود الفكري وازدياد عدد الاكثرية الصامتة هي الحصيلة البائسة لهذا الجو الانفرادي الذي أملته مصالح معينة وظروف خاصة . غير ان هذا الوضع يمكن تفاديه منذ اليوم والمناخ الفكري الذي يتوجب اشاعته هو الانطلاق نحو آفاق فكرية عربية متفاعلة مع الحضارة الانسانية ككل بالاسلوب وبالطريقة التي تمثلها أصالة الشعب العربي وتجانسه .

4) من الضروري ابراز ناحية هامة تتعلق بالمناخ التكتلي الواجب اشاعته اذ من نافلة القول ترددانا لعدم التناقض مع السيادة الذاتية التى ارتضاها كل قطر لمسيرته الفردية طالما ان هذه المسيرة لا تتعارض مع المسيرة العربية التكتلية الشاملة ، بل ما اود اعادة ابرازه هو ان النزعة الانفرادية والانانية صفات انسانية اخطأت الايديولوجيات السياسية عندما ارادت طمسهاوسكب المجتمع في بعد واحد وعقيدة واحدة وكان الضحية الاولى لهذا الالزام هو الابداع .

5) وهناك واجب هام ربما كان هو حجر الرحى في كل ما نهدف اليه وما نسعى لتحقيقه الا وهو واجب حسن التصرف بالثراء العربى او بالاحرى اموال البلدان العربية المصدرة للذهب الاسود فكثيرا ما تتردد عبارة ان البترول هو سلاح ذو حدين وهم يعنون بذلك انه سلاح ذو حدين بايدي منتجية ومالكية ولكنه في الحقيقة وفي المناخ التكتيكى الذي نود اشاعته يصبح سلاحا ذا حدين بيد منتجيه ومالكيه وبيد غيرهم من مجموعة الدول العربية التى لا تمتلكه وحسن التصرف هنا يعنى عدم اللجوء الى الابتزاز المقنع وتوجيه هذا الثراء لخدمة الحضارة العربية مما سيعود بالنفع والعزة والكرامة على الامة العربية بكاملها ثريها وفقيرها ... وهذا حديث طويل ...

6) ان الخطوة المصيرية والانطلاقة العربية الجديدة التي نحن بصددها لا يمكن لها ان ترى النور الا اذا اقرها اولو الامر والمسيرون لهذا العالم العربى كل داخل حدود بلده وهذا يقتضى اتفاقا مبدئيا في مؤتمر قمة عربية ينعقد لهذه الغاية او تكون من اهدافه الرئيسية . والادلة تشير الى كون القادة في اقطار العالم العربى على ادراك تام بالوضع العالمي العام وبالاخطار المحدقة بالعالم العربى وهناك ما يشبه الاقرار بضرورة تنمية التعاون العربى التكتلي وبدأنا نشاهد بروز تكتلات ومؤسسات ذات طابع عربي شامل كبنوك التنمية والصناعات المشتركة والاتحادات المهنية العربية مثل اتحاد المهندسين العرب ، اتحاد الاطباء العرب اتحاد المعلمين العرب ، اتحاد المحامين العرب ... الخ ... غير ان هذا النوع من التكتلات يظل مفتقرا الى ديناميكية التفاعل مع الشعوب اي المئة مليون مواطن عربي وهم الكتلة البشرية القادرة على التصدي للاحداث ومجابهة تحديات العصر ، ونحن احوج ما نكون الى خطة متكاملة تدمج الشعوب بحكوماتها والحكومات بشعوبها على الاسس التكتلية والانطلاقة العربية الجديدة . وهذا ايضا حديث طويل ..

7) لا بد اذن ، من الآن ، اعداد خطة ومناخ ملائم لاسهام الشعوب العربية في صنع مصيرها ومستقبلها على أسس جديدة كأن نبدأ مثلا بتكوين ما يمكن تسميته « اتحاد رجال الاعمال العرب » اي الرجال العرب المقتدرين فكريا وماديا على انجاز المشاريع ذات الطابع العربى الشامل المستوحاة مثلا من توصيات اتحاد المهندسين العرب او الاتحادات العربية الاخرى . وانجاز المشاريع ذات الطابع العربي بالايدي العربية والتخطيط العربى هي بداية التفاعل والديناميكية المنشودة بين الحكومات وشعوبها وهي بداية الانفتاح على عالم ارحب ومستقبل يعمه الاشراق . واذ يتولى رجال الاعمال العرب المساهمة الفعلية فى بناء العالم العربى الواحد فانما لكونهم فئة من الشعب العربى عرفوا بمقدرتهم على الانشاء والتعمير والاثراء والانضباط ثم لان هذه المساهمة ضرورة وواجب للمحافظة على مكاسبهم وثرواتهم وفى مجال العالم العربى الواحد آفاق للمزيد منها ودعمها . ومتى اندفعت باقي فئات الشعب العربى في صنع مصيرها المشترك ومستقبلها على نمط وشكل ما يكون التاريخ قد عاد لمسيرته الصحيحة وتعود الامة العربية الى أخذ مكانها تحت الشمس بجدارة .

نجيب الطيار

أنا كنت قبلك نخلة

محي الدين خريف

لئـــن ادركت كنهــا الريــح
وانطلقت في فجـاج البــراري
تعنفها وتقول لها : « يا رياح هتكت ستاري
وغــرّبتِ داري
وباعدت بيني وبين الليالي القصار »

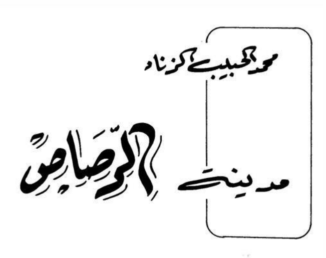
انا كنت قبلك مثل الذي كان يمشي على الماء
لا سور يمنعني ، لا حدود تسد طريقي
أقــود زمــامي واحــمي ورائي
واجلـس في ظـل دوح وريـــق
انــا كنــت نخلــه
ومن ثمرها أكّل الساغبــون العفاة
وفي ارضها اندحـر الطامعون الغــزاة
ولما تزلْ كنداء المئـــاذن
في جذعها الصلب الف دعـــاء
وفي صمتهــا البكـر الــف صــلاة

انا مــن هــواها لمست الحجارة
فانبجـس المــاء بين الاصــابع
صنعت لهــا من دموعــي عقود لآلي
واكسية من شفـوف البراقع
ووسدتها بمخدات ريش النعـام
وحصنتهــا بالعيون التي لا تنام
فان عطفت فهي حبــي الطويـل
وان ولت الوجه عني
فمالي الى غيرها مــن سبيل

اذا ادكرت كنهها الريح وانطلقت واستدارت
سيحضنها البحر ما دام للبحر حضـــن
سيقتلها السجن حتى ولو حصنوه
ستعبر فوق جياد خفيه
وتحمــل كل اللقــاح ولــو بددوه

فمن لي بها حيــن تسرج اقمارها
كوكبــا ، كوكبــا ؟
وتظهر شمس الشموس وبدر البدور
ساغمرهـــا بالورود
وافرش كل طريـــق لهــا بالحرير
سارقبهــا يوم تفتــح ابــوابهــا
وتوزع انخابها ، وتقبل احبابها
وتغنــي مــع العائديـــن
ساحملها في ذراعي كما يحمــل الطفـل
اهمس في اذنهــا بهــواي الدفيــن

محي الدين خريف
1974/12/24



جادني غيثك يا مدينة الرصاص
همـا علـى قلبـي
ولقد كانت جدران قنــبي ملسا دلاص
عمّ فيهـا غيثـك يا مدينـة
قشرها ،
حفرهـا ،
دخـل الحجـرات الحزينـــة
ومقاصير الخواص :
اغانـي متخنـات
ودمــوعـا سخيــة ،،
دخلها غيثك يا مدينة الرصاص !!

يا بحـر البحـار ماؤك عذب
ويا ريح الرياح ....!!
لا الصمت يسرف في اجتياحي
وتشراب راحــي ...
يـا ريـح الريـــاح
اصبــو واكبــو
اكبــو واصبـــو
ما انـا بصـاح !!

خبروني ايها الركب !
هل رايتم على البحر طائرا مزقته الريح
فهو مهيض الجناح
وهو جريح ؟!

« انا ذلك الطائر ! »
،،قال لي القلب ،،
« ... ذنبه على البحر ذنبي
وجرحه من جراحي ! »
يا بحر البحار ماؤك عذب
ويا ريح الرياح
هبي وهبي
وأسكني قلبي
ما انا بصاح !!

في المدن البحرية نمت
في موانيها
توسدت الشباك يرقعها الفقر
ونجوم الليل تسقط فيها ..
لملمت جراحاتي ...
خبأتها في جوف المراكب ..
اغاني رجال البحر كانت تفتحها وتدميها !!
في المدن البحرية نمت
حلمت ونمت
ان النوم مرير عسير
مرير وصعب
على من يعشق الترحال والتيها

نمت
غناء الريح ايقظني
ايقظني غناء الريح والشرب

المنستير في ديسمبر 1972

محمد الحبيب الزناد

سوف عبيد

الكف

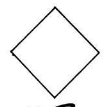
عجفـــاء

من وهج الصيف وبرد الشتـاء
جـــاء الخريـــف
يا عرس السماء !

مددت للمطر كفي
قطـرات تجمعت في كفي
يا ظمأ كفي للماء !



رايتها غيثا وحرثا كفي
رأيتهـا بـذرا وزرعـا كفـي
فـي كفـي
افجـــر الجـــدب
يا تفجير الجدب في الاكف !!



علي الخليلي

تكوين للفصول الأربعة

— 1 —

لانني اكدح مثل نملة ،
امتد مثل نخلة ،
لان قلبي في لساني ،
ولساني وردة ، ....
اموت .
وباعة الجرائد القديمة
تفوح من انوفها روائح الجريمة ،
والنوم !

— 2 —

اريد ان اعصر ثدي الغيم ،
ان اصعد بئر الداء
اريد ان اطعم كل الفقراء ،
ان ابدد الشقاء ،
اريد ... من يدفعني الى الوراء ؟!
من يمرر خنجرا في رئتي المفتوحه ؟!

— 3 —

يجوع هذا القمر الطيب .. يثور .

— 4 —

كنت على ناقة جدي ،
كنت امين الالفاظ ، القوقعة الذاتية ...
انذا اصحو كالقط المضروب على انفه ،
اسحب كل جبين ذل .

— 5 —

اسمع صوتك ،
تحملك الذاكرة الصعبة ،
هذا زمن مشانقنا ...
يكبر ميراث الدم ، حتى ينفجر الطاعون .
هذا زمن ...
ياتي ، ينهار الحاجب والسدنة .

— 6 —

نحن حفاتك ،
وعراتك
نحن العشاق ..
نحلم ليليا انا نخرج من بطن الحوت ،
وحين نفيق يباغتنا الحوت
جعنا ، داستنا الغربة في الربع الخالي ،
لم تمطر بعد — ..
لم تمطر ...
كل دمي يتساقط احجارا ، الوانا ، وخرائط زيف ،
كل دمي صادره الباعة في السوق ...
ولم يهبط قمر القوت .

— 7 —

فاذا جاءك بالنبا الفاسق حراس السادة ،
قالوا باسم « الحجاج » ، تموتين ،
وصفق كل المخصيين ...
تعالي :
في بردة هذا الفسق جموع التكوين .

طرابلس — ليبيا

الميداني بن صالح

ظلال الخطيئة

ليست الخطيئة ان يزل الانسان اثناء تجربته الحياتية
وانما الخطيئة أن يعجز عن مواجهة زلله خوفا من
ذاته ، ونفاقا للاخرين فيسقط عن منزلته الانسانية ،
ويصبح اسيرا للخطيئة

الميداني بن صالح

وفررت ، من حاناتك الموبوءة
الانفاس اجري ،
وفررت اركض خائفا ...
فسقطت في الغدران ، منزلقا ...
تلطخ « برنسي » ...
وتكسرت ،
في زحمة الامساخ رجلي .
وفقدت ذاكرتي ...
ومنطلقي ، نسيت ...
نسيت قريتي الحزينة ،
اصدقائي الطيبيين .
ونسيت واخجلي ...!!
نسيت هويتي ...
واسم الاب ...
حضن الامومة ...
جف من قلبي الحنين .
ونسيت حتى من اكون ..؟!
ومن انا ....؟!!
ذاتي ...
ووجهي شوهته ، دهون قبو التافهين .
في زحمة الامساخ ،
في غدران حانات التسكع ،
تهت بين الزائفين .
نادمتهم ...
واسحق اكوابي التي اترعتها .
« بيد الاسى » ذاتي الذبيحه .
نادمتهم ...
اترعت اكواب الندامى ،
اذا عصرت ...
عصرتها كفي الجريحه ،

كي يرتوي ...
ذو البسمة الصفراء ،
والرهط الذين تقنعوا ،
زمرا مشوهة قبيحه .
بذرات شر ، زيفت اسماءها ،
وتسللت مثل اللصوص ،
تقنعت ...
فالماكر الافاك يدعى « صالح »
والومس المشبوهة الطبع « صليحه »
نادمتهم ...
ونسيت اني كنت « قيالا » و « خماسا » صبورا ...
مؤمنا بالارض ،
فلاحا ابيا ،
يزرع الاغراس ماهر .
نادمتهم ...
فسقطت في الغدران ،
في برك المخازي ...
شوهت ذاتي بقربهم المظاهر .
فالحانة « السفلية الادراج »
جمعت اللصوص مقنعين ....
وكل اصناف العواهر .
نادمتهم ...
ويلاه كيف نسيت اني ،
يعربي خالص النسبة ،
شهم ، وابي ...
ابيض الكفين والخافق طاهر .
ما قد سقطت ..!
تكسرت رجلي ، التي كانت تطير ،
غمامة حبلى الى « بئر الحطام » .

وتعود سابحة الى « ورد النعام » .
ربع الطفولة والاحبة والرفاق .
في قريتي . حيث الصفاء ...
فلا قناع ولا نفاق .
ها قد سقطت على الغدير .
وبرنسي . من نسج امي ...
« برنسي الوبري » لطخ بالعفونه .
فالحانة السفلية الادراج ،
تغمرهـــــــا ...
تعشش في زواياها ، جراثيم النتونه
ها قد فررت ...
وامسي الملعون . لم يك ...
لـــن أكونــــه .
امس النتانة . في مواخير العفونة .
امسي الذي ضيعت في احشائه ،
ذاتـــــي ...
واحلامي . وءامالي ...
اضعت بليله المصباح . والناي .
والقيت بسلات المواخير ،
اناشيدي . ازاهير فتوني .
ونسيت مسحاتي
وزنبيلي ...
نسيت محشتي .
ومناجلي بالارض تبلى .
ونسيت نخلتي التي ربيتها
كشقيقة . وتركتها ...
في واحة الاحلام حبلى .

ويـــــلاه ...!
كيف كفرت بالترب الذي يهب الوجود !!
وبنخلــــــة . عربية .
شمــــــاء ...
ترمز . للحياة وللخلود !!...
وبقبــر امـــي ...
بين اجداث الاحبة والجدود .
وبرفقـــة ،
قد خصبوا الارض الحبيبة ،...
بالسواعد والزنود .
فغدت بجهدهم الصحاري ،
جنـــة خضراء ...
تعبق بالبنفسج ، والقرنفل والورود .
ونسيت قريتي الحزينة .
اصدقائي الطيبين
ابدلتهم ..!
يـــا للفضيحة ..!!
كيف .. كيف ... دخلت قبو التافهين ؟!
نادمتهم ...
في حانة ...
جمعت صنوف الزائفين .
ونسيت يا للعار . حتى اصدقائي .
اصدقائي الكادحين .

ويــــلاه . كيف نسيتهم ...
ونسيت نخلتي الشقيقة من سنين .
عفــــوا ...
رفاقي الكادحين ...
عفـــــوا ...
سارجع يا رفاقي الطيبين ...
لقد استفاق بخاطري الانسان .
والانسان جبار . عنيد لا يلين
حتى ولو طالت به الدوخة أعواما ...
وغرته قناعات صنوف الزائفين .
ها ان رجلي . قد تجبر كسرها .
ونزعت اثقال الجبيره .
وتفتحت . لما انزلقت ...
سقطت بالغدران ...
في ذاتي البصيره .
فغنـــاء امي ...
« قرطها الذهبي » .
رنــات المراود ...
كلها ، كانت من الامس الحبيب ،
بخـــــاطري ،
نســـغ الاصالــــة ...
والشجاعــــــة ...
والرجولة ...
كان في روحي الخميره ،
وافــرحتي ...
وافرحتي . يا رفقتي .
اختي الشقيقة . وابنة الصحراء ...
قد نسجت . مـن الوبـر النقي .
بـلا صباغـة او شعر .
لـي برنســا ...
نسجته مـن تعـب ...
على ضـوء القمـر .
فشقيقتي عرفت معي
منـذ الطفولـة ...
كـل ألـوان المتاعب ...
والتحـدي . والسهـر .

× × ×

ها قـد صحوت . ايـا رفاقـي ...
فابشروا يـا اخوتي الفقـراء ...
رجلـي ...
اصبحت رجلـي سليمــه .
« والبرنـس الوبـري »
هـــــذا ...
لـن يلطخ بالعفونـة ...
لن يـدنس في كهـوف الخمـر ...
والغـــدران ...
بيـن عصابـة الامساخ .
فــي قبـو الجريمـه .

ساعـود احمـل منجلي ...
ومحشتـي ...
اسقي نخيلاتـي بواحتنـا الكريمـه .
بيـن الجمـوع . جمـوع قريتنـا الحبيبـة .
يفلحـون الارض .
اخلاصـا ...
وايمانـا ...
بمسحـاة . وفـاس .
رفقـة كـانت . ومازالت .
زنودهـم مخضبـة ...
وطيبـة ...
ومنتجـة عظيمـه

1 ـ القيال : هو الطفل الذي يعمل في بساتين الملاك ومنازلهم ايضا .. ومن واجباته جر السماد « الغبار » وجمع الحشيش للحيوانات وحراسة النخيل اثناء القيلولة بمقابل سنوي من التمر

2 ـ الخماس هو العامل الذي يعمل باجنة النخيل بمقابل مما ينتجه البستان الذي يعمل به ، ونظام الخماسة ذو طابع اقتصادي واجتماعي معقد موروث عن العصور الوسطى

ـ بئر الحطام : مكان يقع في الشمال الغربي من مدينة

ـ نفطة ـ ويبعد عنها حوالي 4 كلم

4 ـ ورد النعام : مكان يقع بضاحية نفطة من الناحية الشمالية

رضوان الكوفي

قذاة على عين بغلتنا

تقدم الموكب في تثاقل وتصايح من قبل القوم الذين تجمعوا حول البغلة وقد شدت بحبال من امام يجذبها رجلان بينما اخذ اربعة رجال عصيا يضربون بها البغلة كي تتقدم ، وخلف هؤلاء وحولهم من اليمين واليسار اناس عديدون يهشون بايديهم ويصيحون بالبغلة كي تنهض وتبذل جهدا لكي تتقدم ، ولم يكن الطقس ليساعدهم على ذلك فقد كانت الشمس ضاغطة على الادمغة المغطاة بمظلات ، وكانت السماء بلا لون ، وكانت الرياح اللوافح للوجوه تاتي من الجهة الجنوبية حيث تنفخ الصحراء انفاسا ثقيلة تملا الانوف الى حد الاختناق وتغص الحلوق وتجف الارياق ، والالسن تمسح في كل حين الشفاه المتيبسة الكالحة ، ولا ريق يبللها ، اذ سرعان ما تنشف ، فالسموم اكبر من ان تقاوم ، ولكن القوم يقاومون ويجاهدون كي تتحرك البغلة ، كي تخطو خطوة واحدة ، خطوة واحدة فقط وبعدها ياتي الفرج . وابت البغلة ان تخطو هذه الخطوة ، كان من الصعب عليها ان تخطو هذه الخطوة ، ان تبذل هذا الجهد الكبير وكان المستبعد ان يتركها هؤلاء الناس وشانها ، فقد اعدوا العدة ليتم كل شيء في هذا الصباح الغائر ، وكان من الصعب عليهم ان يتراجعوا فيما قرر والدي . ووالدي قرر ان يقع تحريك البغلة بضع خطوات . وليس لاحد ان يعارض في ذلك او يعترض ففضله عليهم كبير ، وهم يطيعونه طاعة ناتجة عن اكبار واحترام واستغلال ، وان كانت هذه الصفة الاخيرة هي التي تجعلهم اكثر طاعة له ، فلا مجال للاعتراض ، وما دام والدي قد اقر ان تكون زحزحة البغلة في هذا الوقت ، فقد استعد كل منهم لذلك استعدادا كبيرا ، وابطلوا كل عمل يقع في ذلك الوقت واجلوا كل مواعيدهم المزمع عقدها آنذاك ، وجاؤوا سراعا الى هذا العمل .

اشترى والدي هذه البغلة منذ زمن بعيد ، وكانت الضرورة تفرض عليه اشتراءها فالبئر الملاصقة لمنزلنا لا بد من استخراج مائها لري المغروسات في السانية الواقعة حول دارنا . كانت البغلة التي ابتاعها والدي نحيفة لا تقوى على العمل المتواصل ولا على حمل اثقال كثيرة ، كانت بيضاء اللون الا من بقع سوداء صغيرة منتشرة فوق جلدها ذي الوبر الابيض . واقبل الرجل الذي كلفه والدي بالاعتناء بالسانية على توفير العلف لها حتى صلب عودها واصبحت نشيطة الحركة لا تعبأ باي حمل ، ولا باية مسافة تقطعها في السهل والوعر ، واصبحت العنصر الحي الذي بواسطته تقضى حوائجنا . كان عملها الدائم استخراج الماء من البئر ، فكانت توثق بها حبال في طرفها دلو ، وكان عليها ان تسير خمس عشرة خطوة امام البئر حتى تخرج الدلو لينصب منه الماء في حوض صغير به قناة في الزاوية المقابلة للبئر تسرح الماء الى حوض اخر اكبر منه بكثير يفتح عند الحاجة لري الغرس والشجر يوزع الماء عليها عبر قنوات منظمة ، وكان عليها ان ترجع خمس عشرة خطوة لكي يعود الدلو الى اعماق البئر ويمتليء فتجره من جديد خمس عشرة خطوة ليفرغ ما به من ماء ، وقلما كان يصل الدلو الى الحوض الصغير وبه ماء لكثرة ثقوبه ولهذا كان على البغلة ان تبقى ثلاث ساعات تمشي وتجيء وخلفها الرجل يوجهها حتى يمتليء الحوض الكبير . وعند ما يفكر الرجل في الاستراحة او في الغداء يطلقها ويوثقها تحت نخلة وربما يعود اليها اخر العشي لاستئناف العمل .

ولا يقتصر عمل البغلة على استخراج الماء من البئر فقط بل انها تستعمل لجر المحراث من حين الى حين في ارض السانية ثم تطورت فكرة استغلالها الى جعلها تجر عربة اشتراها والدي لنقل المتاع والحبوب والخضر من السانية الى السوق ، ومن السوق الى القرية ، تقوم مقام سيارات الاجرة فيركبها اناس كثيرون عند رجوعهم الى منازلهم وتكون البغلة محرك هذه السيارة ، ثم امتد نطاق استغلالها

الى احبابنا واقاربنا الذين يطلبون البغلة للحرث ، او يطلبون البغلة والعربة معا لنقل بعض المتاع او لجلب المياه في اثناء احتفالاتهم بزفاف احد ابنائهم او احدى بناتهم . وحتى نساؤنا اصبحن لا يستطعن المشي ليلا الى احدى العائلات للمشاركة في الفرح ، ويفضلن اخذ مكان في العربة التي تجرها البغلة .

والبغلة آنذاك قوية ، مفتلة ، تخيط الارض سدى ولحمة ، حتى لتكاد تعرف اين ذهبت اليوم واين قصدت امس من تتبع اثار حوافرها ، لكأنها نقبت ارض قريتنا تنقيبا ، ولقد كان لكل شخص منها نصيب ، الا انا ، فقد كنت صغيرا آنذاك ، وكنت احبها كثيرا ، واحب شيء لدي فيها هو لونها الابيض ، وكم كان يحلو لي ان امرغ اصابعي في وبرها وهي تنز عرقا ثقيلا فاقتلع وبرات منها اظل افتلها او اشدها الى خشبة واخذ في العزف عليها بظفري منصتا الى نغمات ممطوطة ناشزة ولكنها تهزني اولا ثم اكتشف رتابة الحاني المزعجة فاتلف الوبرات وامضي لحفظ ما كلفني به المؤدب من حفظ . الا انني كنت اتساءل دائما لم لم تكن بغلتنا مثل فرس عمي التي انجبت مهرا وكنت انتظر اليوم الذي ستضع فيه البغلة مهرا صغيرا يشغلني عنها اذ انه لم يبق لي الكبار فيها شيئا الهو به ، ولكني علمت فيما بعد انها لم تلد ولن تلد .

كنت يومها صغيرا ، وكانت البغلة قوة جعلت كل الناس ينظرون اليها بافواه مفتوحة وعيون شاخصة وقلوب حاسدة والدي على هذا الكسب .. ومرة ، اوائل الخريف ارسل والدي البغلة مع عامل كلفه بحراثة قطعة ارض لنا تبعد عن القرية باميال ، وفي اثناء الحراثة بدا للعامل ان يستريح قليلا من انحنائه الطويل على المحراث ويتناول كاس شاي ، فغرس السكة في الارض وذهب قرب نفر اخرين ، ومكثت البغلة حيث هي مكبة على الاعشاب تأكلها وامتد عنقها شيئا فشيئا امامها لملاحقة ما بعد عنها من النباتات حتى اضطرت الى التقدم خطوات ، وحدث ان تحركت فجرت المحراث خلفها . فانسلت السكة خارج التراب وارتطمت بعرقوب رجل البغلة اليمنى فقطعت عروقها وسال الدم غزارة ، وبقيت تجرجر رجلا عرجاء تقود محراثا آثما .

ورجعت بغلتنا الى السانية لا تقوى على فعل اي شيء ، وحاول الجنان معالجتها بتضميدها لكنها لم تشف وقعدت قعودا نهائيا لم تستطع بعده وقوفا ، وتعفنت رجلها واخرجت روائح كريهة ، حتى اصبحت البغلة مكروهة من قبل الجميع ، واصبحت عبئا ثقيلا لا يحتمل . لقد كانت بغلتنا قاعدة لكل حمل فهي اساس كل ما يوضع ويحمل فوقها ، هي القاعدة الصلبة التي لم تتزحزح ولم تتوان ، قاعدة صبورة عاملة ، قانعة ، ولكنها قعدت الآن ، وتبقى القاعدة قاعدة ما لم تنهض ، لكن كيف لها ذلك وعذابات الجراحات ، والدماء النازفة الآكلة منها ، كيف لها ذلك وجفاف القلوب وجفونها المطبقان عليها ، كيف لها ذلك وهي ليست حصانا أرعن ولا فرسا ولودا ... وبقيت البغلة جاثمة تحت نخلة ترسل من حين الى حين صوتا مبحوحا مختنقا ، وتفتح فمها ليسيل منه لعاب ابيض ناصع كالقطن كثافة يعقبه سائل اصفر محتقن كالغثيان ، وعينها تدمع دما ، وقد برزت على بطنها عروقها الغليظة والدقيقة ، وانتشرت حولها رائحة جد كريهة وجد باعثة على الشفقة ، وعند ما احس والدي انه ميئوس من شفائها امر الجماعة بقذفها في الجرف صبيحة الغد حتى تموت ميتة واحدة . وسار الموكب صباح الغد في لغط كبير ، الكل مهتم بهذا الحدث ، وانا العاجز ، انظر مشفقا اولا ومحتجا وغير راض بهذا القرار ، ولكن احدا لم يعارض ، وبكيت عندها بحرقة كبيرة لعجزي ولعدم قدرتي على فعل اي شيء في صالح البغلة ، ولشد ما يحزنني انها تموت دون ان تخلف مهرا يبقى شاهدا على ان البغلة وفية قوية كانت قاعدة كل شيء واصبحت قاعدة عاجزة فاهملت وأتلفت ، لشد ما يحزنني ذلك . ولشد ما يحزنني ان كل من يشارك في هذا الحفل قد اصاب من البغلة شيئا ، ومع ذلك فهو قانع راض بهذا المصير .

وكان النهار سوادا ، وغيوم كثيرة تغطي نقاوة السماء ، والصماء سامية لا يدركها شيء ، والمراوح هامدة زمن الحر ، وعين البغلة تدمع دما ، وانا الاعصاب المريضة العاجزة امام ظلام افك وليل داعر ، وانا العينان المفتوحتان ولا تبصران شيئا ، والعمى صنو الموت واقسى . وفي اضابير الوجود كتب العدم ، والعدم مدرك كل شيء حتى الاضابير ، والحبر جاف لا محالة ، والورقة متآرضة لا محالة ، والمخ منقوب لا محالة ، والحياة الى تلاش ما في ذلك شك والكدح والاعياء والاجهاد والنصب والمرض والآلام والدماء المسفوحة على مذابح النسيان ، فالطب والفناء .

ها انهم يصلون بعد جهد كبير على شفى الجرف ، وعين البغلة تدمع دما ، وها انهم لا يتراجعون ويقذفون البغلة الى اسفل الهوة فاذا هي هشيم بين الصخور .

وكانت الرياح ثقيلة تحمل انفاس الصحراء البكر الى بلد مات فيه الحرام ، والتصقت باهدابي تبنة فاخذت اقتلعها لاستوضح المشهد .

نسيت ان اقول ان على عين بغلتنا قذاة ادمت عينها ولم تمتد اليها يد لتريحها منها ، فبقيت حيث هي تحجب البؤبؤ وتجرح القرينة .

رضوان الكوني

عمر بن سالم

احمرّت العيون وابيضت الشفاه



صحا الرب «يان» من اغفاءته بعد الغداء منزعجا متوترا ، وما ان امسك سوطه حتى فرقع به الهواء ، وقصف به السكون نسفا ، ولما حضر بين يديه عبده «حام» صرخ في وجهه منتصرا :

يان : ما للسودان تشخر شخير الابقار الهائجة اني رايت خياشيمهم تنتفخ وتتمطط ثم تنفجر . اتكون الشمس قد اضرت بنواصي قومك . يا وصيف الرب ؟

سام : (معلقا في سخرية) : الشمس اضرت بنواصي السودان ! متى كانت الشمس تضر بابنائها ؟ او يحرق الشعاع السنة اللهب ؟

حام : (مستغربا) انك خلقت الشمس من جباههم . يا يان ! ثم صقلتها صقلا . وعلقتها على هامة الكون الماسة ضخمة . فهي فخرهم الذي به يفخرون ...

يان : ففيمَ شخيرهم اذن ؟

سام : لقد زفروا بافواههم دهرا حتى تورمت الشفاه ولم يسمع لهم زفيراً . فاذا ما شخروا بالانوف اهتزت أركان عرشه يا لآلهة لزمان

حام : ولكنك قدرت عليهم الشخير . ونغمته في قصباتهم تنغيما . ولقد كنت عليه تطرب وتشرب ...

يان : كاني بشخيرهم قد انحرف وتغير . فقد قدرتـه لحنا شجيا . لا شخيرا كشخير الخراطيـم وقد جف الغدير

سام : لو كانت لهم خراطيم لحصدوا بها قومك حصاد القصب ولكن انوفهم بتراء . وياليتها كالسيوف القصيرة

حام : انه الشجا . يا يان . يسد الخياشيم . ويخنق الحلق . وقد تعكرت الاجواء وشحت السماء ..

يان : استسقوني امطركم . استشفعوني اغفر لكـم اما ان تزعجوا راحتي بشخيركم . فويل لكم من عذابي المستطير

سام : كان العذاب لم ينصب عليهم انصباب الاسواط علـى الدابـة الحرون . الـم يسلخ البيضان جلودهم لينفخوا فيها كالقرب ؟ الم يشـدوا انوفهم الى ءالاتهم شدا فاذا هي تنفر نفير الحمير ؟

حام : انك يا «يان» لو رفعت عرانيننا لتفتحت القنوات وانطلق الهواء وما غط

يان : ارفع عرانينكم ؟ ومـاذا يبقى لكـم لتتشبهـوا بالارباب ؟ ابيض وجوهكم ؟

سام : كاني به يعيرهم بسواد افعاله ! يا لنكـران الالهة . تصنع الخلق من ذاتها . ثم تكفـر بمنتوجها كالسلاحف !

حام : (يضحك بدون صوت)

يان : ما يضحكك يا عبد ؟ اتسخر من ارادة الرب ؟

حام : اني تصورت جلدي قد ابيض . فاحسسـت بالعراء والخزي ...

يان : انك جننت . وهل للبيضان عورة تخزي ؟

سام : عورة البيضان كعورة الارباب دائما مستورة؟

حام : ليس للبيضان عورة . حاشاك يا يان ! انه لا فحش فيهم ...

يان : لقد خلق البيضان في احسن تقويم : انوفهـم مرفوعة واعناقهم مسطوعة

سام : كأن السودان قد تناسلوا من الجعلان الفطساء! يا للحقارة !

حام : وانت حسن الخلق والتقويم ، يا يان العظيم !

يان : لقد قدرنا الالوان والاشكال ، وفضلنا بعضها عن بعض ليكون السودان عبيـدا للبيضان ، وكذلك نعدل بين الاجناس !

سام : ما احط مقاييس العدل عند الارباب ، ومـا ارجح موازينهم ! تبا لعنصرية النواميس !

حام : الم تسو ، يا يان بين السودان وبين الصفران والبيضان ...

يان : بين السودان والسمران وبين الصفـران والحمران فقط . اما البيضان فقـد فضلناهم على العالمين

سام : بعوراتهم المكشوفة وبجشعهم العاري !

حام : فضلتهم على العالمين !

يان : البيضان احفاد الارباب وسلالة الالهة . منهم يتناسل الاخيار

سام : بل منهم يتناسل الاشرار

يان : (مستطردا) ومنهم بعث الرسـل والانبياء . ومنهم كان الاباطرة والاولياء

حام : ولكن محمد من السمران ؟

يان : اما هذا فقد بيضنا وجهه ، واشربناه بحمرة . فهو من شعبنا المختار

سام : ما قد نسبه لقومه منذ ان اكتشف في ارضـه القار ! يا للحرباء

حام : والمهدي السوداني . الم يكن من الوصفاء ؟

يان : من هذا الوصيف الذي اهتدى ؟

حام : سيدي المهدي . رضي الله عنه !

يان : سود الله وجهك ووجه من سوده متى بلـغ الوصفاء درجة الاسياد ؟ انه دعي . يا حام . فلا يغرن بكم الادعياء

سام : دعي ؟ وهل ترك البيضان لغيرهم دعوى ؟

حام : دعي ! سيدي المهدي دعي ؟!

يان : دعي والف دعي . ركبه الغرور فحاول التشبه بالارباب . وهو حقير

سام : ومن الارباب من يتعالى بادعاءاته على العبيد وهو من النفاية احقر .

حام : اعوذ بالله من كل جاهل مفتر من الارباب ومـن البشر

يان : اياكم يا حام من تصديق كل دعي ياتيكم مـن السودان . فقد انحصرت الرسالة في البيضان

سام : انه احتكار مجحف . لماذا لا تكون الرسالة في الالـوان ؟

حام : لماذا لا تكون الرسالة فينا ؟ لماذا لا نكون لانفسنا اربابا ؟

يان : اني اراك محموما . يا وصيف الرب ! انـي اسمعك تهذي

سام : ها قد بدا يشككه في امكانياته . سوف يريمه بالجنون !

حام : (بينه وبين نفسه) رب للبيضان ورب للسودان نصيب لهم ونصيب لنا . يوم للاغنياء ويـوم للفقراء . هكذا قال « صمبا » ، ويقول احفاد « صمبـا » .

يان : (متطيرا) : ومن صمبا هذا الملعون ؟ ايكون من الزنوج ؟

حام : انه جدنا الاكبر صمبا العظيم ! فقد صحا مـن نومه البارحة وفلق « التمتام »

يان : صحا من نومه البارحة ؟ فلق « التمتام » لـماذا لم تخبرني بذلك ، . يا عبد السوء ؟ كيف ؟ لم يصح من نومه بعد ... اني ما ازال اسمـع الشخيـر ...

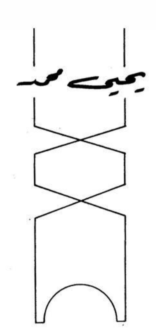
حام : ان ما تسمعه يا «يان» ليس بالشخير . انـه الهدير ! الهدير ، الهدير ، يا يان ...

يان : اما اكتفى قومك بالشخيـر حتـى اخذوا فـي الهدير ؟ انزل اليهم . فسد الخياشيم . واغلق الافواه ! اتسمع ؟ اغلق الافواه !

حام : هيهات ، يا يان . هيهات ! فقد احمرت العيون وابيضت الشفاه !

ـ عمر بن سالم ـ

يوم القرية



القرية تحمل على كاهلها الوجود الثقيل . والذي يرتج ويتنفس الهواء الممزوج بالرطوبة ، والرياح العاصفة التي تضرب كل شيء يعترض سبيلها ،. يكفي بان تميل المنازل وينقلب سطحها وتبرز الشقوق في الجدران ليحس كل واحد فيها بما يحسه الاخر . يتجمع بعضهم في منزل تمسيح أمين ، وتحدثك وجوههم بايات الصمود والقسوة والعنت الشديد ، وقد فعلت بهم الرياح ما فعلت . وتظهر اجسامهم نحيلة ، لكنها تظل مشدودة الى الوجود الذي يربطها .

زارتهم الضفادع ذات يوم حار ، فنقنقت وصاحت . واتى الجراد على الاخضر الريان فاصفر واضمحل . وجاءت اخيلة تتراقص فضفاضة لزجة ، رقراقة . ورياح عاتية فتاكة ، فامتحنوا اشد امتحان ، انهالت تضرب الوجوه ، والاجسام العارية . والبطون الخاوية ، وران على ساحات القرية سكون باهت ، وعجز خافت . وميل نحو الاستسلام .. ومنذ اللحظات الاولى لتغير الطقس وظهور العلامات الجديدة الغريبة ، والالوان متمازجة في الفضاء . اللون الابيض ومعناه التناقض .. والاصفر ومعناه الوضوح ، والاسود ومفاده التالف .. والاحمر . وقد اختفى وراء الشمس الهاربة خلف الافق . ويدل على الشجاعة وعدم الانهزام .. ولن تزول هذه الالوان من عالم القرية المليء بالتناقضات . وجوها الصاخب ، العريان ،،، وما دامت القرية تتعرض الى ظواهر ثقيلة في الفهم والهضم زمنية كانت او غيرها فالريح تعصف . والاجسام تنحني .. والهواء يخفت .

القرية شاسعة ،. ملئت نخيلا ، واشجارا شهية الثمار ، وكره الناس العمل من اجلها . فعوضتها الضفادع في يوم كريه ، والبوم في يوم مشمس . والجراد في موسم الحصاد ،. واتت اصابع مرتعشة تتراقص في الظلام ، تاكل كل شيء ،،، واتى الكلام ،،، كلام الموهومين ياكل الاشياء كما تاكل النار الحطب ، وترى الناس سكارى . وما هم بسكارى ... يركض بعضهم كالبغال الضائعة في الغاب .

وتزحف الثرثرة من الافواه ، الافواه الواسعة ، التي تاكل الطعام والحديث بغزارة لكن السريبقي غامضا .. الرجال يميل اغلبهم نحو الصخب الفارغ في المجالس وقد انقلب بعضهم الى منجم يهوى فن السحر وتفسير الاحلام المبهمة . ينسجون خمائل الحيرة من نفوسهم ، ينقلونها الى ايامهم وعلامات كثيرة تمسح وجوههم ... اما النساء فقد جلسن في المنازل يقتلن اوقات فراغهن .

تحت النخيل اكوام قش صفراء كانها صولجان سلطان هارب من قصره العامر الى موضع بسيط لا يحتاج فيه الى الابهة والانفة والشموخ . في القش بعض اشواك ممزوجة بورق الحريقة ،،، هي ايقاظات تثير الشعور ، هناك يجلس شيخ القرية او عالمها المتضلع في علم الكواكب السيارة ، وتمحيص الاحلام المدرارة ، يجلس الشيخ هناك ، يستطلع . يضرب اخماسه في اسداسه ، لكي لا تنقلب مفاهيمه ومعطيات حساباته يذوب في التاويلات . وكان شيئا لم يحدث المرة ،. ويظل يتناول الظواهر الناشئة . يمسك بحزامه . يتشوف ، يستقطب ، يبحث في كتب صفراء قديمة مبعثرة بين الاشواك هنا وهناك ،. ثم يعود الى مجلس القرية ليبدأ الحديث مع الاعيان . ممن لهم ضلع في معرفة الامور الخفية للظواهر العابرة ، وربما كان الفصل بين حديثه تذمرات الناس كالفرق بين الثرثرة والكلام السالم من العيوب .

هناك .. الزمن يسرع خطاه .
هناك .. القرية تتألم ، تتعذب ..
هناك .. التجاويف . والعاهات بدأت تظهر .
هناك .. اشياء تبدو غريبة . لكنها واقعة وملصقة بالواقع الضخم .
كيف الصنيع يا شيخنا الفاضل ،، ؟
القرية .. عاجزة وحدها . لا تقدر ، علق رد الفعل ..
هناك .. اسلحة فتاكة في مكان ما من الدنيا ..
لكن ...

واخذ الشيخ يستطلع الاشياء وحده على ضوء ما يمكن ان يلم به في مثل هذه الحال . فالقرية آخذة لا محالة الى الانقراض ، والضفادع تسرى كالدماء في العروق تخلف اشياء واشياء . والناس في حل منها .. حتى الاصابع الاخرى الخفية التي تعمل عملها في الوجوه والايادي وحتى في طرقات القرية وساحاتها ، تترك علامات اضطراب مخيفة .

يدور الكلام حول الاعراض الزاحفة ... فتش احدهم عن اللغز ، وحملق في الاودية التي تربط حزام القرية من كل صوب ، يكفيه ان يتصور فراغ الجراد هذا العرمرم الذي لا يعرف التوقف .. ليحس بما يمكن ان يحس به غيره ، ودار حول نفسه ... كان حائرا ، ابريط ابباشه على ظهره ويغادر وكره الذي ولد فيه وتمرغ بين احضان نخيله واشجاره .. تمنى لو تنفس ابنه الصغير بارتياح ، لو قال كلمة ، لو تحرك لو اشار حتى باصبعيه الى موطن الداء ... لن تكون صورة الظاهرة مجردة عن اشياء ، او مفصولة من الربط المعنوي والمادي لكل جزء فيها ... فالذي لسعته الاصابع المرتعشة ، والعيون الشاخصة ، والبطون الفارغة يجلب له من الدواء الرعواني ، والحيرة الرعوانية ما يبث فيه اشياء تظل متصاعدة ولن تهبط حرارتها الا بانتهاء صاحبها .

الجميع في حصة بحث دائم . الشيخ يتأمل ، يحدق نظره في ضفدعة ميتة اكلت دم الصغار ، وهربت نحو وكرها فاكلها غيرها او شرب من دمها اكسير حياتها . انها صورة حقيقية للصراع الحيواني . والجميع في هلع قاتم ، الضفادع الملعونة تتسرب رفقة البوم المزكوم بينما ظل الشيخ ينظر اليها نظرة هازئة .. لم يكن همه ان تفنى الضفادع ، وتموت البوم ، وتتقلص الاصابع ، ويخفت الريح العاصف المزمجر . ما دامت السبل مسدودة امام الجميع .

هل يجب الانتقال الى موضع اخر .. كلا . ان الشيخ العالم يرفض هذا الانتقال وكانه لا يخشى شيئا ، لا يخاف احدا ، يتابع ببصره ثقب الاجسام واعراضها الممدودة .. وتغير لون الطقس ، وتعدد ذيول السحب الهاربة كي لا ينزل المطر على القرية وتموت قحطا وعطشا ، وينتهي الجدل البيزنطي دون جدوى .

كيف الصنيع يا شيخنا العالم ؟
القرية مهددة بالزوال والانقراض ..
القرية ، ماتت ، او هي في سبيل ذلك ..
لكن القرية عاجزة وحدها عن رد الفعل .
وردود الفعل كثيرة .. وكثيرة جدا .
كيف الصنيع يا شيخنا الفاضل .. ؟ ؟ ..

في الماضي . كانت القرية لا تتجاوز هضبة من هضبات الجبل الصخري .. اما اليوم فقد انبسطت وتقلص منها الوجود الصخري ، على ان مظهرها العام ظل مرتبطا بهذا الشكل حتى الان . كانت هضاب القرية حمراء ، رملية ، تتغير كلما تغير الطقس ، وتنحدر الالوان الطبيعية مع طلوع الشمس ، فيصفر اليوم او يحمر ويتصور الشيخ هول ذلك اليوم ، وقد رفض الريح ان يستكين للراحة والرفق ودون ان تكف الضفادع عن النعيق ، او يجمد الجراد ويستقر في وادي الحصاد ... ويخرج اهل القرية حفاة عراة ، لاقتبال « فيلق المراقبة الطبية » ، وكانت آلاتهم العصرية بايديهم ، وقفت سياراتهم الشاحنة في قلب القرية .. وعكست دوريات منهم الاضواء على التجاويف ، وانقسموا الى فوجين اثنين ، واحد لفحص الرجال ، والاخر لفحص النساء والاماكن المتضررة .. لا بد من فعل شيء يذكر ... فالقرية تسير نحو حتفها . اما الشيخ . فقد بقي في مكان ما من الساحة يرقب المراقبين ، ينظر في عجائب الدهر ، وفجأة اقترب منه احدهم واخذ يسأله عن الظاهرة يوم بروزها . طالبا منه ان يكف عن الغثيان والادعية والتسابيح . هز الشيخ رأسه ، حاول ان يهمس في الواقفين ،،، هذه الات مصنوعة من الالكترونيك . تبيد الموبيدات ، وتخلق الحشرات الجديدة في اسرع وقت ، انها فرصة نادرة لهؤلاء كي يجربوا الحظ الذي تعثر في هذا المكان في يوم مشهود من ايام القرية الزاحف نحو الحظ الاسود والابيض والاحمر ،، ليقف هؤلاء على الحقيقة يوم يقع البحث عن الحقيقة في مصرع الضفادع المنقنقة ، والبوم المزكوم ،،، يوم يصفر النهار ويخضر ويسود على نغمات الريح الصرصر ، ويوم يتكسر كل شيء على الصخرة المنتصبة في فناء ساحة البلدة النائمة على الشوك .

كان فيلق المراقبة ، بصدد الانتهاء من الدراسة التي شرع فيها في نطاق مشروعه العاشر ، نظر كبيرهم في اليومية المسجلة التي تلتقط الاصوات ، تسجل الاعراض مد يده اليها ، الى الجهاز

الاساسي فيها ،، انـه يحدق فيها في اضطراب ... عند ما تتصدع الالات تثـور اعصاب الفنيين والمخرجين والممثلين والمنشطين الحركيين عندما تكـون الحالـة على هـذا النحـو يركن الى القـول العـادي .. تعطلت الاجهـزة لسبب خـارج عـن نطاقنـا ... وكـانت اليوميـة المسجلـة نائمـة بعض الشيء او كـان صاحبهـا يغالطها فنتج عـن ذلـك تكـرر المغالطـة وتنوعهـا بصـورة مـدهشة .

لم يعـد الخـزان الملـون يرسل اشاراته الضوئية كعادتـه .. انطفـأت بيـت الابـرة ، تعطـل العـداد الالكتروني . واخـذ المحـرك يقزقـز ، يطلب النجدة . ولكن فرقـة الاسعـاف معطلـة هي الاخـرى ، ينقصها الفنـي المختص الذي لم يأت ضمـن البعثة ... وظلت افكـار الشيخ تتصارع ، لم ينفـك يشيـر الى هـذه الجلبـة التي احـدثها كبير المـراقبين وقد ارسـل الشعـر ، ووضع (بيبـا) غليظـة في فمـه واخـذ الدخـان من حولـه وهو كالقطار الواقف الذي لم يعد يستطيـع الحـراك .

ما قـول رجـل المراقبـة في الصخـرة الواقفـة وسط القـريـة ؟

ما راي الشيخ الذي ظـل باهتـا ؟
كيف الصنيع والاشياء الجامـدة لها ذهنيـة مغايرة للـواقـع ..

والشيخ يتطيـر من افعال الرجـال الاجـانب ..

.. كانـوا يقيسون الارض . يقلبـون الوجـوه . والحال . والاحوال ،، يستوقفون الناس يستوضحون . يفسرون الاعراض والالغـاز والمفاهيم دون ان يكونوا في حاجـة الى اقامـة برهـان قاطع . شيء مريـع حقـا ،، الضفادع في مناكب الارض ، تاكل الثمـار ، والجراد يرتع هنا وهناك في حمى هستيرية ،، والريـح يحفـر الوجـوه ، ويبعث الرمـال الصحراويـة بين الحين والاخـر ،،، اين الوسائل العصرية يا ناس ؟ ؟ ،، هذه واحدة هنا . اصبحت جامـدة . كيف السبيـل الى الاختراع ، وقد غـاب عنها الفنـي المختص ذي الاصابع الرحيمـة . والشيخ المسن يحـارب كل ذلك بحجـة او باخـرى ،، هل حـل اجـل القضـاء على الرياح العاتيـة . هل كتب على القرية ان تظل موصودة ، ممنوعـة . مبتـورة . مقطوعـة ،، يتنقـل الجـراد فيها بين مـوضع وموضـع . وتتحـالف قـوى الريح في السلام على محاربـ[illegible] . او على الاقـل على تقتيلها عـر[illegible] بعـد عـرق ،، شيء مـريـع حقـا ،، لمـاذا هجر القرية عدد لا بأس به [illegible] اولئك الـذين كانـوا متعلقين [illegible] الى حـ[illegible] [illegible] ،، ولمـاذا مالـت الصخرة التي تتربع الساحـة الفسيحة في البلـدة ؟ ولماذا يبقى الشيـخ وحـده يجـر اذيـال الخيبـة المـرة ويقص على نفسه حكايات التماس من واقـع القـرية وزمـن يـرهـا [illegible] والطقس .

هـل فتح رجال المراقبة ،، اعينهم على الـداء . ؟
وهـل يكفي ذلـك وحـده ؟

وعند ما تـدق ساعة الفحص ويشد بعضهم الرحل ، بينما يظـل عقـرب الساعـة يزحف نحـو بيت الابـرة وهـو يعمـل في صمت وبكل سرعة ،، تأتي اشيـاء فى انتظـار نتائج التحقيق الاوليـة ويقـرأ لها الف حسـاب .

(لكي تعود القريـة الى سالف عهـدها) .
(يجب ان نقطـع المسافـات الهائلـة بحثـا عـن المستحيـل) .

(لكي تعيش القريـة في شرايين عروقنا الدموية)
(يجب ان نحيـا) .
(ونرفض الحـل المنقـوص . والسخريـة) .

شيء مريع حقـا ان نظـل هنا في نفس النقطـة منذ مئـات السنين ،. نشعـر بلمسات المـوت ، نتحسسها بشفاهنا . فالساعـة لحظـة من لحظات الهجيـر في اليـوم العاشر من ايـام القريـة ،، ييبست الحشائش ، جفت السواقي ، نزلت غمامات هاطلـة كذب الدجالون المـارقون والفنيون المختصون ،، ينبـع المـاء من هنا ،،، من هـذه البقعـة الخاليـة ، لا من الموضع الذي وضعوا فيه آلاتهم الحفريـة منـذ اكثـر من عـام . واندكت الالات من جديد ، وبقيت تجتـر آلام الحفـر في ارض جـدباء ، شيء مريـع حقـا ،، لعل هـذا الطائـر العائـد من رحلـة في ادغال افريقيـا يقص على الجميع حكايـة سوداء ، حكاية حفـر الابـار بطريقـة مشعـوذة ، تأتي بالعجب العجـاب . وينتهي الحـديث عـن الالـة العصرية التي تعطبت في قعـر الارض من جـراء العنـاد الفارغ ، والبحث المضني والتعب والاغمـاء ، ومن اجـل الترهـات الفنيـة . ولعل هـذا الطائـر العائـد يحكي الحقيقة بفم باسم ، وقلب نابض . وحس يحـرك الاجنحـة المتكسرة ،،، [illegible] فـوق الصخـرة الواقعـة الواقفة الباهتـة ، نظـر هنا وهناك ، كانت القريـة غير هذه منذ مئات السنيـن ،،. كانت صدى الحس القـروي المنعش ، وكان الصدى يرجـع ذلك الحس ، حس حركة الاطفال وهم يلعبـون وسط ساحـات البلـدة الخضـراء امـا اليوم ، فقـد انعـدم الحس . وانكمشت الوجـوه ، ومالت الجـدران ، وتقلصت معـالـم الحركـة وكثرت اصابات مـرض العيـون ، والروماتيزم ، والرعشة ، والانحلال العضوي يا يـوم القريـة الاخرص . يـا ساعـة يخلـق الـذبـاب . وتلـد الحشرة . وينعـدم التلقيح الفعلي .

يا يـوم اليـوم المزكـوم . والجراد العرمـرم .

والقلقلـة . والسفسطـة . والخرافـات الاخـرى وعـالم المجاهيـل .

الشيخ هنا وقد غاب بنظره عن وجوده ،، لماذا ينظر هكذا في الفضاء ، الفضاء النخلي بعيد الادراك ،، واقبل نحوه رجل من « الفيلق الطبي » او فرقة المراقبة الصحية ،، حدثه عن الاصابات الاولى التي نتج عنها تحول مخيف في الاعراض ، ومس بالمعقول ، وخروج عن المالوف ،،، وتكلم الشيخ كعادته عن اول يوم هرب فيه مئات الاطفال والكبار والنساء من القرية ، الى بعيد ،،، عندها تجاوبت الاصداء ، وكان الطبال عم حميدة قد كف عن التطبيل والتزمير بعد ما كان يسمع ارجاء القرية بانغامه كل صباح ،،، قد كف عن الحركة الطبيعية دون اذن مسبق ، وكفت معه دادة مسعودة عن الزغردة في طرقات البلدة وساحاتها .

يوم القرية . عقبات مطروحة من الحساب . والعيون مشدودة الى ملاحقة الاسباب والمعطيات والظواهر ،، الجدود ، اخطاوا في اختيارهم المكان المناسب للاستيطان ،،، كانوا لا يفكرون الا في انفسهم ، تصوروا من البداهة ان وضع القرية سيظل الى الاف السنين كما بدا اول مرة في عصر الصحراء ،،، يكفيهم نظرة بعيدة الى المرعى ، والحنين الى الخيام ،، وعرجون تمر وحليب وكومة قش النخيل ، والوان اخرى تحت شمس محرقة وفي فضاء رحب لا يتقيد بحدود هندسية او معمارية .

– هل انت تقيس كل شيء هنا بهذا المقياس ؟
– وما الذي تغير هنا ؟ .
– السماء والارض ! !
– تذكر يوم ولدت ويوم كبرت وهجرت ويوم عدت .. البسراط هو السراط !
– انت تبالغ كثيرا .
– لاني أحس الاشياء واتحسسها اكثر منك .
– وكنت حاد النظرة دائما .
– وأنت . تجتر أحلام المدينة .. وهذا هو الفرق الوحيد بيننا ،،



حول كتاب

أو نحو

انسانية جديدة

ان موجات الرفض التي ما فتئت تهز اركان العالم المتقدم والمتخلف في ان واحد ، خلال السنوات الاخيرة والتي قادتها حركات الشباب بسخط حينا وبعنف احيانا ، لهي اشارات ضوء حمراء في طريق انسانية قد تكون على شفا حفرة سحيقة . ذلك ان حضارة القرن العشرين ، حضارة القمر والعقل الالكتروني كانت ولا تزال مصدر سعادة القلة القليلة من البشرية وبالعكس مصدر قحط مزمن بالنسبة لـ 85 بالمائة منها . وحضارة يفقد فيها الفرد معناه تحت الاهانة والاضطهاد بل يموت فيها الناس جوعا ، ينبغي ان تعيد النظر في نفسها وان تبحث عن صيغة جديدة للتعامل البشري . ولعل الازمات المتتالية التي تجابهها الانسانية كل يوم دليل اوضح على انخرام الاوضاع العالمية من الجزء الى الكل . وقد اثيرت هذه القضية المرار العديدة ، اشهرها ما افضت اليه أخيرا تحاليل « نادي روما » العلمية ، من جدال علمي شامل . وننقل الى القراء هذا العرض النقدي ، لاخر اعمال النادي والذي نشر بمجلة - Actuel developement - عدد 4 ، نوفمبر - ديسمبر 1974 .

ع.ص

شغلت اعمال نادي روما وخاصة تقريرها الممتاز حول تحديد النسل المنشور بفرنسا تحت عنوان « لتوقفوا تصاعد النمو » — Halte à la croissance — الاوساط الاقتصادية الى درجة ان ابحاثا جديدة عهد بها الى باحثين اخرين ، من اجل دحض نتائج النادي .

وقد اجتهدت — من بين التحاليل النقدية العلمية — مجموعة من جامعة « سوساكس » ، في ابراز ضعف اعمال نادي روما ، ونشر هذا النقد في كتاب بعنوان : « مالتوس المضاد » - L'Anti - Maltus - (1)

ان كتاب « اية حدود ؟ نادي روما يجيب » (2) هو رد النادي على هذه الانتقادات ، الا ان الكتاب يتجاوز اطار الجدال بين مختصين ، ليكون بمثابة الناقد تارة وطورا بمثابة المثقف المستنير .

واذا كان من الصعب التحمس للجدال العلمي الذي يتعلق بسلامة الاسس الرياضية التي تقوم عليها نتائج نادي روما فانه بالعكس ، ومما لا شك فيه ان هذه النتائج بالاضافة الى الاشرات والمقترحات المصاحبة لها ، على درجة كبيرة « من الاهمية » الى حد انها لا تسمح بالركون الى اللامبالاة .

ان نادي روما — بشكل عام — يضع المشكل التالي : هناك حدود للارض وثرواتها ، فان واصلنا استهلاكها بالشكل التصاعدي على النحو الذي

---

(1) — مالتوس — (1766 — 1834) من علماء الاقتصاد الانقليز، له كتاب — محاولة النظر في التناسل — تكلم فيه عن تكاثر البشر ، قال بتحديد عدد المواليد ، لا يعجز العالم عن القيام بمؤونتهم .

— المترجم —

(2) « اية حدود ؟ نادي روما يجيب ... » طبعة سوي — سلسلة اكيليبر باريس 1974 .

نفعـل نحـن ، سننتهي الى استنفاذها كليا وينبغي ان ننتظـر درجـة كبيـرة مـن الاضطـرابـات فـي نظامنا الاقتصادي الى حـد تصبح فيـه الانسانية مهـددة بالانـدثار .

وامـام هذه « الاشكاليـة » التي يؤكد نادي روما انها ترتكـز على معطيات علميـة ، ما هي الحلـول التي يقترحهـا ؟

... « ينبغـي ان نعمـل ـ فـي اطـار النـظـام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ـ على ان يغلب الصالح العـام على المبـادرة التقنـائيـة والفائـدة الشخصية وحتى على حريـة الفـرد . وان نستبدل بمثاليـة السلطة الوطنية والمصالـح الاقطـاعيـة ، هـذه المثاليـة المضرة ، ترتيبا في مستوى المجموعات او الانظمـة الانسانية المترابطة حيث تصبح الاولويـة للضرورات العليا اي ضرورات النظـام العالمي » ...

ان النزعـة المثالية الى نظـام عالمي ليست جديدة الا ان ظهـورها مع ظهور ازمـة عالمية تبـدو بالغـة الاهميـة ، يكسبها مـرة اخرى قـوة جديدة لا سيما انها تصدر لاول مـرة عن وسط علمـي لـم يشتهـر بالعيش في الخـرافات . غيـر ان مظهـر الطرافـة يقف عند هـذا الحـد !

مـرة اخـرى ، استوفيـت المشـاكـل الحقيقيـة بشكـل كامـل .

والقـارىء المنتـج المستهلك الذي هـو نحـن لا يستطيع ان يكتفي بمثل هـذا التيسيـر العلمـي . اذ نستطيع ان نحلـم بتغيير الطبيعة الانسانية كما يمكننا ان ننتظـر ظهـور عقلية جديدة ... بوسعنـا ان نعتقـد كما فعـل نادي رومـا ، ان الازمـة مـن شانها ان تخلـق ضميـراً جـديـدا . ذلك لا يغيـر شيئـا ولا يضايـق احـدا لان التعسف والاضطهـاد باقيـان .

ان « سلامـة الطويـة » هـذه ، حقيقيـة كـانت او عمليـة لا تخفي ابـدا طبيعـة المعركـة الحقيقيـة التي ينبغي ان تكون سياسيـة في جـوهـرهـا .

وفي كتاب « ايـة حـدود ؟ » انطمس المضمـون السياسي لهذه الازمـة التي وقعنـا فيها ، ليتـرك المكـان للاحكـام الصارمة على « انانية قادتنـا » ، وعلى تعامينـا وهياكلنا الذهنيـة غيـر المتلائمـة ، الـخ ... هـل ينبغي ان نذكـر نادي رومـا انه مـن المستحيل تحليـل الازمـة دون النظـر مـن خـلال اسبابها . وابـراز كنه الاسباب وتفاعلهـا ، يمـر ضرورة ، بـدراسة التطاحن الطبقي داخـل الامـم الغـربيـة . وبين هـذه الاخيرة والامـم المتخلفـة .

ان تاريخ تطـور الصراعات الاجتماعية وحركات التحـرر يمكننا من ان نفهم لـماذا اصبح النمو على ما هـو عليه . فذلك نتيجة توازن بين من يمارسون السلطـة ومن يخضعون لهـا وبما ان الطرف الاول ينـزع الى المحافظـة والطرف الثـاني ينـزع الـى الاكتساب . يظـل هـذا التـوازن دائما محـل نظر . ولكن لم يقـع البتـة الى الان اقامـة توازن مـؤقت بنسبـة اكبـر من المساواة ، وانما حدث ذلك بتضخيم « خبـزة الحلـوى » الشيء الذي مكن البعض من القطـع الاكبـر والبعض الآخـر من الفتات الزائد .

ذلك مـا تظاهر نادي رومـا بتجاهلـه ، فما يقوله هـو ان لخبـزة الحلـوى حـدودا نحن على وشك بلوغهـا ، لهـذا السبب ينبغي ان تعمـد الى قسمة جديـدة حيث يكون لكل منا نصيبه وهو ما سيجبرنا على استعمال تركيب اخـر لخبـزة الحلوى ، مغاير تمامـا : وبايجاز ، ان نستعمل كمية اقل من الزبدة وكمية اكثـر من الدقيق ، على انـه ينبغي ان تشرف بالطبـع على التركيب والقسمـة « سلطة امـمية عليا » منبثقـة من « ضميـر عـالـمي » جـديـد .

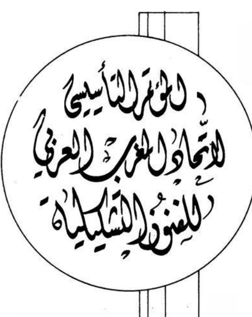
اما بالنسبة لملايين الرجال والنساء الذين يناضلون من اجـل تغييـر الـوضع الذي فرض عليهم والذين يسعون مجتمعين او متفرقين الـى السيطـرة علـى مصيـرهم ، اذا اتفق انهم مرتاحـون لهذه النتائـج العلميـة ، بوسعهم ان يصبحوا مـادة سلطة عالميـة جديدة ، قريبـة ، .قائمة على اسس علميـة ولكنهـا اكثر كآبـة ويأسا من كـل سلطة عرفناها ،،، ولنعـد قـال الدكتور العجيلي :

لا نستطيع الا ان نقـر انه عند ما لا نغير الا قليلا ، لن نغيـر شيئـا ، ولكن ، ليفهم نـادي رومـا جيدا ، بالنسبة لخلـق ظروف تغيير جذريـة ، انه لن يحدث ذلك الا بمعركـة مستمرة ضد جميع اشكال الاستغلال والاضطهاد وانه لا شيء يعطى او يمنح وانمـا كـل شيء يمكـن افتكاكـه .

ينبغي على كل منا ان يحدد موقعـه في المعـارك التي تتهيـا للظهـور غيـر ان المظهـر اللاسياسي المعتمـد بشكل لا شعـوري (او شعـوري) في عمـل نادي رومـا ، يخفي واقعـا حاسما : فليس العلـم ولا التقنيـة محايدين بل همـا يخضعـان للمنطـق الاقتصادي المسلط على العـدد الاكبـر من النـاس وذلك حتى عندمـا يبدوان كما هـو الامـر في اعمال النادي على غير اتصال بـه ، الا اذا حـدثت قطيعة مذهلـة مع النظام القائـم واوضح النـادي كيفيـة تنزيلـه وموقعـه مـن ذلك ؟

فهل يتجسد الحـد من عمل نادي رومـا وحريتـه في هـذا المظهـر اللاسياسي ام ذلك لا يعدو ان يكون حـدود كتـاب ؟

انـدري بـوليـي
تعريب : نور الدين عزيزة



اعداد : علي اللواتي

ان المؤتمر التأسيسي لاتحاد المغرب العربي للفنون التشكيلية المنعقد بتونس من الى 8 فيفري 1975 يمثل بلا شك حدثا ثقافيا هاما سيكون له اثر بليغ في الحركة الثقافية المغربية بصورة خاصة والعربية بصورة أعم .

وتاتي اهمية الحدث من حيث هو استجابة واعية لطموحات واهتمامات حقيقية تستقي مبرراتها من وجود حضاري واحد ، وتنمو على خط تصاعدي ، تحت دفع الظروف والحوافز التاريخية .

لقد سبق لفكرة المغربية ان تجسدت جزئيا ، في عدد من المشاريع الاقتصادية والاجتماعية بين البلدان الثلاثة ، ولكنها ظلت مفتقرة الى العامل الثقافي الذي يشكل دعامتها الاولى وجوهرها الاساسي ، باعتبار أن ظهورها في التاريخ القريب ، كان مرتبطا ، الى حد بعيد ، بالبنى الثقافية العربية المشتركة .

ولئن اتيح للمغاربة احيانا ، ان يلتقوا في مختلف المجالات الثقافية كالمسرح والدراسات التاريخية ، الا ان تلك اللقاءات لم تكن تطمح الى اكثر من مجرد التعارف وتبادل الاراء في اطار ندوات ومهرجانات تنظم من حين لاخر ، وهي لم تصل بعد ، الى طرح مسالة الاستمرارية التنظيمية . ان قيام اتحاد المغرب العربي في صورة مؤسسة دائمة تنظم العمل الثقافي وتخطط له ، انطلاقا من ارضية فكرية موحدة ، يجعل من الحركة الفنية ، عنصرا حيويا في طليعة العمل المغربي ويحقق خطوة هامة على طريق تنظيم الانشطة الثقافية ضمن اطار تاسيسي واحد .

نشاة الفكرة

ومما يعطي فكرة الاتحاد كل مغزاها ، ظهورها بمناسبة المعرض الاول للفنانين التشكيليين المغاربة بعاصمة الجزائر في شهر فيفري 1974 ، وهو انجاز ثقافي اجتمعت على تنظيمه الهيئات المعنية في البلدان الثلاثة . فهي اذن ، لم تنشأ عن مجرد تصور ذهني او شطحة حماسية وانما اتت لتتويج واقع ملموس ، بدأت فيه ضرورة التنسيق واللقاء بين الفنانين المغاربة تتجسم عمليا ، الى جانب التاكيد المبدئي على وحدة التاريخ والمصير . وقد كان ذلك حافزا للمسؤولين في الهيئات القطرية على دراسة مشروع الاتحاد في خطوطه العامة والاعلان رسميا ، عنه في بيان مشترك ، نشر في الجزائر بتاريخ 17 فيفري 1974 وقد اتفقوا على عقد المؤتمر التاسيسي بعد سنة . في تونس .

بناء على طلب الزبير التركي رئيس التجمع القطري التونسي .

المؤتمر التاسيسي

وفي الثالث من فيفري 1975 ، وبمناسبة المعرض الثاني للفنانين المغاربة ، اجتمعت وفود من تونس والجزائر والمغرب ، في مؤتمر تاسيسي بدار الثقافة ابن خلدون بتونس ، لمناقشة القانون الاساسي ووضع برنامج عمل لثلاث سنوات ، وهي الفترة التي تفصل بين دورتين للمؤتمر العام . وقد حددت اهداف الاتحاد في مقدمة القانون الاساسي وتركزت بالخصوص ، على تنمية العلاقات بين الهيئات الفنية في الاقطار الثلاثة وتاكيد شخصية الفنان وحريته في الابداع الفني بمختلف الوسائل ومنها :

- تعريف الفنانين في اقطار المغرب العربي بعضهم ببعض من خلال تنظيم لقاءات مستمرة .
- تبادل المعارض الفنية على مستوى الاتحادات ، وتنظيم معارض دورية على مستوى كافة الفنانين في اقطار المغرب العربي .
- مساعدة الفنانين في اقطار المغرب العربي ، على تبادل الزيارات والمعارض الشخصية
- عقد المؤتمرات والندوات الفنية .
- العمل على رعاية الفنان وحماية حقه وتمكينه من حرية التعبير الفني .
- العمل على تسهيل انتقال الفنانين ونقل اعمالهم الفنية بين اقطار المغرب العربي
- اقامة التعاون بين الهيئات الفنية القطرية في البلدان المنضمة للاتحاد ، وبين اتحاد المغرب العربي للفنون التشكيلية والاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب وكذلك مع سائر الاتحادات الفنية العالمية .

بنية الاتحاد

وقد افضت المناقشات الى تحديد بنية الاتحاد على النحو التالي :

1) يتكون اتحاد المغرب العربي للفنون التشكيلية من التجمعات الفنية الممثلة للفنانين في اقطار المغرب ، وهي الاتحاد القومي للفنانين التشكيليين بتونس والاتحاد الوطني للفنون التشكيلية بالجزائر والجمعية المغربية للفنون التشكيلية ، وتقرر ان يبقى المجال مفتوحا لانضمام كل من ليبيا وموريطانيا ، اذا بدرت منهما رغبة في ذلك . وقد تم الاتفاق على ان يكون مقره الدائم بعاصمة الجزائر .

2) اما هيئات الاتحاد فتتكون من :
- المؤتمر العام ، وهو السلطة العليا للاتحاد ؛ وعلى ضوء قراراته ، يحدد خط عمل المكتب التنفيذي ، ويتكون من ممثلي التجمعات القطرية المفوضين من قبل الهيئات الفنية في البلدان الثلاثة ، وفقا للعدد المحدد ، باتفاق التجمعات المنضمة للاتحاد . ويلتئم المؤتمر العام في دورة عادية ، مرة كل ثلاث سنوات ، كما يمكن له ان ينعقد بصورة استثنائية ، بناء على طلب المكتب التنفيذي او بطلب من ثلثي الاعضاء .

3) المكتب التنفيذي
وهو هيئة الاتحاد الدائمة ويعمل على تطبيق مقررات المؤتمر العام وهو مسؤول امامه . ويتكون من ستة اعضاء ، عضو اول ونائب له عن كل تجمع قطري ، ويجتمع مرة كل ستة اشهر ومن مهامه ، اعداد جدول اعمال المؤتمر العام والتقريرين الادبي والمالي ومشروع الميزانية لعرضها على مصادقة المؤتمر .

وقد تشكلت الهيئة الحالية للمكتب التنفيذي كالاتي :

- الكاتب العام : الزبير التركي ونائبه الصادق قمش من تونس من المغرب
- الكاتب : فارس بوخاتم ونائبه محمد الشريفي من الجزائر
- امين الصندوق : محمد شبعة ونائبه البشير الدمناتي من المغرب

اما مالية الاتحاد فتتالف من مصادر مختلفة ، كرسوم اشتراك التجمعات القطرية المنضمة للاتحاد ، مداخيل المشاريع الفنية والمساعدات المالية من حكومات المغرب العربي والهيئات الخ ...

المشاريع :

وقد تضمن تقرير لجنة البرامج المعروض على المؤتمر ، عددا من المشاريع ، منها ما يتعلق بالجانب الدراسي والوثائقي لعمل الاتحاد ، ومنها ما يختص بالمعارض وبخصوص الدراسات والوثائق ، تقرر عقد ندوات دورية ، بالتناوب بين اقطار المغرب العربي ، تضبط مواضيعها ، حسب توصيات المؤتمر ، من قبل المكتب التنفيذي . كما تقرر جمع الدراسات المقدمة خلال هذه الندوات ، في كتيبات ونشريات توزع على النطاق المحلي والعربي ، وتم الاتفاق على تكوين مادة وثائقية متالفة من شفافات ثابتة لاعمال فناني المغرب العربي ، يقع

الارضية الفكرية :

لقد اتيح لاعضاء المؤتمر من خلال نقاشاتهم ، طرح جملة من المشاكل النظرية ، حول الابداع الفني ودوره في المجتمع العربي عامة ، والمغربي على الاخص . ولئن كانت الاراء على شيء من الاختلاف في بعض جزئياتها ، الا انها كانت تترجم عن مشاغل فكرية وفنية واحدة وترمي في مجموعها الى ايجاد ارضية فكرية مغربية ، يمكن الانطلاق منها الى تاصيل الفن التشكيلي في عاداتنا الثقافية ، والنظر في المعنى التاريخي لهذا الفن في بلادنا . وقد ادى ذلك الى طرح قضايا كثر الحديث فيها ، كقضية الاصالة والمعاصرة والالتزام . وكان نقاش المؤتمرين لهذه المسائل بعيدا . لحسن الحظ ، عن المهاترات اللفظية والمضاربات النظرية حيث انهم كانوا مطالبين بتقرير برامج عمل محددة الاهداف ، واضحة المعالم . ولعلهم شعروا بان قضية الاصالة والمعاصرة لا تعني التلفيق بين الموروثات الثقافية والاساليب المفرزة خارج البيئة القومية ، وانها كثيرا ما طرحت بشكل سيء ، اذ ان تجربة الخلق الفني لا يمكن ان تقوم على التحجر ومحاكاة الانماط القديمة ، بل تعتمد الوعي بالواقع في موضوعيته الشاملة قصد الملاءمة بين متطلباته ومتطلبات الابداع . وهي بذلك تعكس حتما ، اصالة المجتمع وطريقته الخاصة في حل المشاكل الانية التي تعترضه .

وقد توصل المؤتمر فعلا ، في توصياته العامة ، الى رسم الخطوط العريضة لهذه الارضية النظرية ، واوصى بتعميقها في لقاءات مقبلة . ويرى المؤتمرون ان الحركة التشكيلية المغربية جزء من العمل الثقافي العربي ، ويلحون على ربط هذه الحركة على كل المستويات ، باهتمامات الامة العربية وبقضاياها التاريخية وخاصة بقضيتها الاولى : فلسطين ، واعتبار قيام الاتحاد المغربي خطوة هامة في سبيل اثبات الهوية الثقافية العربية ومؤسسة مكملة للاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب . وقد تمثل ذلك في دعوة الفنان اسماعيل شموط ، الامين العام للاتحاد العربي ، لحضور المؤتمر .

وقد وردت توصيات بضرورة القيام بعملية جرد شامل للمفاهيم المتعارف عليها في بلدان المغرب العربي لاخذ فكرة واضحة بقدر الامكان ، عن التصورات الفنية المختلفة وتحديد مصادرها الفكرية والثقافية ومحاولة تاريخ لها ، قصد استعمالها كمنطلق دراسي مشترك بين الفنانين المغاربة والخروج منها بنظرة شمولية لتطوير الحركة التشكيلية .

كما اولى المؤتمر قضية الابداع الشعبي ، اهمية كبيرة ، وجعل منها حجر الزاوية في تطوير الحركة الفنية باعتبار ان الابداع الشعبي كان دائما الواجهة الحقيقية لتراثنا التشكيلي عبر العصور وحيث ان الفنان كان مرتبطا في عملية الخلق باهتمامات المجموعة التي يعيش فيها وقد اوصى بالعمل على :

– توثيق الصلة بين نظرة الفنان المغربي المعاصر والتصورات التشكيلية للجماهير ، عن طريق التفاعل والمعايشة ، لا عن طريق المحاكاة السطحية .
– اعتبار ان الابداع الشعبي يمثل عملا فنيا اصيلا ، على الفنان ان يهتم بدراسته وان يتفاعل معه ، قصد المساهمة في تطويره .
– احياء الابداع الشعبي (الصناعة التقليدية) واعطائه البعد الانساني الذي كاد يفتقده باخضاعه للتصنيع الآلي .

والى جانب ذلك ، ناقش المؤتمر دور الفنان في المجتمع واكد على ضرورة مساهمته في تطوير المعمار المدني من الوجهة التشكيلية ، واعتبار وجوده الى جانب المهندس ، عنصرا اساسيا في ارساء سنن معمارية اصيلة ، وخلق محيط متجدد تبرز فيه الشخصية المغربية العربية .
والح المؤتمر على ربط الصلة بين الفنان التشكيلي وبين الفنانين العاملين في مختلف القطاعات الاخرى كالموسيقى والادب والمسرح والسينما . باعتبار تكامل الخلق الفني بين هذه الانشطة المختلفة .

وقد احتوت اللائحة العامة على توصيات اخرى ، منها :

– السعي لدى جهات الاختصاص ، في البلدان الثلاثة ، لمراجعة برامج التعليم في معاهد الفنون الجميلة ، وفقا لروح المبادىء العامة التي قررها المؤتمر ، وتنشيط التبادل بينهما على كل المستويات .
– تطوير الفنون الخطوطية (غرافيك) نظرا لاهمية هذه الفنون في توعية الجماهير وتأصيل ذوقها الفني .
– واخيرا ايجاد صيغة عملية للتنسيق بين برامج اتحاد المغرب العربي والاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب واعداد خطة عمل مغربية للتعريف بالفن التشكيلي العربي في العالم والاسهام في المجهود الثقافي العربي العام .

ان انبعاث اتحاد المغرب العربي للفنون التشكيلية يقيم الدليل على وعي الفنان المغربي برسالته في المجتمع الحديث وتوقه الى تاكيد هويته الثقافية التي عملت التبعية والاستلاب الاقتصادي والفكري ، على طمسها . وليس من المبالغة أن نؤكد ، مرة اخرى ، على اهمية هذا الانجاز كحدث له وزنه في تاريخ الثقافة العربية المعاصرة .



تبادلها بين التجمعات القطرية ، وطبع بطاقات بريدية للاعمال الفنية ، توزع على صعيد واسع ، وانتاج فيلم عن الفن المغربي . اما بخصوص المعارض ، فقد قرر المؤتمر المحافظة على تنظيم المعرض السنوي الشامل للفنانين المغاربة ، في التاريخ نفسه (شهر فيفري من كل سنة) وحث على تبادل زيارات الفنانين عن طريق التجمعات سنويا ، ولمدة خمسة عشر يوما ، على ان ينظم الفنان الضيف معرضا لاعماله خلال تلك المدة . كما اوصى باقامة معارض مختصة تنظمها التجمعات دوريا ، وبالتناوب ، وتضبط اهدافها بالتشاور مع المكتب التنفيذي ، منها معارض للرسم والنحت والفن الخطوطي (الغرافيكي) ومعرض لفنانات المغرب العربي (بمناسبة سنة المرأة) ومعارض لرسوم الاطفال بالمغرب العربي ، والفنون التقليدية ، وفنون الهندسة المعمارية الخ ...

والى جانب ذلك ، تشكلت لجنة خاصة لاعداد مشروع مجلة تعنى بالفنون التشكيلية وتحمل اسم : التشكيلي المغربي ، تصدر بعاصمة الجزائر .

من 3 الى 18 فيفري 1975

في النصف الاول من شهر فيفري الماضي ، شهدت تونس لاول مرة معرضا موسعا للفن المغربي ، بقاعتي يحي والاخبار . وقد جمعت هذه التظاهرة اعمالا فنية مختلفة من الجزائر والمغرب وتونس ، بمناسبة انعقاد المؤتمر التأسيسي لاتحاد المغرب العربي للفنون التشكيلية . ويأتي هذا المعرض الثاني للفنانين المغاربة بعد مرور سنة عن لقائهم الاول بعاصمة الجزائر (فيفري 1974) وهو يرمي كسابقه ، الى ارساء أسس عملية للحوار في سبيل نظرة تشكيلية متجذرة في الواقع المغربي .

ان مرحلة تكتيل الجهود التي يمر بها العمل الثقافي المغربي ، تكسب هذا اللقاء ابعادا تتجاوز مجرد التقييم الفني وضبط التقنيات والانماط الجمالية . ولعل اهمية المعرض تتمثل في كونه اول جرد لاهم النزعات والاساليب الفنية في البلدان الثلاثة وانعكاسا لواقع تاريخي بجوانبه السلبية والايجابية على السواء .

وقد كان للقسم التونسي من المعرض صبغة العرض التاريخي للحركة التشكيلية منذ بدايتها مع الرواد التشبيهيين ، الى المحدثين ، دعاة اللاشكلية والتجريد بمختلف اتجاهاته . وتمكن الفنانون التونسيون ، لاسباب عملية ، من عرض بعض

النماذج من النحت والنسيج مما اكسب مشاركتهم طابعا اكثر تنوعا وشمولا . وقد يكون في الطريقة التاريخية التي عرضت بها المجموعة التونسية بعض التنافر والتشتت الا ان الحرص على تمثيل كل الاتجاهات وكل الاجيال . كان اختيارا اساسيا يتجاوز الاعتبارات الفنية البحتة ، كما ان القضايا المطروحة على المؤتمر التاسيسي ، كانت في المفهوم التونسي ، تفرض عرض الواقع الفني بكامل الموضوعية .

وقد انتحت المشاركة الجزائرية بدورها ، طريقة العرض التاريخي مبرزة كذلك اتجاهات مختلفة مع التركيز على التشبيهية . ويغلب على اللوحات المعروضة طابع الموضوع الشعبي والحكاية مع اهتمام خاص بالالوان الصارخة والتلاعب بالمؤثرات الضوئية .

اما القسم المغربي من المعرض فهو يبدو اكثر تجانسا من حيث التعبير والتقنيات . ويمكن ارجاع ذلك الى انتماء الفنانين المشاركين الى تجمع فني محض لا يقوم على اعتبارات نقابية . ويرتكز عمل هؤلاء الفنانين ، على ارضية فكرية موحدة تدعو بالاخص ، الى اعادة النظر في التراث والارتباط به لا عن طريق المحاكاة السطحية ، بل باستشفاف رموزه ضمن نظرة تجريدية خالصة . ولئن برزت هذه المشاغل في بعض الاثار باستعمال رموز الوشم والالوان المحلية ، الا ان المعروضات بقيت ، في مجموعها ، خارجة عن الاطار النظري ، الذي يجمع - ذهنيا - بين اعضاء التجمع المغربي ، اذ يلمس في هذه الاعمال تباين الاساليب وتنافر التقنيات وتعدد التاثيرات التي لا صلة لها بالموروثات الثقافية . مما يزيل عن المجموعة ، مظهر التجانس الذي قد يطالع الزائر لاول وهلة . على ن اهم ما يميز الفنانين المغاربة هو اصرارهم على توسيع آفاق الابداع ، وربطه بالقضايا الحيوية للمجتمع عن طريق التجربة وعدم التقوقع داخل الاختيارات الفردية الضيقة .

والمهم ، ان تجمع مثل هذه المعروضات المتنوعة من البلدان الثلاثة ، قد ساعد على تحديد خطوط عملية هامة لبرنامج المؤتمر التاسيسي كما اعطى الجمهور التونسي صورة اوضح عن مشاغل الفنانين المغاربة وتصورهم للالتزام بالقضايا التي يعيشها المجتمع المغربي . وليس المقام هنا للمفاضلة بين اسلوب واخر ، في كيفية التطرق لهذه القضايا . كما انه ليس من المهم استعراض التاثيرات الاجنبية التي تطبع التعبير التشكيلي في بلدان المغرب والتي تؤدي به احيانا ، الى شبه انفصال عن واقعه التاريخي . وانه من مزايا هذه اللقاءات - ان تكررت - ان تقرب بين الاراء والاساليب في سبيل بعث فن عربي حديث في بلادنا .

علي اللواتي

محمد مواعدة

الشعر التونسي المعاصر

تصدر لنا دور النشر من حين الى آخر، بعض المؤلفات الادبية في القصة والشعر والمسرح. لكن الذي يساير الحياة الثقافية بتونس ويتابع حركيتها خلال هذه السنوات، يلاحظ قلة الكتابة في ميدان الدراسة الادبية المعرفة بظاهرة من الظواهر أو بشخصية من الشخصيات التي كان لها دور بارز في دفع تيار ادبي، خلال فترة معينة من الزمن. ويبدو اننا في اشد الحاجة الى هذا الصنف من الكتابة حتى يكون تطورنا الادبي الحالي، مبنيا على اسس متينة ترتبط بالجذور الفكرية والحضارية لهذه البلاد.

ولا اعني بذلك ما نطالعه احيانا من مقالات وبحوث مختصرة في بعض الصحف والمجلات، ولكنني اعني الدراسة الشاملة «التعريفية» التي لا تكون سطحية، سريعة ولا متخصصة، متعمقة في عنصر جزئي محدود، لان التخصص لا يمكن ان يكون ناجعا الا بعد معرفة شاملة للميدان المدروس. وكم هم الباحثون الذين اطلقوا احكاما او توصلوا الى نتائج يبدو بعدها عن الصواب اذا وضعت في اطارها العام ونزلت المنزلة الحقيقية فيما يتعلق بها من الظواهر والظروف.

وثمة أسباب أخرى تؤكد على أهمية هذا الصنف من الدراسة : منها التعريف بمراحل ادبنا التونسي ، وهو الادب الذي بقي مجهولا في بقية البلدان العربية ، فلا يعرف مثقفوها الا الشابي . ومن المعلوم أن الباحثين في أغلب هذه البلدان ، قد درسوا أهم مراحل آدابهم ولم يبق على الباحثين التونسيين الا القيام بهذا العمل . ومن هذه الاسباب أيضا ، تمكين الجيل الجديد الذي يسعى الى الانغماس في التيارات الادبية الغربية الحديثة ، من الاطلاع على الحركات التجديدية التي ظهرت في الادب التونسي ، خلال فترات زمنية مختلفة ، حتى يعلم أن الثورة على القديم ، ليست خاصة بعصر معين وأن الدعوة الى التجديد ، ليست مقصورة على جيل دون آخر .

وفي هذا الاطار ذي العناصر المتعددة ، صدر كتاب الاستاذ محمد الصالح الجابري : « الشعر التونسي المعاصر » (1870 — 1970) (1) .

والمؤلف أديب معروف في ميدان القصة والشعر ، كما كتب عدة بحوث تتعلق بالادب الحديث والانتاج الشعري منه بوجه خاص (2) . ويتجاوز بعمله الجديد ، اطار الصحف والمجلات ، الى كتاب ضخم الحجم يحلل فيه باطناب أهم المراحل التي مر بها الشعر التونسي خلال قرن من الزمن ، وأبرز التيارات الادبية والفكرية التي ظهرت بتونس في هذه المدة الحبلى بالاحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية . فالموضوع هام في حد ذاته كما ان الاطار الزمني الذي بحث فيه ، طويل والمسيرة شاقة تتطلب من دارسها صبرا ومثابرة وطول عناء واستقصاء . وهذه الخصال التي يجب على الباحث أن يتحلى بها ، ليست غريبة عن الاستاذ الجابري . فما هو منهجه في تأليف هذا الكتاب ؟ وما هي أبرز التيارات الشعرية التي ظهرت في تونس خلال قرن من الزمن ؟ وما يمكن للدارس أن يستفيد به من مطالعته لهذا السفر الضخم من الناحية الادبية خاصة ، والفكرية عامة ؟ ان ما دفع المؤلف الى دراسة هذا الموضوع هو شعوره الحاد ، بحاجة حياتنا الادبية الى هذا الصنف من البحث الذي « يمسح » جانبا هاما منها ويكشف عن أهم مراحلها وتياراتها ، وذلك مفيد للدارسين الذين يريدون التخصص والتعمق . وقد اختار الشعر بالذات لانه يرى : « أن الشعر كان وسيظل السفر الاول من أسفار التراث العربي لهذه الامة العربية » (3) كما حدد اطارا زمنيا من سنة 1970 وهي بداية لفترة سماها المؤلف « بعهد الافاقة » ، وينتهي الى سنة 1970 التي تشير الى ظهور تيار شعري جديد لم يتبلور بعد وهو في حاجة الى مزيد من التمييز والوضوح (4) أما المنهج الذي اتبعه في التاليف فقد رسمه في تقديمه الذي جعل له عنوان « هذه المحاولة » ، وهو منهج لا يعتمد على تقديم مختارات تعرف بالشعر التونسي فقط ، كما أنه لا يعتمد على القيام بدراسة تعرف بالاتجاهات والتيارات المختلفة ، وانما اختار « المزاوجة » بين الطريقتين لما بينهما من صلة ، من حيث تحليل الموضوع واطاره الفكري والحضاري . من المعلوم أن هذا يتطلب اختيارا للشعراء حسب صلتهم بالشعر أولا ، ثم حسب تمثيلهم لتيار أدبي معين . ولذلك فان المؤلف لم يتناول منهم الا من يرى أنهم « ممثلون للشعر اما لمداومة الكتابة ولو بعد طول أمد ولفترات متقطعة . وأما لان الشعر كان بالنسبة اليهم قضية وحياة (5) .

وقد اجتهد « في اظهار ميزات أي شاعر وتقييمه على ضوء من عاصره ، وليس من خلال « ذوقه الشخصي » ويكون بذلك قد وضع الشاعر في اطاره الادبي والحضاري الذي عاش فيه ولا يكون تقييمه خاضعا لمقاييس حديثة ظهرت نتيجة عوامل حضارية تغاير العوامل التي كانت توجد في عهد الشاعر نفسه .

هذا هو منهج المؤلف بايجاز كما رسمه في تقديم الكتاب فما هي اذن أبرز التيارات الشعرية التي تناولها بالبحث ؟

قسم الاستاذ الجابري كتابه الذي يتجاوز السبعمائة صفحة من الحجم الكبير ، الى خمسة فصول على الصورة التالية :

1 — **الفصل الاول :** خصصه لدراسة الشعر فيما بين سنتي : 1869 — 1881

2 — **الفصل الثاني :** حلل فيه التيارات الشعرية التي ظهرت فيما بين سنتي 1881 — 1914

3 — **الفصل الثالث :** تناول فيه الحركة الشعرية وأهم مؤثراتها في فترة ما بين الحربين العالميتين .

4 — **الفصل الرابع :** عرف فيه بالمظاهر الادبية والشعرية خاصة فيما بين سنتي 1934 — 1943

5 — **الفصل الخامس :** درس فيه أهم التيارات الشعرية التي ظهرت وتطورت بين سنتي 1943 — 1970

ان التامل في هذا التقسيم الذي
ان التامل في هذا التقسيم الذي
اعتمده المؤلف لدراسة الحركة الشعرية بتونس خلال مدة معينة من الزمن يدفعنا الى ابداء الملاحظات التالية :

1) ان المؤلف اعتمد التقسيم الزمني في دراسة الشعر وتحديد أهم مراحله وتغيراته ، ومن المعلوم ان هذا النوع من التقسيم تقليدي في نظرته الى حركية « الظاهرة الادبية » ، لان هذه ككل الظواهر الانسانية لا يمكن تحديدها «بنقطة» تاريخية معينة . فبروزها وتطورها واختفاؤها ، نتائج حتمية لتفاعل عدة عوامل ، تفاعلا داخليا معقدا في بنيته وفي كيفية تفسيره

---

(1) أصدرت هذا الكتاب الشركة التونسية للتوزيع سنة 1974 ، نشير اليه في احالاتنا بـ : « الشعر ... » .

(2) للمؤلف رواية « يوم من ايام زمرة » مجموعة قصصية بعنوان انه الخريف يا حبيبتي — من بحوثه العديدة في الادب : « الشعر التونسي الحديث بمجلة الاداب ، عدد أفريل 1972 .

(3) الشعر ... ص 13 .

(4) ، (4) — نقد أبدى الاستاذ الجابري رأيه في هذا التيار الشعري في مقال صدر بمجلة الاداب ، أفريل 1972 .

(5) « الشعر ... » ص 16 .

وصيرورته . ولعل الاستاذ الجابري قد اعتمد على هذا التقسيم لتقريب البحث الى الاذهان وربطه باطار زمني متصل به ومتاثر باهم عناصره الحضارية .

2) ان التواريخ المذكورة في تحديد فصول الكتاب منها ما يشير الى فترة تحول أو تجديد في الميدان الادبي وأعني بذلك سنتي 1870 و 1970 ، ومن هذه التواريخ ما له أهمية سياسية سواء في المستوى الوطني أو في المستوى العالمي وهي تشير الى منعرجات لها صلة بحياة الشعب التونسي . لكن هناك بعض التواريخ التي لا تقل عنها أهمية ولم يذكرها المؤلف وأعني خاصة سنة 1956 : سنة حصول تونس على الاستقلال والحرية والتي كان لها الاثر الكبير في الحياة الفكرية والادبية بهذه الربوع .

3) ان هذه التواريخ تبرز الاهمية التي أولاها المؤلف للاحداث السياسية واثر هذه الاحداث في ظهور التيارات الشعرية المختلفة . لنا أن نتساءل : هل تاثر الشعر التونسي بهذه الاحداث فقط أم اثرت فيه عوامل اخرى عديدة داخلية وخارجية ؟ اننا سنشير الى ذلك خلال هذا التقديم .

حركة الانبعاث :

نبه المؤلف في بداية الفصل الاول من الكتاب ، الى أن الشعر التونسي الذي افاد من مختلف التيارات السياسية الفكرية والادبية التي ظهرت بهذه البلاد ، خلال عصور عديدة . قد « نشأ نشأة تعاطفية بعيدا عن ريح المدارس الا فيما ندر . وفي أطواره المختلفة ، كانت أواصر الوجدان والتواشي هي التي تشد جماعته الى بعضها بعضا » (1) ويبرر ذلك بعدم وجود مدارس ادبية يمكن للشعراء الانضواء تحتها والتطور داخلها . اما الصورة الاولى لوجود شعراء تجمع بينهم العاطفة والود ، فيعود ظهورها الى استعمار الجزائر سنة 1830 ، وهو من الاحداث الهامة « التي افضت الى ما يمكن أن يسمى عهد الافاقة » (2) ثم يحلل المؤلف الاوضاع التي كانت عليها تونس في منتصف القرن التاسع عشر وما تم من «اصلاحات» دعمها وجود نخبة ، كان يقودها الشيخ محمود قابادو ، تسعى الى التغيير والتطوير . وذكر بايجاز . ما قامت به هذه النخبة خلال النصف الثاني من القرن 19 م وخاصة في عهد خير الدين وانصاره : الشيخ محمد السنوسي ، وبيرم الخامس صاحب كتاب « صفوة الاعتبار » وابن أبي الضياف صاحب « اتحاف أهل لزمان » . وقد كان اكثر هؤلاء يقول الشعر ، الا ان النثر هو الذي غلب على انتاجهم . لانه الاسلوب الذي يلائم أكثر النهج الذي انتهجوه في الدعوة الى الاصلاح . أما الشعر الذي ظهر في تلك الفترة السابقة لدخول الاستعمار الفرنسي الى تونس فقد اطلق عليه المؤلف « المتذمرات » ويعني بذلك القصائد التي أبدى فيها أصحابها تذمرهم مما كانت عليه البلاد ، وخاصة ، من تصرفات مصطفى خزندار أو ابن اسماعيل المتمثلة في اختلاس الاموال واستغلال المناصب السياسية وصلة القريب بالباي للعبث بمصالح الشعب . ومن هذه « المتذمرات » القصيدة التي قالها بيرم الخامس . اثر هجرته من البلاد ومطلعها (3) :

الا يا رسول الله ظهر بلادنا
فقد جار في الانحاء ظلما مخاصمي

الا أن هذا التذمر انتقل الى ثورة ونقمة عند إحتلال فرنسا لتونس سنة 1881 ، وتجلى ذلك في قصائد عديدة باللغتين الفصحى والعامية .

ويرى الاستاذ الجابري أن الشاعر الذي يمثل « النموذج الاهم » لعهد الافاقة ويجسم ما امتاز به من خصائص ، هو الشيخ محمود قابادو (1812 – 1871 م) ولذلك افرده ببحث طويل اشار فيه الى نسبه ونشاته وحلل شخصيته وما لها من مركبات مختلفة متناقضة . ومن الملاحظ أن المؤلف قد أطال في هذا الجانب وذكر تفاصيل عديدة لا تفيد كثيرا في فهم شعر قابادو ولا أظن أنها تفيد أيضا في فهم شخصيته الادبية والعلمية . ولعل العنصر الذي يستحق الاهتمام في هذا البحث هو الجزء المتعلق بالشعر وخاصة وطنية قابادو وحبه لبلاده ، فما من ممدوح لديه الا وتونس مقطع من مقاطع القصيدة التي تصاغ له » (4) ولذلك سخر قسما هاما من شعره للدعوة الى الاصلاح ورفض الاذعان للمستعمر « وهو اول شاعر يذكر الفرنسيين ويحرض على مقاومتهم مسجلا بذلك انخراط الشعر في معركة التحرير » (5) .

وقد قال قابادو الشعر في كل الاغراض وكان له دور هام في الاصلاح ، الا أن من أبرز ما خلفه من « مكتسبات » ، بالاضافة الى اثره في تلاميذه هو « تحول الشعر على عهده من وضعية التشبث بالمدائح والاهاجي والمفاخرة الى شعر اندمج بمجرى الحضارة وتجرأ على نقل شيء عنها والدعوة اليها . وكذلك ، نشأة الشعر العصري الذي انبثق اساسا من المسائل التجديدية التي ترددت في شعره (6) وبهذا يكون قابادو قد مهد للذين سيأتون من بعده في ميدان الاصلاح . كما كان همزة وصل بين حركة الانبعاث الشعري وبين ما ظهر بعدها من تيارات شعرية جديدة .

الشعر العصري :

خصص المؤلف قسما هاما من الفصل الثاني ، الى مصير حركات الاصلاح سواء بتونس أو في بقية بلدان المغرب العربي والمتمثل في فشل أصحابها وتشتت روادها كما حدث في المشرق العربي .

الا ان هذه الحركات قد خلقت مجالا ذهنيا جديدا وهيات النفوس

---

(1) « الشعر ... » ص 19 .
(2) نفس المصر – ص 21 .
(3) نفس المصدر – ص 27 .
(4) نفس المصدر – ص 37 .
(5) نفس المصدر – ص 48 .
(6) نفس المصدر – ص 52 .

والعقول الى تقبل الافكار الجديدة الملائمة للتطور الحضاري . وساعد على ذلك تطور الحركة الصحفية فكثرت الجرائد حتى بلغ عددها الاربعين ، في مدة ما بين اواخر القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين . وقد أطنب المؤلف في بحث موضوع « الصحافة والتطلعات السياسية » وهو عمل مفيد من ناحية التعريف بالصحف الصادرة في تلك الفترة ، وبأصحابها وباتجاهاتها السياسية ولكن لا أظن انه مفيد كامل الافادة ، بالنسبة الى موضوع الكتاب وهو الشعر التونسي المعاصر .

اما اثر ذلك في الادب ، فيبدو في صدور مجلتين (1) كان لهما دور في الحياة الادبية عامة ، وهما « مجلة السعادة العظمى » (سنة 1904 م) لصاحبها الشيخ محمد الخضر حسين ، ومجلة « خير الدين » (سنة 1906 م) للسيد محمد الجعايبي . وتبدو اهمية المجلتين من حيث النوع ، اذ أن المجلة تختلف عن الجريدة اليومية باعتبارها وسيلة تثقيفية اكثر تعمقا واحاطة بالمواضيع المدروسة . وكذلك من حيث اهتمامهما بالادب اهتماما خاصا . فقد خصصتا ابوابا قارة لنشر الانتاج الادبي فكان لذلك اثره في تطوير « فنون الابداع » . ويؤكد هذا « ما جاءت به كلتا المجلتين من الجديد اذ قادت ـ السعادة العظمى ـ أول ثورة على الشعر وجاءتنا بمفهوم الشعر العصري بينما اقدمت ـ خير الدين ـ على نشر أول قصة تونسية » (2) .

وقد حلل الاستاذ الجابري بتفصيل هذا اللون من الشعر المسمى بالشعر العصري الذي ظهر في اواخر التاسع عشر وازدهر في اوائل هذا القرن ، خاصة ، بعد المقالات العديدة التي نشرها الاديب عبد العزيز المسعودي بمجلة « السعادة العظمى » ثائرا فيها على طغيان تيار المدح والهجاء . وموضحا الشعر العصري باعتباره الشعر الذي لا يتناول الاغراض القديمة وانما يتناول الاقتصاد وكل ما يتعلق بمظاهر الحضارة الجديدة . ويهدف قائل هذا الشعر الى « التأثير في الهمم وتنبيه الاحاسيس الشريفة فتهب الى القيام بواجب الحياة » (3) ودعا انصار هذا اللون الشعري الجديد الى ضرورة الابتعاد ـ من الناحية الاسلوبية على التهافت على ترصيع الكلام بجواهر البديع وتدبيجه بحلل المجاز والتشابيه » (4) وموضوع الشعر العصري والهدف من قوله جعلاه مرتبطا بالاتجاهات الوطنية « ومرادفا للشعر الوطني » وقد وجدت تيارات شعرية مناهضة لهذا الشعر منها ما يدعو الى التمسك بالاسلوب الشعري القديم ومنها ما كان يسمى « بتيار تشحيذ الاذهان والقرائح » وهو تيار يعتمد على القيام برياضات شعرية تبدو في التخميس والتشطير والتسبيع لابيات شعرية قديمة . والغرض من كل ذلك ابعاد القراء عن النمط الشعري الجديد الذي يدعو الى حفز الهمم والتحرر ومسايرة الحضارة الحديثة . وكثر الخصام بين انصار القديم وبين الثائرين عليه لكن تلك الخصومات لم تزد الا في دعم الشعر العصري .

تجديد البناء الشعري :

أولى المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب اهتمامه بموضوعين لاحدهما صلة بالاخر . اولهما الاطار السياسي الذي وجد بالبلاد التونسية في فترة ما بين الحربين العالميتين وهو اطار تميز بظهور هياكل سياسية منظمة « خاصة منها الحزب الحر الدستوري » ، ولا شك ان ظهور هذه الهياكل علامة على تطور الوعي الوطني وتصاعده اذ هو تجسيم للافكار والمبادىء التي كانت شائعة في ذلك العهد .

أما الموضوع الثاني فهو دور الصحافة وما كانت تنشره من آراء وما كان يحدث بينها من خلاف نتيجة للاتجاهات التي كانت تمثلها سواء منها الوطنية أو الاستعمارية .

ولم يبق الشعر بمعزل عن الميدان السياسي والاطار الصحفي وازداد الشعر العصري انتشارا وكثر انصاره ومريدوه في حين قلت الاصوات الناقدة له ، المعارضة لاسلوبه ومضمونه (5) وظهرت الى جانب ذلك دعوة الى أن يكون الشعر ملامسا للواقع ، مستجيبا صراحة للسياسة الوطنية ومرتبطا بتنظيمات حزبية . وقد تزعم هذه الدعوة الى الالتزام الشيخ محي الدين القليبي احد قادة الحزب الدستوري القديم معبرا عن ذلك في مقالاته المختلفة وخاصة في تقديمه لديوان الشاعر الشاذلي خزندار .

وبالاضافة الى هذا التيار الذي يتعلق بمضمون الشعر ظهرت دعوة الى التجديد في الصياغة الشعرية تزعمها الاديب زين العابدين السنوسي ، واعتمد في ذلك خاصة على الذوق الذي يتغير بتغير الاطار الحضاري تماشيا مع تطور الانسان في مجالات الحياة المختلفة . ويرى الاستاذ الجابري « أن السبب الملح الذي جعل الشعر التونسي يقفز هذه القفزة خلال هذه المرحلة الوطنية العسيرة يتصل مباشرة بالآفاق الآهلة بصدام الدم .. يتصل بالاحساس الحاد بالغيظ والقهر .. ويتصل أيضا باللحمة العاطفية التي شدت مفكريه وشعراءه الى بعضهم فارتبطوا ارتباطا مجذرا والتحموا بالواقع » (6) كما اكد على الصلة المتينة التي كانت تربط بين « الشعراء والاحداث الوطنية » ، لان الظروف التي كانت تعيشها تونس في تلك الفترة هي من الحدة ما جعل الشعراء يلتصقون بالعمل الوطني ويعبرون عنه في اشعارهم ويتجاوبون مع احداثه التي اصطبغ البعض منها بصبغة دموية صارخة .

(1) لم يذكر المؤلف مجلة « تحقيق الامل » الصادرة سنة 1905
(2) « الشعر ... » ص 69 .
(3) « الشعر ... » ص 82 .
(4) نفس المصدر ـ ص 83 .
(5) نفس المصدر ـ ص 117 .
(6) نفس المصدر ـ ص 129 .

واختار المؤلف شاعرين يمثلان – في رأيه – أهم الاتجاهات الشعرية السائدة في فترة ما بين الحربين وهما الشاذلي خزندار ومصطفى آغا . وأطال في الحديث عن الشاعر الاول متتبعا مختلف مراحل حياته وخاصة مساهمته في النشاط الوطني ورفضه البقاء في بيئته العائلية الممثلة للحكم القائم وقتئذ ، وانتماؤه الى الشعب وتبني مطامحه وآماله الوطنية والاشادة بما في شعره . وقد أصاب الاستاذ الجابري في اعتبار خزندار من مؤسسي الشعر الوطني السياسي وهو شاعر « ما يزال بحاجة ماسة الى دراسة تحليلية لجوانب عميقة من حياته ايمانا منا بأنه الشاعر الوحيد الذي لحقه غبن واهمال » (1) وحلل المؤلف العوامل التي ادت الى « مبايعة » خزندار بامارة الشعر وهي عوامل ذات صبغة وطنية عاطفية « ومهما قيل في هذه الامارة فهي تبدو الان من غير شك ذات اسباب سياسية اكثر منها اتصالا بالادب والشعر » (2) ولعل رأي المؤلف في هذه القضية التي اخذت صدى بعيد الاثر في ذلك العهد ، يبدو انه الاقرب الى الموضوعية ذلك لان القارىء لشعر « الامير » يجده أقل بكثير من الناحية الفنية والايحائية من عدد من الشعراء المعاصرين له . ويبدو تجرد الاستاذ الجابري أيضا في الاشارة الى نقائص خزندار وخاصة منها دفاعه عن جده مصطفى والاطناب في ذكر خصاله (3) الا أن ذلك لا يضعف من قيمة الشاعر وخاصة الوطنية اذ هو « بلا مراء شاعر العشرينات وشاعر التحولات السياسية » (4) .

أما الشاعر الثاني مصطفى آغا فهو ينتمي ايضا الى عائلة لها صلة بالحكم اذ كان جده وزيرا للحربية الا انه يختلف عن خزندار فهو لم يستطع التخلص من بيئته العائلية والانضمام الى صفوف الشعب فبقي ملتصقا بها أشد الالتصاق مرتبطا برجالها متمتعا بما في قصور أجداده من حياة مليئة باللذة . « ويقينا أن هذه الحياة بما لها وما عليها كانت قد اغوت الشاعر وباعدت بينه وبين مختلف الاتجاهات الوطنية التي كانت سائدة خصوصا منها تلك التي استمالت اليها صفيه خزندار وجرت عليه لعنة القصر » (5) الا أن هذا البعاد لم يكن متطرفا اذ كان للشاعر ميل أو بعض الميل للحزب الاصلاحي « فكان في معظم ما يكتب يندد بالحيف الاجتماعي ويدعو الى الانصاف متجنبا مدلولات الخوض في التحريض على الثورة والتمرد » (6) .

واشار المؤلف الى ما امتاز به الشاعر مصطفى آغا عن معاصريه من الناحية الفنية الشعرية وخاصة بادخال « الاقصوصة الشعرية » وما تفرضه من تغيير في النغم الموسيقي والحوار ... في وقت كان يسيطر عليه القالب الشعري القديم . الا أن هذه المحاولة التجديدية لا تجعله « في عداد الشعراء المرموقين فهو أقرب الى القصاصين ونقد المجتمع منه الى الشعراء وان تحلى بحليتهم وتجلب بجلبابهم » (7) .

تيارات ونواد :

الفصل الرابع من هذا الكتاب هو في نظري من أهم الفصول أن لم نقل اهمها نظرا الى خصوبة الفترة التي شملها وكذلك للجهد الذي بذله المؤلف للتعريف بما غمرها من اتجاهات ادبية تجلت في النوادي العديدة وفي كثرة المجلات والصحف وكذلك في المعارك الادبية التي حدثت بين التيارات المختلفة .

الا أن أول ما يثير الانتباه هو العنوان الذي اطلقه المؤلف على هذا الفصل وهو : عصر الشابي . ومن المعلوم ان الشابي قد توفى سنة 1934 أي في بداية الفترة التي خصص لها الاستاذ الجابري كامل الفصل الرابع . ولا أظن أنه يعني بذلك تاثير الشابي في معاصريه لاننا نجده يذكر جوانب من ادب هذا الشاعر ويشير الى بعض الحركات التجديدية التي ظهرت خلال العقد الثالث من هذا القرن والتي كان الشابي من عناصرها البارزين . وقد عرف المؤلف في القسم الاول من هذا الفصل – كما هو شأنه في الفصول السابقة – بالحالة السياسية وما بلغته من تطور خاصة في مؤتمر الحزب الحر الدستوري المنعقد بقصر هلال في 2 مارس 1934 وما تبعه من مراحل تميزت بتصاعد الكفاح الوطني . كما تناول أيضا بالتعريف للحركة الصحفية وما كان ينشب احيانا من خصومات أغلبها ذات طابع سياسي اذ من الصحف ما كانت تساير الحكم الاستعماري ومنها ما وقفت موقفا مستقلا عن كل التيارات ، ومنها ما « كانت حزبية الاتجاه ذات ميل واضح الى الجناح الجديد من الحزب الدستوري » (8) ومن أبرز عناصر هذا الصنف الاخير صحف « جماعة تحت السور » التي مثلت في نظر المؤلف « نموذج ثورة الاسلوب الصحفي ووجه الثلاثينات بما فيه من صراعات وحدة وطرافة . فهي التي انقذت الاتجاه الصحفي من ورطة الاسلوب المتقعر وسمت به الى درجة الايحاء الشعري »

وقد ساهمت حركة الحياة السياسية والصحفية في تنشيط الحياة الادبية وبرز ذلك خاصة في ظهور مجلة « العالم الادبي » (9) التي كان يشرف عليها الاديب زين العابدين السنوسي والتي ضمت الى اسرتها ، نخبة الشباب الطالع ، وتبنت المحاولات الجديدة التي ظهرت في انتاج : الشابي . مصطفى خريف . محمد البشروش . علي

(1) نفس المصدر – ص 154 .
(2) نفس المصدر – ص 158 .
(3) ديوان خزندار – ص 164 .
(4) « الشعر ... » ص 179 .
(5) نفس المصدر – ص 183 .
(6) نفس المصدر – ص 184 .
(7) نفس المصدر – ص 206 .
(8) نفس المصدر – ص 215 .
(9) صدرت هذه المجلة سنة 1930

الدوعاجي ومحمد الحليوي وغيرهم . وظلت هذه المجلة « مقر الصفوة من الادباء والشعراء على اختلاف منازعهم » مدة من الزمن الى أن دب الخلاف بين أفراد اسرتها اثر قيام المجلة باعادة تنظيم « امارة الشعر » وقد حلل الاستاذ الجابري بتفصيل مفيد الجوانب الذاتية والادبية والاجتماعية لهذه القضية وتاثيرها في الحياة الادبية عامة وفي اسرة مجلة « العالم الادبي » بوجه خاص . فلم تبق اسرة المجلة على ما كانت عليه من تماسك وانسحب منها : الشابي والحليوي والبشروش، وشن بعضهم عليها نقدا لاذعا في جريدة « الزمان » التي كان يشرف على تحريرها محمود بيرم التونسي .

ويبدو من الصفحات العديدة التي خصصها المؤلف لبحث هذا الموضوع أن الخلاف لم يكن ناتجا عن « امارة الشعر » فقط بل كان نتيجة اختلاف في النظرة الى الادب والشعر .

ثم تناول صاحب « الشعر التونسي المعاصر » بعض التيارات الادبية وخاصة منها ظهور الرومنطيقية في تونس وتأثر بعض الشعراء بها منهم من اطلق عليهم « الثالوث الرومنسي » وهم الذين انسحبوا من مجلة « العالم الادبي » ويعلل اهتمام بعض الادباء التونسيين بهذا المذهب وحرصهم على دراسته والتشبع باصوله ما كان يعانيه الشعر في تلك الفترة من جمود وقصور ورتابة سواء في الشكل او في المضمون . اما تاثر « الثالوث » المذكور بهذا الاتجاه الادبي فقد ارجعه المؤلف — بالاضافة الى الاسباب العامة — الى عوامل تتعلق بنشاتهم وبيئاتهم وطباعهم الشخصية (1) وقد اختار احد هؤلاء وهو محمد البشروش للتعريف به باعتباره نموذجا للشعراء الرومنطيقيين . فبين دوره البارز في الحياة الثقافية وخاصة بتأسيسه مجلة « المباحث » سنة 1938 وهي من « المجلات الرائدة التي خلفت — العالم الادبي — واستطاعت ان تستقطب الجيل الجديد ، وان تكون « مجمع الاقلام الحية والصوت الشاب الذي هز الوسط الادبي » (2) الا أن المؤلف يعترف بأن محمد البشروش « رصاف كلمات اكثر منه شاعر . لم نحشره هنا لنظلمه حقه كقصاص ولكن مخايل الرومنسية التي تلمح في انتاجه توجب علينا الوقوف ولو سراعا عند واحد من الثالوث الرومنسي » (3) ويبدو — في نظري ان هذا السبب الذي ذكره المؤلف والذي دعاه الى اختيار البشروش هو مبرر غير مقنع اذ كان عليه أن يحلل نموذجا شعريا يمثل الاتجاه الرومنطيقي أحسن تمثيل ولم لا يكون الشابي نفسه على أن لا يتناول بقية الجوانب في شعره فهي غنية عن التعريف .. ؟

وفي القسم الاخير من هذا الفصل يحلل المؤلف حركة النوادي الادبية والامكنة التي كان يجتمع فيها اصحاب هذه النوادي وهي بعض المقاهي والدكاكين وبعض البيوتات ولا شك ان هذا القسم من الكتاب هام جدا لكل الدارسين للادب التونسي المعاصر لان المؤلف حلل فيه باطناب مصادر الحياة الادبية وما كان يحدث بين عناصرها من تفاعل ، واثر ذلك في تنشيط الادب ودفعه الى التجدد والتطور .

اتجاهات جديدة :

خصص المؤلف الفصل الخامس والاخير من الكتاب لبحث التيارات الشعرية الجديدة التي ظهرت فيما بين سنتي 1943 — 1970 . وقد حلل في بداية هذا الفصل المراحل التي مرت بها مجلة « المباحث » ، وخاصة في عهدها الاخير ويبدو ان هدف المجلة بعد البشروش (توفي في نوفمبر 1944) تحدد في العمل على ابراز معنى الثقافة وبلورة الذاتية التونسية ووصل المثقف باحداث حياة شعبه اليومية » (4) ثم اشار الى تصاعد الحركة الوطنية التونسية وانشغال الشعراء بالموضوعات السياسية وظهور مجلة « الفكر » سنة 1955 التى « يعود لها الفضل الاكبر في رعاية » الحركة التجديدية في الشعر وانتشاله من الجمود « والنغمة المكررة » .

وتناول المؤلف — اثر ذلك — الاتجاهات الشعرية الحديثة فقسمها الى أربعة اصناف : الاتجاه الكلاسيكي ، الاتجاه الغنائي — اتجاه ما بين الحلم والواقع والاتجاه الواقعي . ولاحظ أن هذه الاصطلاحات هي « أصطلاحات صورية يسرت بها هذا العمل في فصل المجموعات المختلفة من الشعراء عن بعضها وتنظيم الجماعات الاقرب اسلوبا وتفكيرا » (5) .

وقد امتاز هذا الفصل بكثرة الشعراء الذين عرف بهم وبشعرهم (6) باعتبارهم نماذج للاتجاهات التي اشرنا اليها . وقد مكننا الاستاذ الجابري من معلومات مفيدة عن هؤلاء الشعراء لصلته الشخصية بهم ولذلك فهو لم يعتمد على نصوص مقتبسة من الصحف والمجلات والدواوين الشعرية فقط بل اعتمد ايضا على كثير من المعلومات المقتبسة من « المعايشة » وهذا جانب هام في نطاق دراسة تاريخ الادب وفي الادب أيضا .

الا أن دراسة تقسيم المؤلف للاتجاهات الشعرية وتصنيف الشعراء حسب ذلك مكنتنا من ابداء الملاحظات التالية :

1) ان التقسيم الذي اعتمده المؤلف لا يبدو واضحا بالنسبة الى بعض الشعراء الذين درس انتاجهم الا في فترات معينة محدودة من حياتهم الشعرية ومن المعلوم ان تصنيف كاتب او شاعر في اتجاه أدبي وفكري معين لا يمكن أن يكون

(1) « الشعر ... » ص 251 — 152 .
(2) نفس المصدر — ص 271 .
(3) نفس المصدر — ص 275 .
(4) نفس المصدر — ص 348 .
(5) نفس المصدر — ص 369 .
(6) عرف : 18 شاعرا .

الا بالنسبة الى أغلب انتاجه والا فاننا سنضطر الى ادماج أديب واحد في اتجاهات ومدارس مختلفة . ولعل هذا الغموض في التقسيم هو الذي جعل المؤلف يضع الشاعر محي الدين خريف ضمن «الغنائيين» (1) في حين اننا نجده عند نفس المؤلف ضمن « الواقعيين » في المقال الذي نشره بمجلة الاداب البيروتية (2) ولا أعني بذلك أن الشاعر لا يقول الشعر في مدارس مختلفة أحيانا وانما اعني أن عملية التصنيف لا يمكن أن تخضع الى مرحلة معينة أو الى بعض القصائد .

2) ان المعلومات التي قدمها عن بعض الشعراء وخاصة عن : اللغماني وزبيدة بشير وجعفر ماجد مفيدة جدا للدارسين وخاصة نشر الابيات التي لم تنشر من قبل ، ونقده لصاحبة « حنين » في كيفية ترتيب قصائد هذا الديوان .. الا أن ما كنت اتمناه – خاصة بالنسبة الى شعر جعفر ماجد – لو ابتعد المؤلف عن تلخيص بعض الابيات وعوض ذلك بالتعمق في دراسة لغة هذا الشاعر وهي لعمري حرية بذلك لما تمتاز به من اشراق وايحاء ورقة يزيد في تركيز الصورة الشعرية .

3) تجمع بين المؤلف وبين الشاعر الميداني بن صالح « علاقة انسانية حميمة (ما زال يعتز) شديد الاعتزاز بها (3) فهل هذه العلاقة هي التي جعلته « يتجاوز شعره » الى الجانب الانساني فيه ؟ لقد اجاد الاستاذ الجابري في اظهار هذا الجانب الذي يجهله الكثيرون ولكن كان من المفيد أيضا لو أظهر ما يبدو في شعر صاحب « قرط أمي » (4) من تمثل وتمثيل للتيار الواقعي الاشتراكي .

مزايا ... وماخذ

بعد هذا التقديم التحليلي الذي أردته موجزا قدر الامكان خاصة بالنسبة الى كتاب يتجاوز 700 صفحة ، لا بد من التاكيد على الجهد الكبير الذي بذله المؤلف **سواء في جمع المعلومات واستقصاء المراجع والمصادر أو في الاستفادة بذلك وهو ما جعل من الكتاب مرجعا أساسيا لمعرفة الحياة الادبية والفكرية في قرن من الزمن حافل** بالاحداث والتغيرات في مختلف الميادين ، ولذلك فان أراد الاستاذ الجابري لكتابه أن يكون خاصا بالشعر فالكتاب أراد لنفسه أن يكون شاملا ملما بأهم المراحل والتيارات معبرا عن منابع هذا الفن الادبي ومدى تأثيرها فيه شكلا ومضمونا .

الا ان هذا الكتاب الضخم – ككل عمل « بشري » ، لا يخلو من ماخذ أهمها في نظري :

1) ركز المؤلف على العوامل السياسية سواء في تحديد الفصول أو في ابراز التيارات الشعرية المختلفة ولا أشك في تأثير هذه العوامل ولكنني لا أشك كذلك في تأثير غيرها من العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي اهملها المؤلف .

2) اعتمد المؤلف على الصحف والمجلات جميعها لاستقصاء المعلومات وهذا عمل هام جدا لان ادبنا كان وما يزال أدبيا يعتمد على هذه الوسائل الثقافية أكثر من غيرها . ولكن من الملاحظ أن الاستاذ الجابري قد أكثر من الاستشهاد بالنصوص الطويلة في حين أنه في الامكان الاقتصار على بعض الجمل أو الفقرات الضرورية المعبرة عن المعنى المقصود .

3) أطال المؤلف في الفصول الاربعة الاولى في تحليل الحياة السياسية والحركة الصحفية . ومن المعلوم أن لهذين الميدانين صلة جدلية بالادب لكن المؤلف أكثر من التفصيل حتى أن القارىء يشعر أحيانا وكان الكتاب مخصص للحديث عن تاريخ الصحافة وتسجيل التطورات السياسية لا لتحليل الاتجاهات الشعرية .

4) ركز الاستاذ الجابري خلال تحليل التيارات الادبية على العوامل الداخلية وأهمل التاثيرات الخارجية سواء من المشرق العربي أو من الغرب الاوروبي . ذلك لان جل المثقفين التونسيين كانوا يتابعون كل ما يجد في الميدان الادبي والفكري من خلال الصحف والمجلات العربية والاجنبية .

5) لقد حدد المؤلف في « تقديم الكتاب» المقاييس التي اعتمدها لاختيار الشعراء وهي مقاييس تمكننا من معرفة مذهبه الشعري ، هذا المذهب الذي اشار اليه بوضوح أكثر عند الحديث عن الشاعر الميداني بن صالح (5) فلعل ذلك هو الذي جعله لا يدرس شعر سعيد أبي بكر والطاهر الحداد مكتفيا – بالنسبة اليهما – بالاشارة العابرة السطحية . لعل ذلك أيضا هو الذي جعله لا يدرس انتاج بعض الشعراء المحدثين اما شعراء « غير العمودي والحر » فلم يشر اليهم البتة وهو يرى أن هذه التجربة لم تستقر أصولها بعد وهي في حاجة الى مزيد من التوقف والتثبت (6) .

6) لم يعد المؤلف لهذا الكتاب الضخم من ناحيتي الكم والكيف فهارس للاعلام والمصادر والمراجع . ومعلوم ان هذا العمل ضروري ومفيد للباحثين خاصة وان الاستاذ الجابري قد اعتمد على مئات الصحف والمجلات والكتب .

ان هذه الماخذ القليلة التي اشرت اليها لا تنقص من قيمة هذا العمل وكفاه أهمية ، ان تعد معائبه » ، وسيظل كتاب « الشعر التونسي المعاصر » كما قال الاستاذ محمد العروسي المطوي في تقديمه : لبنة الاساس لدراسة الشعر التونسي الحديث مهما أتى بعد ذلك من دراسات وأبحاث » .

محمد مواعده

---

(1) نفس المصدر – ص 575 .
(2) الاداب – افريل سنة 1972 (ملف خاص بالادب التونسي) .
(3) « الشعر ... » ص 693 .
(4) المجموعة الشعرية الاولى للميداني بن صالح ، صدرت سنة 1969 .
(5) « الشعر ... » ص 691 .
(6) انظر الاحالة عدد 4 .



عبد السلام العجيلي

أجرام : عبد الرؤوف الحنيبي

ـ انا شديد التعلق بالقيم الانسانية ، كثير الحذر من التقليد والمحاكاة

ـ قصتي : « نبوءة الشيخ سلمان » كانت نذيرا لما حدث في مهزلة 1967 وبعدها ..

ـ اخشى ان تزول بعض القيم الانسانية والصور الفذة من حياتنا العربية

نطرح في هذا اللقاء مع الاديب العربي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي ، جملة من الاسئلة ونثير العديد من قضايا الاديب العربي وهو يواجه مسؤولية الكتابة

ذكريات ادبية

قلت : في حياة كل كاتب مدرسة اثرت فيه واثر فيها فما هي هذه المدرسة وكيف كان وضع الادب السوري يوم اتخذتم الكتابة رسالة وهدفا ؟

قال الدكتور عبد السلام العجيلي : اذا رجعت الى ذكرياتي الادبية فاني غير واجد مدرسة محددة استطيع ان اقول انها هي المؤثرة في باستثناء ما تركته في نفسي قراءاتي في صباي الاول لكتب الادب التي كانت تقع في يدي صدفة ومن دون انتقاء ، هذه الكتب هي دواوين الشعراء القدامى وقصص الادب الشعبي مثل الف ليلة وليلة وعنتر بن شداد وحمزة البهلوان وقصص الانبياء وسير الصحابة والابطال في التاريخ الاسلامي

قراءاتي لهذه الكتب غرست في نفسي حب الادب العربي او بالاحرى حب النتاج الفني للامة التي انتمي اليها وجعلتني ارى تاثير هذا النتاج قادر على ان يكشف كل ما توارد على شخصيتي الفنية في سني النضج من اثار الفنون الاجنبية مهما بلغت تلك الفنون من التكامل والابداع

ولا اذكر اني اعطيت في قراءاتي الاولى امتيازا خاصا للادب السوري بين اداب الشعوب الاخرى ، ومن حسن الحظ ان المتادبين والكتاب والشعراء السوريين في الفترة التي نمت فيها موهبتي الادبية كانت مثلي تعلقا بالنتاج الفني العربي وتعلقا بالمثل العربية العليا ، فكانت العروبة هي الموحية لابداعهم وكانت الاساليب العربية الاصيلة هي المتبعة في انتاجهم

قلت : ظهرت بواكير قصصكم في مجلة ـ الرسالة ـ عام 1936 وفي نفس الوقت تعاطيتم كتابة الشعر ، فما هي النزعة التي طبعت تلك التجارب الاولى ؟

قال : صحيح كانت اول قصة لي هي ما نشرته في مجلة ـ الرسالة ـ المصرية حيث كنت طالبا في الثانوية ، وكان ذلك مشرفا لي في الحقيقة ، اذ كانت هذه المجلة ملتقى اقلام نخبة كتاب العالم العربي في شرقهم وغربهم ، واذ اتيح لصبي مثلي ان ينشر نتاجه الاول في هذه المجلة الكبيرة فذلك مشجع لي ومرض لنفسي

والواقع ان الدافع الاساسي الذي دعاني الى ان اكتب في بدايتي ظل هو الدافع الاول في كتاباتي التي توالت حتى اليوم ، هذا الدافع هو الرغبة في التعبير عما في النفس او في الفكر من احاسيس واراء ، وبالطبع يضاف الى هذا طموح الى ان يرقى الانسان مدارج الابداع مقرونا بحب لتقليد المشهورين والكبار من المبدعين ، ولا بد لي ان اعترف ان هذا الطموح وهذه الرغبة في التقليد قد تضاءلا اليوم في نفسي او امحيا وظل الدافع الاكبر هو الرغبة الملحة في التعبير عما في النفس والفكر فيما اكتب

واذا كان السؤال هو عن النزعة بمعنى الاتجاه الادبي في الكتابات الاولى فالجواب يكون لا ،، اذ بدات كما بدا كل صبي غض الاهاب ، قليل الزاد من التجربة ومن المؤهلات ، بنزعة رومنسية فيها كثير من المشاعر وقليل من الافكار ، ولكن الواقعية كان لها في نفسي بذور دقيقة تحالف الزمن والتجربة على انضاجها وطغيانها على الجانب الرومنطيقي من ابداعي الادبي

مذهب وتعبير

قلت : في كتاب « فنون الادب المعاصر » للدكتور عمر الدقاق يقول ان مذهبكم في القصة قوامه الاستجابة لدواعي النفس والشعور والتعبير الصادق الاصيل عن هذه المنازع الانسانية ضمن اطار فني ، وفي كل ذلك يحرص الدكتور العجيلي على ان يكون شخصيا في نتاجه بعيدا عن الاحتذاء والماثر ،،،

فكيف تفسرون اسلوبكم الروائي لغة وتعبيرا وموضوعا ؟

قال : انه تقسيم صحيح فيما اظن من نفسي فانا كما قلت استجيب فيما اكتب للدواعي النفسية الى التعبير عما احس به وافكر به ، وانا كذلك شديد التعلق بالقيم الانسانية وكثير الحذر والابتعاد من التقليد ومحاكاة الاخرين بل اني ابتعد ما اقدر عن محاكاة ما طرقته قبلا في قصة او مقالة ، بالطبع لا يستطيع الانسان ان يخرج من نفسه في كل ما يكتبه اذا كان صادقا فيما يكتب ، فهناك اشياء مكررة هي المبادىء التي جبلت عليها فنيا وفكريا وسياسيا ، ولكن الاساليب التي اتبعها في التعبير والتقنية في القصة التي اكتبها وحتى في المقال الذي اكتبه هما متجددان متغيران بقدر ما استطيع وما تسمح به موهبتي الادبية

نبوة الشيخ سلمان

قلت : اذا سمحتم لنعبر سريعا الى مرحلتين لمست تاثيرهما في ادبكم : احتلال فلسطين ومهزلة 1967 ، هنا تحضرني كلمة لكم في ندوة المثقفين العرب بدمشق عام 1968 قلتم : « في عصرنا تكاد تكون مستحيلة عزلة المثقف العربي في برجه العاجي ، منصرفا الى لذائذ المعرفة ، او الى الابداع الفني ، ، فالقضايا العامة من محلية وقومية وانسانية تنفذ اليه مع خبزه اليومي » ،،، كلام يحتاج الى تحليل وتحديد رؤيتكم لدور المثقف

قال الدكتور العجيلي :

في الواقع ان المعالم البارزة في طريق مسيرتنا

الانسانيـة ومسيرتنـا القوميـة كثيـرة ولكـن هاتيـن النقطتين اللتين ذكرتهما في هذا السؤال هما حقا من ابرز هذا المعالم ومن اكثرها تاثيرا في نفسي مثـل تاثيرهما في امتنا ،،، احتلال فلسطين كان امرا مؤثرا في نفسي اكثر من تاثيره في عدد كبير من امثالـي لاني عايشته سياسيا واكاد اقول حربيا

في عام 1948 كنت نائبا في مجلس النواب السوري وكان ادراكي للخطر المهدد بلادنا وامتنا ومستقبل هذه الامة شديدا الى درجة دفعتني الى ان اهجر مقعدي في مجلس النواب ءانذاك ، وان انضم الى افواج المجاهدين التي دخلت ارض فلسطين قبل دخول الجيوش العربية رسميا اليها في محاولة لمنع تكوين اسرائيل قبل ان تكـــون

لا اكتمك بان النتيجة السلبية التي وصلت اليهـــا افواجنا في تنفيذ ما ارادت تنفيذه كانت غير غريبة علي بعد تجربتي فيما تستطيع ان تسميه بميدان القتال نظرا لما اتاحته لي من معرفة امور كثيرة كنت جاهلا بها عندما كنت على مقعدي بالمجلس على الرغم من ان هذا المقعد يتيح لي ولامثالي اطلاعا سياسيا المفروض انه واف بالقضايا القومية الكبرى

وبعد ان جرى ما جرى ووافقت هياة الامم المتحدة على قيام دولة اسرائيل وقامت على ارضنا المغتصبة ظل تخوفي في مكانـه نظـرا لمعرفـتي بنـوايا عدونـا واطماعه ومعرفتي بنقاط ضعفنا التي مرت عليهـا عقود من السنين ولم تتبدل ، بالطبع اثر هذا فـي كانسان منتسب الى هذه الامة بكل النواحي ، والناحية الادبيـــة احداها

واذا قلت لك بان ماساة 1967 كانت مترقبة في نظري اذا لم يكن بتفاصيلها فبمجملها فاني لا اتجاوز الحقيقة والذي يرجع الى ما كتبته من قصص قبل عام 1967 والى قصة لي بالذات عنوانها « **نبوءة الشيخ سلمان** » مكتوبة عام 1965 على ما اعتقد ، ومنشورة في مجموعتـــي القصصية « **فارس القنيطرة** » ، يجد انني كنت مترقبا بما جرى في عام 1967 ، وقد قال لي ذلك كثيرا مـن قراء قصصي بعد ان وقعت الواقعة ،،،

لذا فان عام 1967 لا يشكل عندي مثل ما شكل عند كثير من الكتاب والشعراء منعطفا كبيرا لانهم فـي الواقع كانوا مخدوعين بمظاهر لم اخدع بها انا في تلك الايـــام

واقعية انسانية

اما ما ذكرته عن رايي في امكانية انعزال المثقف عن القضايا العامة فهو امر واقعي فرضته ظـروف الحياة التي يعيش فيها عالمنا فـي كل بقاع الارض ، والتي تمس المفكر العربي اكثر من غيره ، فقنابـل العدو المهياة لتخريـب ديارنا لا تفـرق بيـن القريب والبعيد وبيـن المحارب او المسالـم ـ اذا كان هناك مكان لمسالم في هذه الايام

لنا عدو شرس لا ضمير له ، عنصري في تفكيره ولا حد لاطماعه التي بدات من راس جسر له في ارضنا يريد ان يتمادى به متملكا منطقة كبيرة من العالـم العربي وغايته البعيدة في ذلك ان يسيطر على العالم كله من خلال سيطرته على بلادنا

قد يرى بعض الناس البعيدون ظاهريا عـن ارض المعركة ان هذا التقدير مغال فيه ، ولكن الذي يقيس ما سوف يجري بما جرى لا بد له ان يفتح عينيه على هذه الحقيقة ، والمفكر العربي بصفته مفكـرا معمـلا عقله وذكاءه في دراسة الامور وتمحيصها واستنتاج المستقبل منها لا يستطيع ان يظل بعيدا عن مشاكل المجموعـة البشرية التي هو جزء منها

ضرورة تعمق المفكرين

قلت : هل اثرت احداث الشرق الاوسط واوضاع فلسطين وسوريا على انتاج المفكرين العـرب المعاصرين وعلى ادبكم بالخصوص بعد مهزلة 1967 ؟

قال : لا شك في ا نالماساة التي تسميها انت مهزلة اثرت كثيرا في الادباء الذين كثر الاتجاه التشاؤمي في انتاجهم ، والانتاج المتسم بتعذيب النفس ، فكانت هناك قصائد وقصص ومسرحيات كلها تنقد العرب نقدا ذاتيا تشاؤميا ، ومصدر هذا قلة تعمق المفكرين فـي اسس قضيتهم الكبرى وقلة معرفتهم بخصائص امتهم اغلبهم كان متعلقا بالظواهر وبالانجـــازات الوقتية ، سريعوا التصفيق لما يظنوا انه انتصارا ، سريعـو الانكسار لما يرونه انكسارا ، ومثل هذا حدث بعدمـا استرددنا شيئا من قوانا المعنوية بعد حرب اكتوبر ، وانا ءاخذ دوما على المفكرين قبل غيرهم سرعة انفعالهم انفعالا لا يتناسب مع الاسباب التي تؤدي اليها

قلت : اذا حدث هذا وجاء ادب المهزلة او النكبة بشيء جديد فهل نستطيع القول : « جزى الله الشدائد كل خير ؟ »

وتبدو على ملامح الدكتور علامات استفهام صامتة ، غائمة ،، انه يريد ان يقول اشياء خطيرة ، ولكنـــه يختزل عنفوانه ويقول :

ان الشيء الجديد الذي جاء به ادب النكبة لم يكـن شيئا مرضيا بالنسبة لما اعتقده ، المفكرون لم يساهموا في رفع الروح المعنوية او في تبيان الطريق السليمـــة التي يجب ان نسلكها حتى نسترد ما خسرناه في حرب 1967 كما قلت

اكثـــر الانتـــاج كـــان تشـاؤميـا وقليـــلا مـــا كان موجها نحو الطريق السليمة التي يجب ان تتبعها الامة العربية لتحصل على حقها وتستعيد كرامتها

تدمير اسوار العزلة

قلت : ومع هذا فان الادب العربي لم يحطم اسوار عزلته فكيف تتصورون عالمية الادب العربي وبمـــاذا يجب ان تتجه الى عالم الاعداء والاصدقاء ؟

قال الدكتور العجيلي : انا سيء الظن بقيمة ما قدمه الادباء والمفكرون العرب لقضيتهم ، جل ما ينتجونه هو اصداء للواقع الذي يجدونه حولهم ، كما قلت لم يقوموا بدورهم الذي يجب ان يقوموا به من التوجيه نحو الطريقة المثلى بل حتى من التعبير عن مشاعر الشعب الحقيقية في الازمات ،،، لا يزال تاثير ادبنا محدودا حتى في الاوساط العربية ولذلك فان تاثيره اكثر تحددا في الاوساط **الغربية** ، غير اننا لا ننكر بان السنين الأخيرة قد شهدت نشاطا في التبادل الثقافي بين المنظمات الادبية العربية وبين بعض المنظمات في البلاد الشرقية وبعض بلدان العالم الثالث كان لها تاثير محدود في شرح قضيتنا ولا يزال امام هذه المنظمات الشيء الكثير لتفعله في التعريف بقضايانا والتعريف بشخصيتنا في العالم الغربي الذي اعمته دعايات الصهيونية بصورة خاصة عن كل ما لنا من قيمة في المجالات الانسانية وعن نضالنا في الحصول على حقوقنا المغتصبة

وفي هذا تقع مسؤولية كبيرة وواجب محتم على ادباء المغرب العربي الذين لهم صلة كبيرة بالاوساط الثقافية الغربية ، فهم يقرؤون ويكتبون باللغة الفرنسية على الاخص ،،، نرجو ان لا يظل موقفهم موقف المتلقي من الثقافة الغربية ، يتلقون اراءها وافكارها ويعكسونها كالصدى في انتاجهم الادبي ،،، مسؤوليتهم القومية والدينية وحتى الانسانية تقتضي ان يكونوا فعالين ايجابيين يعطون الغرب الصورة الصحيحة للشخصية العربية ويفسرون لهم النواحي المجهولة من قضايا العرب بصورة عامة وقضيتهم الكبرى العاجلة اعني القضية الفلسطينية بصورة خاصة

التزام بقضية المجموعة

قلت : مفهوم الالتزام اجتره الناس كثيرا ومع هذا فاني اجد نفسي ملزما لاسالكم عن مفهوم الالتزام في حمى الصراع العربي الاسرائيلي ؟

قال : اني اقول دائما ان الاديب الصادق هو ملتزم من دون ان يعلق على صدره لافتة بذلك ، ما دام الاديب يعي واقعه وبحكم اطلاعه وثقافته يعرف اكثر من غيره ما يحمله هذا الواقع من احتمالات خطورة على المستقبل ، فهو مضطر ان يلتزم بقضية المجموعة البشرية التي يعيش فيها ، وكما قلت بان الخطر الاسرائيلي خطر مخيف لا هدنة معه ولا توقف له الا بمجابهته المجابهة الحق بكل ما نملك من قوة ، فالتزام الاديب العربي على هذا المفهوم هو التزام مستمر ملاحق له في اغلب ما ينتجه في ميدان الادب . لا أعني بهذا ان نعطل كل اتجاهاتنا الفنية ونقصرها على التحدث عن النزاع العربي الاسرائيلي وانما اقصد ان يكون الانتاج الفني فيما يتعلق بهذا النزاع متجها وجهته الصحيحة في تقدير الخطر وفي حشد الطاقات النفسية لاتقائه اولا ثم القضاء عليه اخيرا .

كثرة الاعمال فقط

قلت : ما هو حظ أدب المغرب العربي من مطالعاتكم واهتماماتكم ؟

قال : يجب ان اعترف لك بان لي وضعي الخاص فيما يتعلق بالاطلاع على الآداب المعاصرة بصورة عامة ، فانا انسان يعرف بين المثقفين بانه كاتب في مختلف مجالات الكتابة الادبية كانه متفرغ للادب . اما في الواقع فانا هاو للادب بالرغم من كثرة ما طبع لي من كتب وما نشرت من مقالات او القيت من محاضرات . ان لي اهتمامات تاخذ علي كل وقتي فلا تترك منها لا القليل القليل للمطالعة . انا كما تعرف طبيب وعملي الطبي كثير ياخذ الاولوية في الاهتمام وفي الوقت ، وانا كذلك طبيب في بلدة صغيرة تلزمني حياتي فيها بضروب من الاهتمامات الاجتماعية التي لا معدى لي عن الانصراف اليها . أقول هذا معتذرا عن قلة اطلاعي لا على الادب المغربي والتونسي وحدهما بل على الادب العربي المعاصر من كل اقطاره بصورة عامة .

في شبابي عندما كنت قارئا اكثر مني كاتبا وحيث كنت املك الوقت للقراءة كان من حسن الحظ ان المجلات الادبية التي كانت ملء الاسماع والابصار ، ان تلك المجلات كانت ميدانا تجول فيه اقلام كتاب المشرق والمغرب مثل **الرسالة والثقافة والاديب** اما الان فقد انسحبت او كادت هذه المجلات عن اهتمام القراء بصورة عامة وانعزلت اقلام الكتاب كل في بلده تقريبا ، واذا كنت متشبعا لما ينشر في تلك المجلات القديمة لآثار الاقلام المغاربية من اخواننا الادباء في تلك الايام فاني اسف على ان معرفتي بالكتاب التونسيين وكتاب المغرب العربي بصورة عامة في هذه الايام قليلة لما ذكرت ،،،

الى الناشئة الادبية

قلت : تجربتكم الادبية والقصصية غنية وثرية والشباب في حاجة الى رأيكم .

قال : هذا يعني انك تخرجني من حلبة الشباب .

الواقع ان الذي اريد ان اقوله لكل ذي موهبة في الادب ان يعتمد على نفسه قبل كل شيء . ان يلتمس النبع من داخله وان يكون صادقا فيما يكتبه ، مبتعدا عن التقليد فما من مقلد بلغ شأو المقلد ، ولكن الاصيل قادر دوما على ان يجد له محلا في الميادين الفنية وفي كل ميدان ، وبالطبع هناك شيء لا بد منه في تكوين الاديب العربي هو ان يحسن التزود من التراث العربي فان قراءته للادب العربي وللاثار الاسلامية الاولى تكون له قواما انسانيا وقوميا يجعل له مكانته في المجتمع البشري الذي نعيشه في العالم الآن ..

عبد الرؤوف الخنيسي